أحمد القرملاوي

WELCOME

دستينو

رواية

الدار المصرية اللبنانية



رواية

القرملاوي، أحمد.
دستينو: رواية / أحمد القرملاوي .- ط1.
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2015.
192 ص؛ 20 سم.
تدمك: 8 - 000 - 795 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 14590 /2015

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: رمضان 1436هـ - يونيو 2015م

أحمد القرملاوي



رواية

الدار المصرية اللبنانية

إهـــداء

إلى الجميع، باستثناء البعض..

بداية السطر

ممدوح إبراهيم الآدم

تتنازعني النَّزعات.. تكاد تـمزِّقني.. تفطرني نصفَيْن..

بعد قليل يلتئم النصفان.. ألعقُ جرحي في صمت هرة مُبتلَّة، وأبحثُ عمّا يُشتِّتُ ذهني كي لا يهصرني الألـم..

الـمأساة.. مأساة الوجود.. أن تكون أو لا تكون، وعندما تكون كيف تكون.. نجمًا يسكن السماء، يدفع ما دونه لأسفل خشية أن يسقط مثلهم، أم نكرةً منكورة بين أفواج البشر الـمنكورين، صفر مُصفر بين أصفار العوام.. أصفار تسكن اليسار.. تتشبَّثُ فوق السطر، لا تؤثِّر ولا تتأثَّر.

كنتُ أظنني نبيًّا، قبل أن أدرك أن زمان الأنبياء ولّى إلى غير رجعة، ومنذ أدركتُ عُدْت، غير نادم على شيء..

سعيْتُ مديدًا من أجل الناس، من أجل هدايتهم، من أجل أن أُنير لهم الطريق، أدفعهم نحو الصواب، أصنع من حياتهم شيئًا أفضل، أبعثُ من بواطنهم أسباب عمارة الأرض.. طويلًا فعلْت، حتى استوعبتُ الناموس وأدركتُ الـمنطق، فأشهرتُ أكبر راياتي البيضاء..

لا قيمة لشيءٍ لا ثمن له، لا قيمة على الإطلاق، فليس هذا زمان الأنبياء، ولا لدعوتهم ثمنٌ يُسدى. لا قيمة لما لن تستطيع تسويقَه، هكذا بوضوحٍ ودون مواربة، هذا هو الناموس الأعلى في هذا الزمان.

الحلم لا قيمة له، ولا الأفكار المجردة، ولا الشعارات الفارغة، ولا التعاليم البالية..

هذا زمن التسويق، والأفكار المُجرَّدة لا تُسوَّق.. ربما تُسوَّق ثمارها، فالثمار تكتسبُ القيمة إن أمكنك تسويقها، أما الأفكار وحدها فلا قيمة لها.

إن لم تبِع شيئًا فلا قيمة تملكها، وإن عشتَ عمرًا تزعم غير ذلك.

زعم الهنود الحمر أن الذهب حجر، مجرَّد حجر، ربما أقل نفعًا من غيره من الأحجار، كانوا يستغربون أمر الرجل الأبيض وهو يحرك الجيوش والبشر من أجل هذا الحجر «غير النافع».. أما الرجل الأبيض فكان له رأيٌ آخر، فلم ينظر للحجر ومنفعته، بل لإمكانية تسويقه..

لأيهما دان النصر إذن؟

لمن سوَّق أفكاره بالطبع!

ولا زال الرجل الأبيض يضع موازين القيمة لكل شيء. لا قيمة لشيءٍ ولا لأحدٍ حتى يعتمد الرجل الأبيض وزنه. كلنا رهن قرار الرجل الأبيض، وتقييمه، وجميعنا ينتظر النتيجة؛ حُكّامًا ومحكومين.

شحيحة هي الخيارات، مستحيلةٌ هي العودة، فالساعة لا تعود إلى الوراء. إن أرجعتَها عنوةً، فلن يطاوعكَ الزمن. بل سيُكمل طريقه نحو تحوُّلكَ الشامل، وعذابك المستقر، ولن يعبأ بمشيئتك..

أي مشيئة؟!

في الظاهر: الجميع رهن مشيئتك.

في الواقع: ليست لك مشيئةٌ من الأساس.

فكيف الخلاص؟!.

* * *

من مُفكّرة ممدوح إبراهيم الآدم:

في العام 1848، اكتشف جيمس مارشال، عامل النجارة، الذهبَ في منطقة كولوما بولاية كاليفورنيا.

في العام 1850 أصدر حاكم نفس الولاية قانونًا يمنح الرجل الأبيض حق الإبلاغ عن أي هندي أحمر من السكان الأصليّين «يتسكّع» في النواحي دون فائدة، كي يتم القبض عليه وبيعه، على أن يُمنح المشتري حق تشغيل الهندي المُحتجَز لأربعة أشهر دون مقابل! ولكنه اشترط أن يتم البيع بالمزاد العلني، حفاظًا على الشفافية.

هكذا تأسَّست أقوى دول العالم.

النبل سذاجة، والعدل فلسفة وسفسطة لا تليق، وأخلاق الفرسان رحلت مع الفرسان، وحلَّ مكانها قانون الغابة الحديثة؛ غابة ناطحات السحاب ومنصّات الصواريخ، والأبراج والبوارج.. غابة وول ستريت وباركليز وجولدمان ساكس، وقانون ميرك وفايزر ولوكهيد مارتين، وإرشادات المُعلِّم المُلهم بِن بِرنانكي..

أترغب في تعلُّم القانون؟

عليك بـمذكرات روستتشايلد وتدوينات روكِفِلر؛ هاك أهم الـمراجع.

أتُريد أن تـحارب طواحين الـهواء؟

فكِّـر في طرح دواء جديد، أو مشـروع لتخفيـف آلام الـمرضى، وانتظر مواجهة لن تطالكَ وحدك، ولا يوقفها موتك.

ولـهذا رحلت هـمسة!..

* * *

- مستر مـمدوح، حضرتك مشغول؟

- أفندم يا سارة..

- سكرتير الوفد الأمريكي عايز يقابِل حضرتك.

- وبعديـن يا سـارة! فيه مقابلـة كده من غير ترتيب! قوليلُه مسـتر رحّال عندُه مواعيد تانية، ويا ريت نلتزم كلِّنا بالبرنامج اللي في الأجندة.. هقابِلهم كلُّهم في الـ dinner الساعة 6، قبل الحفلة بساعتين.

- بس يا مستر!..

- سارة، إعملي زي ما باقولِّك، أنا ما فيّاش دماغ.

- أوامرك يا مستر!

- سارة!

- أفندم مستر مـمدوح..

- ما تنسـيش معاد رجائي الـمحامي السـاعة 9، وهاتيلي رشّـاش الزرع من فضلك.

- بدري كده يا مستر؟

- أيوة، عايز اسقي الزرع قبل ما الحفلة تبتدي، قُدّامنا ليلة طويلة وممكن اتشغل عنّه.

- حاضر.. ثواني يا مِستر.

***

لـم يبقَ لي من حياتي الـماضية سوى سقاية نباتات الزينة..

عندما استأجرَت الـمؤسسة هذا البيت، تمهيدًا لإقامة الحفل، أوصيتُ مهندس الديكور أن يستقطع جزءًا من هـذه الغرفة الـمُطلّـة على الحديقة الأماميـة- بعـد أن قـرَّرنـا أن تصير مكتبًا خاصًّا لي- لعمل شـرفةٍ تُطِلُّ على ترعـة الـمريوطيـة، عبر الحديقة، كي أزرع فيها نباتـات الزينة التي تروق لي رعايتها بنفسـي، كما كنتُ أفعل في السـابق. لـم يستحسـن الفكـرة مطلقًا، وأكَّد لي أنـها سـتؤثر سلبًا على اتسـاع الغرفة وتصميمها، بدءًا من مـمرات الحركة وحتى توزيع الـمفروشـات و... و... وأخذ يسـدِّد صوبي الأسانيد الفنية التي تقطع بسوء فكرتي.

ولكنني لـم أعبأ برأيه، وأصررت.

حاول أن يُـثنيني عدة مرّات، مُسـتندًا إلى شـروط تعاقده مع الـمؤسسة، والتي تُـخوِّل له الحق في الاعتراض على أية تعديلات تضرُّ بواجهة الـمبنى، ولكنني أصررت.. وفزتُ بالشرفة الجميلة في النهاية.

عندمـا تـمتلك الـمال، يُصبح بإمكانك أن تُصِـرّ، أن تُنفِذَ رغبتك، حتى وإن لـم يكن ما تُصِرُّ عليه حقًّا أصيلًا لك.

ولكنك عندما تـمتلك كلَّ شيءٍ آخر، عدا الـمال، يصير من الطبيعي أن تـخسر باقي الأشياء، حتى تلك التي لا يُنازعك حقَّك فيها أحد.

قديـمًا، خسرتُ حلمي؛ حلم الكتابة، حلم الأدب، أن أصير أديبًا يسوس العقـول بقلمه، يرعاها ويُشـذِّبـها، يُعيـد ترتيبها، يُسـوّيـها، يخلق منها خلقًا آخر أعلى قدرًا، وأقرب إلى السـماء.. أهـملتُ الحلم حتى أفرُغ تـمامًا من معركة اليمين واليسـار، وأرسـم طريقًا من مُفترق أفكار تجاذبتني، شـتّتتْني، امتصَّـت طاقتي، وراحت تُفرغها بددًا في جوف الأرض.. ما كدتُ أسـتعيد الحلـم، حتـى جرفني التسـونامي الذي التهـم حياتي، السـابقة على الأقل، وابتلعني الحوت إلى جوفه الـمُظلم، فلـم يلفظني إلا اليوم..

قديـمًا أيضًا، خسـرتُ بيتي؛ شقة أبي الجميلة في الـمنيل، الـمُطلَّة على النيل من شـرفتها الخلفية الضيقـة، أو بالأحرى التي كانت تُطِلُّ عليه قبل أن ترتفـع من حولـها الأبراج السـوداء.. كلُّ ذلك قبل أن تتحوَّل البناية نفسـها لبرجٍ من هذه الأبراج.

زمان..

لـم أُحـب مكانًا فـي حياتـي كما أحببـتُ هذه الشـقة؛ كانـت جـميلة، مُتَّسـعة، رغم أن مسـاحتها لـم تتعدَّ الـمائة متر مربع علـى الأقرب، ولكنها ظلـت مُتَّسـعةً فـي ذاكرة طفولتـي وصبـاي. أدركـتُ صغر حجمهـا عندما كبـرت، وقارَبَ طولي أعلى خزانة ملابسـي الصغيرة، ولكنني ظللتُ أُحبها كثيرًا، وأعشـق شـرفتها الضيقة الـمُطِلّة على النيل الـهـادئ، الصبور. حتى بعـد أن صـارت رؤيـة النيل مسـتحيلةً من هذه الشـرفة، ظللـتُ أراه بذاكرة

الـماضـي التي انطبعـت فيها صورته القديـمة، جـميلـةً وناعمة، ولـم تبرح خيالي يومًا..

رحل أبي بليبراليته الـهادئة، ولحقت به أمي بيساريتها الـمُحبَطة، وبقيتُ أنا في الشـرفة أرعى النباتات الـمُزهرة صيفًا، وأُدثِّـرها بستارة من الـمشمَّع الشفاف شتاءً، حتى لا تـحجب عنها أشعة الشمس الحانية.

أمـا اليـوم، فأرانـي أرعى نباتـاتٍ نادرة، مسـتوردة، لا تـحتفـظ ذاكرتي بأسـمائها الـمُعقدة غير الـمألوفة مهما حاولت، فلا أجد اختلافًا يُذكر بينها وبين نظائرها في سنوات الصبا والشباب..

* * *

كـي تحتفـظَ لزهرتِـكَ المقطوفـة ببقايا الحيـاة أطول زمـنٍ ممكن، كي تنسـربَ الـروح مـن باطنها أبطـأ مـن الـمُعتاد، كي تسـتحثَّها علـى التظاهر باسـتمرار كاذب والترنح طربًا لنسـائم هواءٍ مُتوهَّـمة، لا يأسًا ولا احتِضارًا، كـي تضمـنَ كل ذلـك، عليكَ أن تقتطـع جزءًا غير قصير من السـاق أسـفل الزهرة، بـمقص ثقيل ألماني الـمنشـأ، ثـم تغمُر السـاقَ بالماء لنحو سـاعة. والأهم، عليكَ أن تفعل كل ذلك، قبل الغروب مباشرةً..

هذا ما فاتني أن أفعله بحلمي.. بل إنني جذذتُه بقسـوةٍ من أعلاه، بعد أن داهـمني الغروب، مباشرةً..

كانت الزهرة الوحيدة التي قطفتها لــ هـمسة زهرةَ كاميليا؛ زهرةً مصرية خالصـة، زَهريَّـة اللـون، رقيقة إلى حـدِّ الشـفقة، وبديعة إلى حـدِّ الافتتان. يومها، كانت هـمسـة قعيدة الفراش بسـبب كسـرٍ مضاعف أصاب سـاقها،

إثر سقوطها الأول بينما كانت تُعلِّق- بنفسها كالمعتاد- ديكور المسرح، فأردتُ أن أُهديها إحدى زهراتي التي غرستها بنفسي في طمي نيليٍّ جلبتُه من أمام منزل المنيل. لامتني بنظرةٍ خجول، وابتسامةٍ مُتردِّدة، حتى كادت ملابسي أن تنخلع عني.

سألتني:

- لِـمَ قطفتَها؟

- كي تنعمي بعطرها الناعم..

التقطَت الزهرة ورمقَتها بتعاطفٍ يكاد ينطق، ثم قالت:

- أرجوك، لا تفعلها ثانيةً. يُمكنني أن أشتمَّها في مكانها، وستزيد الحياةُ عبيرَها تضوُّعًا.

- أكثر ما يفوح عطر الزهور بعد قطفها مباشرةً، وقد خلقها الله لإمتاعنا.

- أحقًّا تعتقد أن الله خلق كل شيء لأجل متعتنا نحن البشر؟ وهل خلق هذه الزهرة الرقيقة كي يستمتعَ بها شخصٌ واحد، دونًا عن سائر البشر والكائنات؟!

أجبتها بابتسامةٍ يائسة، فأشفقَت عليَّ كما أشفقَت من قبلي على الكاميليا الذبيحة، التي راحت بتلاتها تُملِّس على ظاهر يد همسة، وقد صبغتها بقايا الشفق بحُمرةٍ دموية، ثم قالت:

- إذا أردتَ أن تُـمتعنـي بزهـورك، فاحملنـي إليها، ثـــم اخفضني قليلًا حتى أشتمَّها، ثـم احملني إلى السرير من جديد.

فكنـتُ أفعل ذلك كل يوم، حتى تخلَّصَت من جبيرتـها الثقيلة بعد سـتة أسابيع، ووضعت رباطًا ضاغطًا أخف وزنًا.

أما المرة الثانية التي سقطَت فيها هـمسة فوق خشبة المسرح، بينما تُعلِّق الديكور بنفسها أيضًا، فلم أرَها بعدها ثانيةً.

أمل معاطي عبد المعبود

كنتُ آخرَ الـمدعوين وصولًا إلى قصر الدكتور مـمدوح.

لـم يكـن ذلـك غريبًا، فقد عانيـتُ الكثير حتـى وصلتُ إليـه. فأنا- في ظنـي- لـم أكـن كسـائر الـمدعوّين إلى الحفـل مـمن يـملكون السـيارات الفارهة، ويسـتخدمون السـائقين، وتشـق مواكبُ أُبَّـهتهم عبابَ الشـوارع، بينمـا يقبعون في الـمقاعد الخلفية الـمتّسـعة الوثيرة، ذاتيـة التبريد، يرقبون باشـمئزازٍ عالـمَنا الخارجي الـمزدحم، والـمُتّسخ، من خلف ستائر سوداء مُسدلة على الجانبيْن.

كمـا أننـي- بطبيعة الحال- ليس لي رفقـاء مـمن يـملكون السـيارات الرياضية الـمُنخفضة، التي تفترش أبدانُـها وأضواؤها أسطحَ شوارع تُفسِح لـهـم ذاتيًّـا، فيمـر أحدهم تـحت بيتـي في «عـرب الـمعـادي» ويقلّني إلى الحفل خلف ستار الليل، والزجاج «الفيميه» الـمُعتم.

وحيـث إنني لسـت مـن أولائك ولا مـن هؤلاء، فلـم أجد مفـرًا من أن أسـتقلَّ سلسـلةً من وسـائل الـمواصلات كـي أبلغ مرادي عنـد نـهاية ترعة الـمريوطيـة، بدءًا مـن الأتوبيس الـمكـيَّف، مـجرد كنيـة لطيفة بالطبع، ثـم الـميكروبـاص، الذي هو اسـم لإحدى آلات القتل الشـهيرة فـي عالـمنا،

مـرورًا بالتُكتُـك، وهو من حشـرات الطريق التي لا تسـتأهل التوقُّف أمامها طويلًا رغـم استحالة التخلص منها، فدراجة أحد خفراء القصور الـمجاورة، وانتهاءً بـحذائي «الكوتشي» الذي فقدتُّه فيما بعد.

لـم يكن باسـتطاعتي- بالتأكيد- ارتـداء ملابس التنكُّر قبل أن أصل إلى البوابـة الـمهيبة لقصرالدكتور مـمـدوح، لذلك اضطررتُ لحملها في كيسٍ بلاسـتيكيٍّ كبير، تـخلَّصتُ منـه في حضرة البوابة الجليلـة، بعد أن ارتديتُ عندهـا زيّيَ التنكري فـوق بنطالي الـجينز والتي شـيرت الأبيض- أو هكذا عهِدتُه قديـمًا- ثـم خلعتُ حذائي الـ«كوتشي» وانتعلتُ خُفًّا أبيض مـحشوًّا بالإسفنج، يلائم ملابسـي الـهزلية، وتركتُ الحذاء أمانةً عند الخفير النوبي دقيق الـملامح، قبل أن أفقدَه.

كنـتُ قـد اسـتعرتُ هـذه الـملابس مـن صلاح، جـاري بالـدور الأول ومسـؤول الصوتيّات والحفـلات في منطقتنا الشـعبية، بعد إلحـاحٍ طويل، وقسَـمٍ غليظٍ أن أُعيده بنفس حالته-الـمُهترئـة ابتداءً- وكذلك بعد تذكيري له بعددٍ من الـمواقف التي كنتُ فيـها الطرف الأكثر شـهامة. أكد لي أنه في حاجةٍ لجميع أزيائه الليلة، كي يقوم بفقرته الراقصة في حفلة عيد ميلادٍ اتفق عليهـا منـذ عدة أيام، ولكننـي أقنعته أن يعتـذر لـمتعهد الحفـلات بأن أحدَ أزيائـه فُتِقَ بين الفخذيْن،ولـم يـجد وقتًا لرتقه، فوافق أخيرًا أن يسـتغني لي عن هذا الزي، حتى لا يوقعني في حرجٍ مع أصدقائي البكوات.

وفـرتُ بذلك مبلغًـا هائلًا منحني إيّـاه الدكتور ممدوح- عشـر ورقاتٍ خُضـرٍ من فصيلة المائة دولار النادرة!- كي أسـتعدّ جيدًا للحفل، وكان كل مـا طلبهُ منـي أن أرتدي هذا الزي تحديدًا، هذا كل شـيء. لـم يكُن الدكتور

ليتوقَّع أن أجدَ ما حدَّده هو بنفسه بهذه السهولة، عند جارٍ لي في نفس البناية! إنه الحظ السعيد عندما يقوم بإحدى زياراته النادرة لحياتي، فليس أقل من أن ينالَ ما يستحقّه من ترحاب.

***

وقفتُ أمام البوابة الرهيبة ذاهلًا بعض الوقت، ألتقط أنفاسي، وأُعيد حساباتي، وأُحصي الاحتمالات..

انتصفَت الليلة الظلماء وسكنَت المخلوقات على طنطنة صراصير المساء الرتيبة، ونعيب البوم المتقطِّع، هذا بالنسبة للخارج.. أما بالداخل، فقد انبعثت جلبةٌ صاخبةٌ من وراء البوابة الصمّاء، تراقصت على إيقاعها خطوطٌ من أضواء الليزر اللاعبة، التي لا يستقر انعكاسُها على موضعٍ ولا لون.

تعالَتْ البوابة الحديديّة السوداء فوق هامتي، بزخارفها المتشابكة، وهامتها المُتطاولة، وقد ازدانت بالبالونات السوداء وبالونات الهيليوم المُتطايرة، تداعبها نسماتٌ باردةٌ تهبُّ من مكامنها السريَّة، فبدت الوجوه المُنطبعة عليها أكثر عبثًا، بينما تعلَّقَت بتاج البوابة الهائل ثمرة قَرعٍ برتقاليّة ضخمة، مُفرغة الجوف، انبعث من باطنها ضوءٌ أزرق في أشكالٍ هندسيّةٍ ترسم ملامح الوجه المخيف..

مالي أنا وهؤلاء البشر غريبو الأطوار، وهذا المكان المُتطرِّف الموغل في الانزواء عن عالمي المُزدحم، الأليف...

***

عجبتُ لدعوة الدكتور ممدوح لموظفٍ بسيطٍ مثلي لحضور مثل هذا الحفل التنكريّ الصاخب في قصره الخاص، الذي لا أشكُّ أنه لا يدعو إليه سوى الأكابر من عِلية القوم، أو من أصدقائه الأجانب الكثيرين من مُختلَف الجنسيات. ثم منَّيتُ نفسي بأن الرجلَ ربما يراني بمنظارٍ لا يملكه أحدٌ غيره..

كنتُ قد أُعجبتُ بالرجل أيما إعجاب منذ وُظِّفتُ في شركة الدعاية والإعلان التي افتتحها منذ سنة على الأكثر، ولم أندم- حتى الآن- أن تركتُ وظيفتي الحكومية «الميري» من أجل راتبها، الذي تجاوز ثلاثة أضعاف دخلي السابق. بهرني الدكتور بأناقته السينمائية، وعطره الذي أشمُّه في المصعد بعد أن يغادره بنصف ساعة على الأقل. سحرتني كذلك قدرته على التحوُّل من وحشٍ كاسرٍ إلى نسمة هواءٍ حريرية مع تقلّب المواقف. أعاد إلى ذهني سحر آل باتشينو، وبريق روبرت دوڤال، وجاذبيّة محمود عبد العزيز. أمثالي من بسطاء المُوظفين لا يلتقونه مباشرةً بالطبع، وربما لا يعلم هو بوجودهم ولن يميّزهم إذا قابلهم خارج أسوار الشركة، ولكنني كنتُ الأكثر حظًّا بين زملائي بتعرفي إليه وجهًا لوجه. أما السبب في التعارف فيعود لزميلٍ لي، هو الأسوء حظًّا بيننا دون مُنازع، ولكن حسبُه أن أنقذتُ حياته من موتٍ مُحقّق.

الزميل هو عوض وِنوِن كما نُناديه، فهو «مُونون» في أكثر أحواله، خاصة في الصباح الباكر رافقني ذات صباحٍ باردٍ مُغلَّف بالشبّورة، في مأمورية لتغيير المطبوعة الڤينيل للوحةٍ إعلانيةٍ متوسطة الحجم، قرب نَزلة الشرابية من كوبري أكتوبر، وكان وِنوِن غائمَ الوعي بشبّورته الخاصة، كعادته في

غير شــهر رمضان. مـا أن ارتقيْنا السـقّالة الـمعدنية الـمُثلَّجـة، وبادرنا بنَزع الـمطبوعـة الڤينيل، حتى داهــمنـي صوت ارتطام شـديد، هبطَتْ على إثره رأس وِنـوِن دونــمـا صرخـةٍ واحـدة. فقـدتُ اتزانـي مـن هـول الـمُفاجأة، وانزلقَـت قدماي دافعةً تلك الألواح الخشـبية الـمُفكّكة التـي ارتقيناها منذ لحظات. لـمّا تنبَّهتُ لـما يـجري حولي، ألفيْتُ وِنوِن مُعلَّـقًا بالأسـفل من إحدى قدميْه، وقد انـخلع نصفُ حذائه وبرز كعب جوربه الـمُهترئ.

سـارعتُ بالنهـوض مُترنِّـحًـا، وثـبّتُّ اللوح الخشـبي الـذي تعلَّقَتْ به قدم وِنوِن بـ«قمطة» حديدية صدئة. هبطتُ السـقّالة، وسـارعتُ بنقل بعض الألواح الخشـبية إلى الـمسـتوى الأدنى، أسـفل جسـد وِنوِن مباشرةً، بينما تعالتْ صيحاتُ بعض ركاب السـيارات الذين تـجمَّعوا كي يزيدوا المشهد ارتبـاكًا. وقفتُ أسـفل عوض، وبـدأتُ أحثّه أن يـجذب قدمه الـمحشـورة بالأعلى كي أتلقَّفه من الأسـفل، ولكنّه بدا مذعـورًا، مُنتفِضًا، غير مدركٍ إن كان لا يـزال معلَّقًا أم أنه يسـقط بالفعـل. حاولتُ طمأنتـه، ولكن بلا فائدة. قفـزتُ فوق الألواح الخشـبيّة عـدة مرات كي أُثبت لـه صلابتها، ولكنه ظل يُلوّح بيده مرعوبًا وقد تضاعفتْ عيناه اتسـاعًا وجحظت حتى كادت تنخلع مـن مِحجريْـه، بينما دموع خوفه تـهبط فوق جبهتي وبداخل عيني مباشـرةً، لاذعـةً وحارقـة. لـم أكن أعرف إن كان باسـتطاعته الصمـودُ في وضع زينة عيد الميلاد هذا لمدة أطول.

أحسســتُ أن قلبه سـيلجمه الذعر في أية لحظة. اسـتجدَيْتُ الصائحين الـمُحوقِلين بالأسـفل أن يصعـد أحدهم لـمعاونتي في إنقـاذه، حتى واتت أحدَهـم الشـجاعةُ أخيـرًا. عاونتُـهُ حتى ارتقـى السـقّالة بجانبـي، ورجوتُه

أن يتلقَّف وِنـوِن كي لا تنكسـر رقبتُـه، وطمأنـتُ الأخير أننا لـن نتركه يقع ولـن يـحـدث له أي مكروه، ثـم سـارعتُ بارتقاء الـمسـتوى الأعلى ثانيةً، وحلحلْـتُ الـ«قمطـة» قليـلًا حتى أُفسـح لقدمه مجـالًا للانـزلاق، وبدأتُ أُخلِّـص قدمه الـمحشـورة من الفرجـة الضيقة، فانتابته حالـةُ ذعرٍ تصدَّعَت لـهـا أعصابي، وأخـذ يرتـجف مُقاومًـا يدي، حتى هبط كالقَـدَر فوق رأس الرجل الـمسكين بالأسفل..!

منذ ذلك الحادث، نال عوض وِنوِن لقبًا جديدًا هو «فرافيرو»، بينما نلتُ أنـا العديد من الألقاب البطولية، فقدتـها تباعًا مع توالي نزع أوراق النتيجة. ولكنني بعد الحادث بأيام، تلقيتُ اتصالًا من الأستاذة داليا سكرتيرة الدكتور مـمدوح تسـتدعيني للقائـه.. ارتبكت، ودعوتُ اللـه أن يلطف بي، رغم أن صوتـها وشى تـمامًا بأنه استدعاءٌ وديّ. ذهبتُ إلى مكتب الدكتور، وسألتُ عن الأسـتاذة داليا كما لو كنتُ لا أعرفها، فعـادةً ما يكون ادعاء الجهل أكثر أمانًـا مـن التصريح بالمعرفة لمن هم على شـاكلتي. أجلسَـتني قبالتها حتى يفرغ «الـمسـتر» مـمدوح- كما أسـمتْه- من مكالـمـةٍ هاتفية، وقدّمَت لي علبـة شـيكولاته لـم أقوَ على أخـذ حبةٍ منها، مُعتـذرًا بإصـرار ومُدّعيًا أنني لا آكل السـكريّات- وأسـناني الـمُفتّتـة تشـي بأني لا آكل غيرَهـا. نـهضَت سـريعًا ودلفَت إلـى مكتب الدكتـور، ففهمتُ أن لـمبة الخـط الخارجي قد انطفـأت، مُفيـدةً بأنـه أنـهـى الـمكالـمة.. بـهذه السـرعة؟! تسـاءلتُ قلِقًا، وأحسسـتُ بارتـجاف أطرافي وأنا أمسـح مُقدمة حذائي فـي نـهاية البنطال مـن الخلف، قبل اللحظة الـمصيرية. برزَت ثانيةً عند الباب، وأشـارت إليّ أن أتبعها بأصابع هي أرقُّ ما عرفتُ من مـخلوقات الله.

وكان اللقاء..

راجي مدحت بيومي

الآن، تـمرين التنفُّس:

شهيـق.. 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، 10.

امتصاص الأكسجين.. 1، 2، 3، 4، 5.

زفيـر.. 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، 10.

سـأُكرِّرهُ لاحقًـا. الوقـت ضيـق. لا بد مـن العـودة سـريعًا للكولونيل. لا بـأس مـن دقيقةٍ أخـرى ألتقطُ فيهـا صورتيْن أو ثـلاث للحمّـام الـمُبهر؛ الرخـام، السـقف الـمُسـتعار، الإضـاءات، الصنابيـر الذهبيّـة، الـمرايـا الـمُزخرفـة، البانكيت الذهبـي. كم صورة تكفيني كي أجـمـع فيها كل هذا الإبـهار؟ لا بد أن أفيد من هذه الأفكار في إعداد بيت الـمُستقبل. لا بد وأن أجعلهُ جنَّةً تليق بـ (مِسِـز بيّومي)، السيدة داليا سراج حرم الـمهندس راجي بيومي، الـمحترم. سـتُذهِبُ عقلها هذه الـمـرآة الرائعة التي تعلو الحوض، بـل الحوضَيْن. الأصح أنـهما مرآتان تعلوان حوضَيْن، وتبرزان عن الحائط بـما يسـمح بتثبيت بكرة مناشف ورقية في مكان ما مُـختبئ خلف كل مرآة، فـلا يظهر منها إلا طرف الـمنديـل الـمُتدلّي. لو كانت داليا معي، لكانت قد خرقت أذني الآن بصيحة الإعجاب تلك، التي اشتهرت بـها مؤخرًا.

لا بأس من صورةٍ إضافية. مُهتزة قليلًا. سأعيدها. كفى. عليّ الإسراع بالعودة للعمل. الآن أين الجاكيت؟ كدتُ أنساه مُعلقًا على الشماعة الذهبية الثمينة هذه.

صدقًا لا أريد أن يمُرَّ اليوم، رغم مشقّته. أشعر بامتلاءٍ لم أشعر به من قبل؛ امتلاء بالطاقة الإيجابية أكثر من أي وقت مضى. شكرًا لك يا كولونيل.

***

الكولونيل هو أبي الروحي. أقولها دون أدنى تردّد. معرفتي به لم تتجاوز العام. رغم ذلك، أشعر بانتماء أكيد له؛ انتماء كامل. هو مُعلِّمي. هو حامل شعلة التنوير في نفسي. هو مُلهمي، في مسعايَ نحو النجاح والتحقُّق. لم أكن مُحبَطًا في يومٍ من الأيام، ولكني أبدًا لم أمتلك مفاتيح طاقتي الداخلية كما أمتلكها اليوم. يكفيكَ أن تكون قريبًا من الكولونيل، مجرّد قريب منه، كي تمتلئ بالطاقة الإيجابية وتتأكد من نجاحك. لو لم يكن الكولونيل يمنحني راتبًا مُقابل وظيفتي، لما نقص ذلك من شغفي بالعمل معه شيئًا. ربما لو طُلِب مني أن أنقدَهُ المال كي أضمن استمراري في العمل إلى جواره، لما تأخّرت لحظةً واحدة. القيمة هنا ليست في المال، ولكن في ممدوح رحّال ذاته، أو «ممدوح إبراهيم الآدم» كما تشير أوراقه الرسمية. الكولونيل هو الكنز. لا شيء غيره.

***

منذ وصلتُ إلى هذا المكان في الصباح، وأنا لا أرى حاجةً لوجودي على الإطلاق، رغم أني لم أحصل على لحظةٍ واحدةٍ رائقة، ألتقط فيها أنفاسي. مُفارقةٌ غير معقولة. ولكنها واقعيةٌ تمامًا باعتبار العمل مع الكولونيل، كما يُحب مستر ممدوح أن أُكنّيه أنا وجميع المُقرّبين منه. أطقم عملٍ من شتى أنحاء العالم تعمل كمجموعاتٍ من النحل في التحضير للحفل. طاقم التصوير والإخراج من أسبانيا. طاقم الألعاب النارية واستعراضات الليزر من أميركا. أطقم الرقص والاستعراض من روسيا، والمغرب. أما أطقم الضيافة فمن الفور سيزون. و... وماذا بعد؟ نعم، أطقم البثّ الخارجيّ من أميركا أيضًا. لن أجد لنفسي دورًا بين هؤلاء. لا شيء بالطبع، وكل شيءٍ في الوقت نفسه، وإلا لما كنتُ مُنشغِلًا مشحوذ الهمّة على هذا النحو طوال اليوم. لا عجب في ذلك. هذه طبيعة العمل مع ممدوح رحّال. شعورٌ بعدم التأكّد ينتابك معظم الوقت. وشعورٌ بالطاقة تشحنك والحماس يدفعك باستمرار.

لا يُنغِّص عليَّ الآن إلا فراق دودي، في الوقت الذي أبدَت لي عيناها ما لم تُفصِح به قولًا؛ حاجتها أن أكون بجوارها اليوم. آه من عينيْها.. داليا ليست كالأخريات، إلا في حاجتها الدائمة لمن يعولها معنويًّا. من الصعب أن تفهمَ المرأة. هذا مؤكد. تجدها بين أفراد أسرتها مُستقلةً، مُعتمدةً على ذاتها في كل شيء، رافضةً لأي وصايةٍ من أي رجل، كان ذلك الرجل أباها أو أخاها، حتى تُحِب. عندما تُحِب المرأة، تُلقي بكيانها على حبيبها بكُلِّيته، مُغلفًا في لفافةٍ شفافةٍ، منقوشةٍ بقلوبٍ حمراء صغيرة. تُلقيه دفعةً واحدة، وتستقبل وصايته على حياتها بسعادةٍ مثيرةٍ للاهتمام.

قليلاتٌ هنَّ من لسن كذلك ممّن عرفتُ من الفتيات، ورغم ذلك تبقى دودي شيئًا مُختلفًا.

المزيج دائمًا ما يُنتج شيئًا مُختلفًا. تباعدوا في الأنساب، هكذا تعلّمنا. ومثل هذا التباعد يهبُ العالمَ مزيجًا ساحرًا، في صورة داليا سراج. هي من أُم تنحدر من الأرمن المصريين، أصحاب الأسماء المُعقّدة، والجمال الهادئ، والطبائع الناعمة التي تُخلِّفها المآسي التاريخية. اعتنقت أمها الإسلام كي ترتبط بوالدها، ضابط المخابرات السابق، والذي بدوره كان زواجُه منها سببًا مباشرًا لإنهاء خدمته في الجهة الأمنيّة الحساسة. حب يدفع بحبيبةٍ لاستبدال مِلّتها، وبحبيبٍ لوضع نهاية اختيارية لسجلّه المهني. مثل هذا الحب جديرٌ بأن يُهدي الإنسانيةَ أيقونةً في جمال داليا، ورقّتها. بشرتها الشاحبة الرائقة، عيناها العسليتان الناعستان في مرحٍ وبهجة، أنفها الروماني الشامخ، شفتاها المُكتنزتان في وفرةٍ أنثويةٍ شهيّة، وجسدها.. ذاك الفتّاك الذي ذبحني للوهلة الأولى، ببراءةٍ مُطلقة، وأرداني من أعلى استدارة ردفيْها صريعًا، أسفل قدميْها الصغيرتيْن. يااه يا دودي. تُصيبني حُمّى الشِّعر أحيانًا أمام فتنتكِ تلك، المُستترة خلف براءة وجهٍ أملس رقيق.

كنتُ أول من استقبلها عندما أقبلت نحو مكتبها الصغير في سكرتارية الكولونيل لاستلام أول وظيفة في حياتها. بدت بديعة القوام رغم ضآلتها، تمشي بهَوْنٍ تكاد لا تلمس الأرض. مُطأطئة الرأس، تتعثّر في ارتباكِ المُبتدئات. كنتُ جالسًا على كرسيِّها، أعبثُ بأزرار لوحة المفاتيح، أتظاهر بانهماكي التام في شاشة الكمبيوتر. ابتسمتُ نحوها حين أقبلَت، مُواريًا

شهيّتي التي فُتِحَتْ على مصراعيْها تستقبل أنسام الحياة. سألتها مُداعبًا:

- أي خدمة؟

زاد ارتباكها الطفولي. تلعثمت قائلة:

- صباح الخير. شاورولي على الـمكتب ده، وقالولـي هيِبقى مكتبي، تقريبًا هوَّ الـمكتب ده!

- همَّ مين دول اللي شاورولِك وقالولِك؟

ثـم هزمتني براءةُ نظرتـها الـمُستغرِبة، فأردفتُ قائلًا:

- عامةً، مُـمكن اتنازِلّك عن المكتب ساعتين في اليوم.

كانـت باقي موظفات السـكرتارية قد بـدأن في التوافد علـى الـمكتب، فقدّمـتُ لـها نفسـي وشـرحتُ لـها أنني المسـؤول عن دعم الشـبكات في الشـركة، وفي مـجموعة رحّال بوجهٍ عام، وأنني هنا لضبط حاسوب مكتبها على اسـم الـمُستخدِم الجديد، الذي هو اسـمها الجميل، وربطه بالشبكة التـي سـوف تـحتاجها في نطـاق عملها، طبقًـا لتوجيهات مستر مـمدوح، وفصل الجهاز عن الشـبكات الأخرى. استجابَت نظرتـها لشرح الـموقف، وبدت لي نعسـةُ عينيْها أكثر ارتياحًا بعد ذكر اسم الكولونيل. سحبَتْ كرسيًّا وجلسَـت إلـى جـواري، ورمقَت الشاشـة باهتمـام تُتابع ما أقوم به. سـرّني اقترابُـهـا، وتسـلَّل إلى أنسـجة روحـي أريجُها كمُخـدّرٍ ناعم، وهـي تـمُطّ رقبتها نـحو كتفي اليسـرى. أحسستُ ساعتها أن شبكة الشركة صارت أكثر دفئًا وحميميّة، فقُمتُ بربط جهازها بشبكتي، مُـخالِفًا بذلك التعليمات.

***

سحرني الكولونيل منذ الوهلة الأولى. أدركتُ لدى سماعه أن الحظّ لا يبتسم لي فحسب، بل يستقبلني استقبال الفاتحين. ينتظرني في صالة وصول الـمُتميِّزين، حاملًا الورود، رافعًا لافتةً كبيرة كُتِب عليها بخط فوسفوري برّاق: «مرحبًا بك في عالم النجاح». يختارني من وسط صفٍّ لا نهائي من الشبّان، كما يختار الملك فارسَه الأول، قائد سلاح الفرسان.

يوم التقيتُهُ، كنتُ جالسًا بين مقاعد الجمهور في محاضرةٍ دعتني إليها شركة التسويق الشبكي، التي أقنعني بالانضمام إلى نشاطها أقربُ أصدقائي هاني بياظة. كنت قد أمضيتُ زمنًا طويلًا قبل انضمامي أبحث عن وظيفةٍ مناسبة، وأتوق ليوم أردُّ فيه يدَ أمي حينما تمتدُّ إليّ بجزءٍ من معاش أبي، الذي بالكاد يكفيها. أقنعني هاني أن أجرب حظي، فالتسويق الشبكي لا يحتاج مهارة خاصة، مجرد حُسن عرض الفكرة، ومنح الثقة للمتلقي بأن الأموال الطائلة آتية لا محالة، إذا ما بادر بشراء سلعةٍ من المعروضات واحتلال موقعه على شبكة التسويق العالمية. هكذا فعلت. مررتُ في اليوم التالي بمكتب عمّي في البنك الأهلي، كي يُسيِّل لي إحدى شهادات الاستثمار التي كان قد أشار على أبي - رحمه الله - بها. حذرني من المخاطرة، ومن ضياع ما أودعهُ أبي لقابل الأيام، ولكنه رضخ لطلبي حينما لمس إصراري على الأمر، ثم اقترح بديلًا. نصحني أن أقدِّم طلبًا للاقتراض بضمان الشهادات، ويسَّر لي الإجراءات حتى حصلتُ على القرض في غضون أسبوع، أمضيته في تسويق الفكرة لكل من وقع في محيطي. أقنعتُ الكثيرين بعدما اشتريتُ الساعة باهظة الثمن، فكان لمرآها

وقعٌ كبيرٌ مع نبرتي الـمُتحمِّسـة. أخذَت شـجرتي في الشـبكة تكبر وتتفرَّع، وأملي في الأرباح ينمو بنموها كل ساعة، حتى تلقيتُ الدعوة أخيرًا.

تلقّيتُهـا باعتباري أحـد «ذوي الإنـجـاز الـمتقدِّم»، الذيـن حققوا أعلى الأرقـام فـي تكوين فرقهم التسـويقية فـي أقصـر الأزمنة، وبأوسـع الدوائر الشـخصية. حتـى هانـي لـم يتلـقَّ دعـوةً مُـماثلة مـن الشـركة. لذلك كنتُ مأخوذًا بعض الشيء، لا أعرف ما الآتي وماذا عليَّ أن أتوقع. كنتُ مشحونًا بانفعـالٍ سـلبي، أو إيجابـي، لا يـمُكنني التحديد الآن، فجميـع الـمدعوّين من ذوي الإنجاز الـمتقدِّم مثلي، لا يُـميّزني وسـطهم شيءٌ كما اعتدتُ بين أقرانـي، كمـا أنني لا أعرف كُنه الخطـوة القادمة، كما تعـوّدتُ دومًا. كل ما كنـت أعرفـه وأنا في طريقي إلى هناك هو أن الشـركة تقـدِّر أدائي عن الفترة السـابقة، الذي اتّسـم بالإنـجاز الراقي وأعلى درجات الالتزام، وأن الشركة تدعوني دعوةً انفرادية لحضور حفل تكريـم في فندق سـميراميس في يوم كـذا في موعد كـذا. هكذا جاء في الإيـميل، ولا شـيء غيـره. ولكن عندما بلغتُ الفندق وذكرتُ لـموظفي الاسـتقبال اسـم الشـركة، أشاروا لي نـحو قاعة مـحاضراتٍ كبيرة. كان هذا أول ما استغربتُ في ذلك اليوم.

علـى مشـارف القاعة، وجـدتُ البوفيـه مُعـدًّا، مُغلَّـفًا وصامتًـا، كأنـما يترقَّبُ لوقـع الـمفاجـأة علـيّ. كنـت بالفعـل مأخـوذًا بالـمشـهد. ألفيـتُ الـمكان يعُجّ بالـمشـاركين، على عكـس تصوّري بأن الأمـر مقصورٌ على مـجموعـةٍ مـن الـمُتميزين فقـط، أو «ذوي الإنـجاز الـمتقـدّم» كما أوضح الإيـميـل. لقيتُ فتياتٍ وفتيةً من كل حدب وصـوب، تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين، وتتراوح ملابسهم بين السينيهات الـمُتأفِّفة والشعبيّات

الـمُتخلِّفة، ولا يبين عليهم أي استغراب. هكذا بدأ القلق يتسرّب إليَّ شيئًا فشيئًا. يحتلّ مساحاتٍ أوسع في نفسي. يغرس راياته في فروة رأسي وخلف أُذنَـيّ. كنتُ أحتاج لـمن يشرح لي ما نـحن بصدده على وجه السرعة.

استخرجتُ سيجارةً من العلبة التي انكمشَت في جيب بنطالـي، لاضطراب شـمل كل شـيء. تركتُ الولاعة في الجيب الخلفي، واقتربتُ من شاب بسيط الـهيئة مُتسائلًا عن إمكانية إشعال السيجارة. نظر نـحوي نظرة استطلاعٍ سريعة (أعرفها اليوم تمام الـمعرفة) وقال: «طبعًا»، ثم ما لبث أن سأل عن «اسم الكريم» ومحل إقامتي ومهنتي، كأنه يقوم بدور ضابط تحقيقٍ خفيف الظل في فيلم ما. سألته إن كان الحفل سيبدأ قريبًا، فسألني: «أي حفل؟» وقبل أن أسرد تفاصيل الإيميل تبدّلت ملامحُه، وسألني بنبرةٍ مُتفهِّمة إن كانت هذه الـمرةَ الأولى التي أحضر فيها حدثًا من تنظيم الشركة. أومأتُ بالإيجاب، وما أن بادر بالشرح حتى مرَّ من بيننا أحدُ الـمُنظِّمين (انضممتُ إليهم لاحقًا) يدعونا إلى دخول القاعة سريعًا كي تبدأ الـمُحاضرة.

- محاضرة؟

- أيوة محاضرة، هتِفهم دلوقتي كل حاجة.

هكذا قال الشاب بسيط الـهيئة، ودعاني للدخول. ثم سألني إن كنتُ قد حصلتُ على تذكرة. قلتُ باستغرابٍ أكبر أنني لا أعلم عن أمر التذاكر شيئًا. لـم يُعقِّب. مرق سريعًا في اتجاه مكتب صغير على الناحية الـمُقابلة لباب القاعة (غيّرتُ موضع هذا الـمكتب فيما بعد، واستبدلتُ أيضًا الـموظف

الجالس إليه) وابتاع لي تذكرةً نقدتُهُ ثمنها لاحقًا، ولحقنا بالجالسين في انتظار المحاضرة.

ردَّدَت جدرانُ القاعة جلبةَ الحاضرين، وكذلك موسيقى الهاوس التي بدا أن إيقاعها اللاهث يزيد من حماستهم. استحسنتُ الأجواءَ بعد قليل. انجلى التوتر من داخلي تمامًا، مع حديث صاحبي ذي السحنة الجنوبية الخالصة. لاحظتُ تفاصيل هذه السحنة بوضوحٍ أكبر بعد أن جلسنا مُتجاورَيْن. وجنتاه بارزتان مُفلطحتان تُحاكيان جبهته العريضة. سُمرته عميقةٌ تختزن أسفل منها دُكنَة شمسٍ قاسية. شاربه زغبٌ يرسم شفته العليا الغليظة، الداكنة.

- إنت منين؟

سألته.

أجاب إنه من قِنا، يدرس الطب في جامعة الأزهر بالقاهرة. طبيب، ويعمل بالتسويق؟ هنا ظهر عليّ الاستغراب من جديد. أجابني بأن المُسوِّقين المُجتمعين هنا يجيؤون من مجالاتٍ شتى، كي يلتفوا معًا حول ذات الحلم، لا أحد ينافس الآخر هنا، الكل في واحد، ولأجل هدف واحد: الحرية المالية المُطلقة. سألني كم مضى من الزمن منذ بدأتُ في تكوين فريقي التسويقي. قلتُ: منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا. أشادت عيناه اللتان اتسعتا بما سمع. أما هو، فقال إنه شرع في تكوين فريقه منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر. أحرز تقدُّمًا مُبشِّرًا أول الأمر، حيث جمع الأعضاء الثلاثة المكوِّنين لفريقه المبدئي في غضون أسبوع، ثم راح الإيقاعُ يخبو عندما بدأ في

قيادة أعضاء فريقه لتكرار الإنـجاز، فلم ينتَـهِ من تكوين الثلاث فرقٍ الفرعية قبـل مرور شـهرَين، لذلك نال أول دعـوة لحضور الـمنتدى منذ أسـبوعَين لا أكثر. سألته: أي منتدى؟ قال: هذا السِّمينار الذي نـحضره الآن.

إذًا، الدعوة ليست للتكريـم كما ظننت. هنا، فقط، استوعبتُ الموقف.

بعد برهةٍ قلتُ له مُـحفِّزًا:

- كويِّس انك اتأخَّرت شوية عشان نِبتدي مع بعض.

لـــم يظهر عليـه أي استحسـانٍ لـمقولتي، بـل ربـما استشـعر فيها نوعًا مـن الـمواسـاة، أو التعالي. لكني أدركتُ سـاعتها أنني أفـوقُ كثيرين مـمّن حولي في الـمُنتدى، وإن وقفنا جـميعًا عند مسـافةٍ واحدة (في هذه اللحظة فقط) من حلم «الحرية الـمالية الـمُطلقة». زادت الخاطرة من أُلفة الـمكان، وارتفع بداخلي مُنحنى الطاقة الإيـجابية (الذي امتلكتُ إحداثياته فيما بعد) إلى حدٍّ مُناسب لإقلاعٍ مُوفَّق، وتـحليقٍ آمِن. وهذا هو ما فعلتُ تـحديدًا منذ تلك الليلة وحتى اليوم؛ التحليق الآمن. وبتحديدٍ أكبر، منذ دخل الكولونيل مـمدوح لإلقاء الـمحاضرة الأولى.

داليا عادل سراج

أمارس الكذب لأول مرة في حياتي اليوم!!

ربما أكون قد كذبتُ قبل ذلك، عدة مرات، بيضاء ناصعة بالتأكيد، ولكنني أبدًا لم أكذب على أمي، قبل اليوم على الأقل، أذكر ذلك جيدًا.. ولكنني فعلتُها هذه المرة، ولستُ أعلمُ لِمَ فعلت، وصدقًا نادمة أني فعلت! لا شيء يستحق.. بالتأكيد، لا شيء يستحق الكذب، أيًّا ما كان المكسب، فما بالي إن لم يكن هناك مكسبٌ على الإطلاق!.

يحزنني أيضًا أن راجي ليس بصحبتي هذه المرة.. طلبتُ منه أن يُرافقني إلى الحفل، ولكنه امتنع.. لم يمتنع صراحةً بالطبع، فهو ألطف بكثيرٍ من أن يفعل، ولكنّه اعتذر بلطفه المُعتاد بأنه يتمنى لو نحضر للحفل معًا، مُتأخّرَيْن، كحال سائر المدعوين، ولكنه لا يستطيع؛ فمستر ممدوح يعتمد عليه بشكلٍ كاملٍ في الإعداد لهذا الحفل.

ربما كان الأجدر به أن يعتذر لمستر ممدوح اليوم، اليوم فقط، كي لا يتركني وحيدةً في هذا الوقت المتأخّر من المساء، أجوب شوارعَ تحفل بالخطر، بحثًا عن سائق تاكسي لن يتردد في خطفي لو أمكنه!.

وددتُ لو أنني قلتُ له ذلك، ولكني لم أقُل، فأنا أعرف النتيجة مُسبقًا.. لم يُخلَق بعد من يُمكنه رفض طلب لمستر ممدوح، حتى وإن كان موظفه المُقرّب راجي، صاحب البسمة الطفولية التي تأسر الجميع. كان عليّ أن أكون أكثر صراحةً مع راجي، ولكني لم أشأ أن أبدو أمامه طفلةً قليلة الحيلة، فهو لا يحترم ضعاف الشخصية من الفتيات. ولكني نادمة الآن! وخائفة.. تُرى هل صدَّقتني أمي؟!..

لا بد أنها لاحظت عليّ ارتباكي وتردُّدي!. لا بد أنها لاحظت أن هناك أمرًا غيرَ اعتيادي يتعلق بخروجي هذا المساء..

أمي قوية الملاحظة، ماهرة في الحياكة والتطريز، تلاحظ أدق التفاصيل.. ترشق الإبرة في مكانها المقصود بدقةٍ بالغة، وبلا خطأ يُذكر. قلتُ لها إني ذاهبةٌ إلى حفل زفاف إحدى صديقاتي الجدد في شركة المستر ممدوح. طلبَت مني أن أصطحب أخي الأصغر، فعاجلتها بادعاءٍ جديدٍ بأن عائلة صديقتي محافظة، مُبالِغة في التزمُّت، وأن قاعة الحفل ستنقسم إلى نصفٍ للرجال وآخر للنساء، فلن تكون أمامي فرصةٌ للقاء أخي طوال الحفل، بل سأتركه أسيرًا للملل والإحراج مدة طويلة وخانقة، خاصة بين هذا الجمع الرجعي الذي سيحتفي بالعريس على طريقته، وهي أعلم مني كم يكون سيف عصبيًّا في المواقف تلك. أعرف كيف ترتعد أمي خوفًا من المُلتحين، ولذلك اختلقتُ هذه القصة!.

من أين جئتُ بسرعة البديهة هذه في اختلاق الأكاذيب؟!

كيف أفعل ذلك بنفسي؟ لِمَ لم أصارحها بدعوة مستر ممدوح التي لم أستطِع الاعتذار عنها، ولماذا خشيتُ أن تبعث بسيف معي إلى الحفل؟! لا بد أن وجوده كان سيبعث في نفسي الطمأنينة الآن، في هذا الليل المُقبِض وهذه الشوارع المُزدحمة، المُنذرة بما هو أسوأ..

وجوده كان حتمًا سيُعفيني من كل هذا الكذب..

ما الضرر من وجود سيف معي؟! راجي سينشغل عني طوال الحفل بكل تأكيد، ولن أهنأ برفقة أحد، وجميع المدعوين متسترّون بداخل أزيائهم التنكرية، فكيف لي أن أجد وجهًا أعرفه؟!

ليتك كنتَ معي الآن يا سيف..

تاكسي!

- ترعة المريوطية لو سمحت؟!

- هتدفعي كام يا أبله..

- أي حاجة، اللي هتطلبه!

سيارة مُفكَّكة كالعادة!. وما لِهذا السائق يكرِّر النظر إلى المرآة الخلفية؟ منذ متى وسائقو التاكسي يهتمون بالمرايا على الإطلاق؟!

دودي.. لا بد أن تهدئي قليلًا... لِمَ لا تتسلّي بهواياتكِ المفضلة في تتبُّع لوحات السيارات، وتكوين الكلمات من أحرفها..

راجي كان الأمهرَ والأسرعَ دائمًا في إيجاد هذه الكلمات..

أفتقدك كثيرًا يا راجي! حقًّا أتوق إلى صحبتك في هذه الطرق المزدحمة المُظلمة، المجهولة كمدينةٍ لا أعرفها.. ليتك كنتَ معي الآن، تتلمس أطراف أناملي المُمتدَّة على المقعد الخلفي خفية، فأسحبها ببطءٍ يتمنّاك، ولا أكترث لرُكبتك حين تمتدُّ نحوي كل حين، كي تظفر بلمسةٍ خاطفةٍ من ثوبي. بل أُغمض عينيّ، وأستسلم لهاجس مُعانقتك..

حضنٌ واحدٌ يكفيني - مُؤقتًا - ولكن لا تجعله خاطفًا!! أحتاج لحضنٍ طويل، أسكنُ فيه على صدرك كعصفورٍ يسكن عشَّه، آمنًا ودافئًا.

أحيانًا أخجل من خواطري، ولكني لا أملك لها دفعًا، هي اللحظات الوحيدة الهانئة في حياتي، المُقفرة كخرابةٍ تُحيطها الأسوار الشائكة من كل جانب؛ لحظاتٌ لا أفكّر خلالها فيما ينتظرني في قابل الأيام، وأترقّبه عادةً بخشيةٍ رهيبة!

ربما لو تخفَّفتُ قليلًا من طموحي المُزمن، لشعرتُ بشيءٍ من راحة البال..

ولكن هيهات.. ليست داليا سراج من تستطيع التخفُّف من حمول أحلامها. لم أعرف منذ طفولتي إلّا أن أتمنى كل شيء، نعم كل شيء، ولِمَ لا؟!

ظل سيف يداوم على اتهامي بالطمع كلما شعر بحنينٍ إلى الشجار معي، ثم توقَّف عن ذلك نهائيًّا بعد أن نجحتُ في إسكاته، باعترافي الصريح بالتهمة!

خرج من غرفته ذات مرة، وكنتُ أُجادل ماما حول نسبتي في أرباح مشروعنا المُشترك، فإذا به يحتدُّ عليّ، ويُعاود اتهامي بالطمع.. لم

أنـهرْه ساعتها، أو أدفع عن نفسي كما كنتُ أفعل من قبل، ولكني أمعنتُ في استـفزازه- وهي هوايةٌ وُلِدَت في داخلي يوم وُلِد سـيف- وقلتُ بثقةٍ بالغة: إن الطمع صفةٌ بشريةٌ أصيلة..

بالـغ سـاعتها في مُهاجـمتي، وأرجـع مقولتي إلى الكِـبْـر، الذي هو في تفسـيره توأمٌ للطمع في نفسـي! لا بأس من تـهمة جديدة يبتكرها، ردًّا على استفزازي.

تفكَّرتُ قليلًا بعد أن عاد لغرفته، صافعًا بابـها كعادته، فتقبَّل عقلي فكرة أن الكِـبْـر يقتـرن بالطمع في النفس البشـرية، وأنني مادمـت اعترفتُ بتهمة الطمـع، فلا بأس من اقترانـها بالكِـبْر أيضًا، فالطمع والكبر من جذرٍ واحد، هو حب الذات، ولا أجد أيَّ بأس من هذا الحب..

بعد قليل تقبَّلتُ فكرة أنني متكبِّرةٌ أيضًا، لستُ طمّاعة فقط!

في الـمساء جلس يتودَّد إليَّ كعادته، ولكنه أعاد عليَّ نصيحته بأن أراجع نفسـي بـخصوص علاقتي بـماما، وبأسـرتنا ككُل، وأنه كأخٍ أصغر لا ينبغي له أن يأمرني أو ينهاني، ولكنّ الطمعَ يُفسد العلاقات ويأكل الـمودّة. أعدتُ عليـه نظريتـي بأن الطمـعَ صفةٌ أصيلة في نفس الإنسـان، وإلا مـا قتل جدُّنا الأكبـر قابيل أخاه هابيـل. حملق فيَّ بذهول، ثـم حدَّثنـي بأن الله جعل من قابيل مثالًا للشـر ينفر منه الأسـوياءُ، بعد أن أودى به طمعُه، بينما أعدّ لنا من هابيل مثالًا يُـحتذى في الخير والتسامح.

قلتُ له: فما بال الناس يداومون إلى يومنا هذا على تسـمية أبنائهم باسم قابيـل، بينمـا لا أذكر أني قابلـتُ يومًا شـخصًا يُدعى هابيل قط؛ مـا هذا إلّا اعترافٌ من الإنسانية بـمنطق قابيل!

سـألته إن كان قـد مَرَّ به يومًا اسـم هابيل هـذا، الـمُتسـامح، الـمُنزَّه عن الطمـع!. جُـنّ جنونُـه كعادتـه، وخرج مـن البيـت، صافعًا باب الشـقة هذه الـمرة!!

أنـا طماعةٌ ومغـرورة، وأحبُّ ذاتي، ولا أجد شـيئًا في مُصارحة نفسـي بكل ذلك على الإطلاق.

أملكُ قدرًا وافرًا من الجمال، أدركه في أعين النساء الحاسدة قبل عيون الرجال الجائعة، ورغم ذلك أبتغي منه الـمزيد. ربـما لو تـخلَّصتُ من ذلك البروز الطفيف أعلى أنفي لغدوتُ نـموذجًا للجمال أكثر اكتمالًا

ولكـنّ الجمال وحده لا يكفي، وربـما في زماننا هذا لا يُعَوَّل عليه على الإطلاق في تـحقيق سائر ما يطمح إليه الإنسان. عمليات التجميل ونـحت الأجسـاد- كـي تُناسـب الـملابـس الفاضحـة- تصنع مـن أنصاف النسـاء نـجمات اسـتعراضٍ وإغراء، فلا يتركـن لـمن يـملِكـن جـمالًا طبيعيًا مثلي ميزةً تُذكر!

الـمال هو رصيد هذا الزمان، ولا شيء غيره.

أوهـمتنـي أمي طويلًا بـأن ما حباني به الله من جـمـال يكفل لي أفضل زيـجـةٍ وأهنـأ حيـاة. ربـما لـم تَصْدُقني أمي تـمامًا سـاعتها، فـلا بأس ألا أصْدُقها أنا اليوم!.

اليوم فقط، ولن أفعلها ثانية، لا لـمستر مـمدوح ولا لغيره..

***

مـاذا دهـاهُ هذا السـائق العجوز؟! يتسـلل إلى الشـوارع الفرعية الضيقة هربًا من الزحام؟ أم تُراه يقصد بي شـرًّا!. لا تبدو عليه رغبةٌ في الإتيان بِشرّ، ولا حتى القدرة عليها.. هل حقًّا يظن أن باسـتطاعته اختراق منظومة الزحام الـمُحكَمـة!.. هي منظومةٌ كبرى، وضعتها عقـولٌ هي الأدهى في هذا البلد الأسير، لإفساد حياة الناس وتقييد حركتهم، فمن أنت أيها الساذج كي تظن في نفسك القدرة على اختراقها أو التحايل عليها؟!

هـا أنت قد عُدت أدراجـك. الآن فهِمت؟ جيد.. عُد إلـى نـهر الطريق، الجـارف نـحـو الشـلل التـام. عُد إلـى أنـس التزاحـم والغـازات الخانقة، الـمُنبعثة من كل اتـجاه..

اااااه، كم مرّ من الوقت؟

أففـف.. لا أُحـب النظر إلى هذه السـاعة البرّاقة التي تُثقِـل يدي!. كلما نظـرتُ إليها تذكَّرتُ الـمبلغ الوهـمي الذي أنفقتُه كي أقتنيها.. التَهَم ثـمنُها غيـر الـمعقول ما ادخرتُهُ طوال عـامٍ بأكمله،ولكني عوَّضـتُ أكثرَه أخيرًا من مبلغ الألف دولار، الذي منحني إيّاه مسـتر ممدوح كي أحسِـن اسـتعدادي للحفل..

سـبعة آلاف جنيه وسـبعمائة؛ ثـمنٌ باهظ لسـاعة يد!.. ولكن حسبُها أن أهدتني راجي..

ساعة اليد هذه هي التي وثّقت علاقتي به منذ أول مرةٍ ينفرد بي فيها؛ عندما ضمّني، ليس إلى حضنه للأسف، وإنما إلى فريق التسويق الشبكي الذي كوّنه..

يتحمّس راجي كثيرًا لفكرة التسويق الشبكي هذه، ويُصرُّ أنها الوسيلة الـمُثلى لتحقيق ثروةٍ لا تفنى، وفي زمن قياسي!..

لم أكُن من أوائل الـمُنضمّين إلى فريقه التسويقي، ولكنّه يرى أنني أحدثتُ طفرةً بعد انضمامي، بضم العديد من صديقاتي ومعارفي إلى فريقه، كانت إحداهن نرمين، صديقتي.. كانت أول من ضممتُ من الصديقات، فبدأ بها راجي الشجرة الـمُتفرّعة من اسمي على شبكة التسويق. أخذ يوجّهني بحماسة بالغة إلى المكان الأمثل الذي أضع فيه هذا الاسم، وذاك، وما الفائدة من إضافة الأسماء أفقيًا أو رأسيًا، ويغوص بي في تفاصيل استراتيجيات تكوين الشبكة، ومهارات البيع، وأنا لا أتابع من هذا كله سوى عينيْه البراقتيْن، ونبرته الحماسية.

كنتُ سعيدةً بقربي منه أكثر من أي شيء آخر، رغم حاجتي لتعويض ما أنفقته لشراء الساعة باهظة الثمن!. كان كثيرًا ما يلوم عليّ قلة التركيز، ويُشعرني بالتقصير في أداء مهامي التسويقية، فلم يكن ليُدرك أنني قد بلغتُ جُلَّ غايتي بالفعل، أن صِرتُ أقرب الناس إليه، وأن الـمصلحة الـمُتبادلة التي يفرضها وجودي ضمن فريقه تزيد من أهمية كل منا في حياة الآخر، وهو تحديدًا ما تمنيت.

أين أنت يا سيف كي تُـحلِّل لنا هذه الظاهرة أيضًـا؟

أيـن يـختفي الطمع، ولـماذا تـخبو الكبريـاء، حينما يتعلَّق الأمر براجي دون غيره؟!

راجـي.. ليتهُ ما تركني اليوم وأنا في أمسّ احتياجي إلى وجوده، كعادتي منذ عرفته.. حتى ملابسي التنكرية التي التقطتُ لنفسي صورةً فيها وأرسلتُها إليه، لـم يُبدِ فيها رأيه بعد!.

لا بد أنه مغموسٌ لأعلى شَعره الـمُسبسب، في الإعداد لحفل الليلة..

تُرى كيف سأتـمكن من وضع اللمسات الأخيرة على هيئتي التنكرية؟!

لا داعي للتفكير في هذا الأمر الآن؛ ليس الوقتَ الأمثل لأسئلة كهذه.

لا بد أن أتركها لوقتها..

ممدوح إبراهيم الآدم

في صيف 1996، كنتُ حبيسَ قيلولةٍ عميقة على ما يبدو..

أذكر أنها كانت المرة الأخيرة التي أُسلِم فيها نفسي لنومٍ عميقٍ كذاك، نوم يجيء بسهولة، بلا مقدمات، بلا تقلُّبات لا نهائية، ولا نزاعات شتى مع الوسائد وأغطية السرير..

كنتُ لا أزال أعمل معيدًا في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وأستمتع بإجازة صيفية طويلة، قرَّرتُ خلالها أن أستحضر حلم الكتابة، فالفرصة مواتيةٌ خلال الإجازة لعمل الكثير، حيث أستبدل ساعات عمل صباحية بأخرى مسائية في مراكز الدروس الخصوصية المخصصة لطلبة الثانوية العامة؛ تلك المراكز التي كانت وقتها لا تزال تشقُّ طريقها نحو استحواذها الكامل على التعليم الثانوي، في هذا الوطن الافتراضيّ.

لا تزال رائحة بقايا وجبة الماكدونالدز التي أثقلتني يومها تسكن في مكان ما في تجاويف أنفي، فتزور حواسي كل حين وأنا مُمدَّدٌ أحاول استدعاء نومٍ يتمنَّع، كي أُريح بدني ولو قليلًا.. تنبعثُ الرائحة التي صِرتُ أمقتها، فتجذب في إثرها أرقًا واخِزًا تتلاشى معه بقايا النعاس، وأتذكر يوم رحلت همسة.

كنتُ مُستلقيًا على أريكة الصالة، في الشقة الصغيرة التي استأجرناها في الحي السابع في مدينة نصر، بعد أن تم إجلاؤنا من شقة المنيل. كان الوقت بعد العصر بقليل، وأشعة شمس يوليو لا تزال تنسحب انسحابًا تكتيكيًّا بطيئًا من مساحاتٍ احتلَّتها منذ الظهيرة. رُحتُ أغطُّ في سباتٍ عميق بعدما أثقلتني وجبة الماكدونالدز الدسمة، التي كنتُ أعشقها آنذاك، أجوس في أحلام قيلولتي شوارع مدينة نصر، باحثًا عن مكتب الصحة الذي أعرف مكانه جيدًا، ولكنني أثناء نومي كنتُ أراني تائهًا أبحثُ في كل مكان، وأسأل كل من يقابلني فلا يجيبني أحد. أحمل مولودتي الصغيرة - التي لم تضعها أمها بعد- في لفافة بيضاء باهتة، أُفكر في استحالة العودة إلى البيت دون استخراج شهادة ميلاد لها كما أمَّلت، فليس هناك بدٌّ من العثور على مكتب الصحة..

أفقتُ على قرعٍ رهيب على باب الشقة؛ قرعٍ لم أدرك كُنهَه لثوانٍ عدة بعدما أفقْت، اتكأتَ على مرفقي الأيسر أحاولَ استجلاء الأمر. تسلَّلَت إلى أنفي رويدًا رائحة الماكدونالدز، وتهيَّأَت على الحائط أمامي رحلة عقارب الساعة التي جاوزت الساعتيْن، وارتجَّت طبلتا أذني عدة مرات قبل أن أستوعب الموقف..

لقد تأخرت همسة عن موعدها كثيرًا!

هي حامل في شهرها السادس لا تحتمل كل هذا المجهود، بينما رحتُ أنا أغطُّ في النوم لساعتَيْن دون أن أشعر!

قمتُ ذاهلًا إلى الباب، أنفض آثار النوم عن جسدي وأمسح العرق بفانلَّتي الداخلية. جذبتُ مقبض الباب مستطلعًا ذلك الذي يطرقه بالخارج،

فإذا به شريف، صديقنا، بطل الفرقة المسرحية التي تُخرِج عروضَها همسة.. زيارةٌ على غير موعد، ودهشةٌ مُلتاعةٌ تنقش ملامحه، جعلاني أجفل للوهلة الأولى.

دعوته كي يدخل حتى أضع ثيابي، ولكنه دلف في إثري هاتفًا:

- مافيش وقت!

خرجَت كلماته التالية مبعثرة، متلاحقة، عجزتُ لحظتها عن جمعها في سياق مفهوم، ورغم ذلك فقد دقَّت بعضُ عباراته أجراسًا مدوِّيةً في رأسي الثقيل، وأخذَت تومض في ظلام عقلي بلا توقُّف.

«همسة تِعبت..

«نقلناها مستشفى في شارع الجمهورية..

«نزيف شديد، ربنا يُستُر!»

«صمِّمِت تعلَّق ديكور المسرح بنفسها بشكل معيَّن..

«وقعِت من على السلِّم.. الألم شديد أوي!»

«زمايِلنا معاها دلوقتي.

«حاوِلنا نكلِّمك كتير! تليفونكم مش بِيرُدّ، وبعدين اترفع من الخدمة!»

«قولنا لازم حد يجيلك والباقي يستنّوا معاها، أنا جيتلَك على مَلا وِشّي!!»

«إنت معاك فلوس قد إيه؟! الحالة خطيرة، لازم تروح لها بسرعة!..»

«رامِينْهـا علـى جنـب فـي الطـوارئ! قالولي مافيـش سـراير فاضية في الرعاية الـمركزة..

«فيه تـمرجي ابن حلال خَدْني على جنب وقالّي مش هيدخَّلوها إلا لما ندفـع التأمين.. أول مـا نـجيب الفلوس هيكمِّلوا الإجـراءات ويـخلقولـها سرير من تـحت الأرض!!»

«عالــم ما عندهاش ضمير».

الضمير..

تبسـيط أبله يَسهُل تسـويقه للبُلهاء، كي يقبلوا بنظام عُلويٍّ لا مكان لـهم فيه..

الحرمان من الحياة يُفسَّر على أنه مـجرد انـخفاض في منسوب الضمير في أنفس البعض. كل ما نـحتاجه كي نتساوى مع الأمم الناهضة هو استيفاء الـمستوى الـلازم من الضمير عند هؤلاء البعض!.

يسوِّقون لـهم هذا الـهراء كي يرضوا بواقع لا رحـمة فيه، بل ويتحمَّلون الـمسؤولية تـجاه ما وصلوا إليه، وقبِلوا به.

لذلك حدث ما حدث لهمسة فلم يـحرِّك ساكنًا، ولـم يـمنح الـمستشفى جسـدَها الضئيـل- ولا الجسـد الأكثـر ضآلة الذي سـكنها حينًـا- خروجًا كريـمًا من هذه الحياة الـمقيتة. لا ورقة دخول ولا ورقة خروج. هـمسة لـم تأتِ إلى هنا من الأساس، لـم تعبر عتبة الـمستشفى، الدماء التي سالت لـم تُـخضِّـب حرارتُـها بلاطَ الطوارئ البـارد، والروح التي فاضت لـم تتجاوز فضاء المبنى الـمُفعم برائحة «الفينيك»..

كل ذلك لـم يأتِ له ذكـرٌ في سجلاتـهم، وكل ذلك مقبولٌ في عرفهم، طالـما لـم تـملك ثـمن حياتك.

لذلك فقد تعلّمتُ الدرس، وحُفِر في وجداني كنقوش معبد.

كرامة الإنسـان حق تتحرك لأجله الجيوش، عندما تُنتهكُ كرامة الرجل الأبيض.

الديـمقراطيـة حق أصيل من حقوق أي إنسـان، يسـير في ركاب الرجل الأبيض.

الحياة حق لا شك مُصان، داخل حدود دولة الرجل الأبيض.

أما خارجها، فالـميزان يـختلف..

رحلت هـمسة، لأنـها عاشت خارج دولة الرجل الأبيض، ووفق مبادئ لا تتفـق مع مبادئه، فلـم تـحُز ثـمن حياتـها، وحياةٍ أخـرى كانت تنبض في تـجاويف جسدها الضئيل.

رحلـت هـمسـة، كـي تُعلنهـا صراحـةً لعالـــم لا يسـمع، وأمـام تاريخ لا يُكتب، أن الحق في الحياة مكفولٌ فقط لـمن يـملك الثمن..

صفعنـي رحيلُهـا، فأفقتُ من غفوتي، وأدركتُ سـذاجة مـا أحـمل من أفكار، وسُـخف ما أُردِّدُ من شـعارات. كان علـيَّ أن أُدرك منذ زمن بعيد أن نضال اليســار ما هو إلا حنجوريَّة فارغة من أي مضمون، فلا الدول تُـحكَم بالعدل، ولا الثروة قابلة للقسمة على الـملايين. تلك معادلة حسابية واهية، وهـميـة، لا يتعـدّى واقعهـا دفّـات الكتـب التـي تـحشـوها، أمـا الـمعادلة

الصحيحة فيُمليها الواقع، وتقول إن الثروة قابلةٌ للقسمة على العشرات فقط، وأحيانًا المئات، وإن ناتج قسمتها ينتج عنه الفُتات الذي يتهافتُ عليه الملايين، وتدور في فُلكِهِ رحى الحرب الدائرة بينهم، لأسبقية الحصول عليه..

لذلك قرَّرتُ بعد ذهاب همسة أن أزج بنفسي في زمرة العشرات والمئات، كي آمَنَ من حرب الملايين.

من قال إن النسيان ممكن.

قد نتناسى بعض الوقت، ولكنا أبدًا لا ننسى.

***

من مُفكِّرة ممدوح إبراهيم الآدم:

مع بدايات هوج البحث عن الذهب، وجدَت الإمبرياليَّة العالمية نفسها في موضع اختيار بين القيم الإنسانية وجَنْي الثمار، فاختارت جنْي الثمار بلا إبطاء..

أصبح من الضروري التخلص من السكان الأصليين المُلقَّبين بالهنود الحمر- لاعتقادٍ بالٍ بأن القارة المُكتشفة حديثًا كانت الهند من ساحلها الشرقي- كي لا يُنازعوا النازحين الجدد ملكية الأرض التي يُنقَّب فيها عن الذهب. رُصِدت المكافآت القيمة من بلدية كاليفورنيا لقتل الهنود الحمر؛ الرجل بخمسة وعشرين دولارًا والمرأة بخمسة دولارات، وكذلك الطفل. كان شرط الجهات الرسمية هو أن يأتي الصياد بالجسد كاملًا، أو

بفروة رأسه إن لم يستطع حمله، وذلك لمنع المتاجرة بالأجساد ونَيْل المكافآت عن الجسد الواحد عدة مرات.. هكذا تتحقق العدالة!.

يحكي المؤرخ جيمس رولز كيف تجمَّع عمال المناجم الأنجلو-أميركيين ونظَّموا ميليشيات تطوُّعية للقيام بهذا الواجب الوطني، وأُعلِن الهدف بوضوح لا يقبل التأويل: التخلص من «الشياطين الحمر»، عن طريق مهاجمة قرى السكان الأصليين أينما تصادف وجودها في المناطق المراد فيها التنقيب عن الذهب. ليس هذا فحسب، بل طالبوا ولاية كاليفورنيا بتوفير الاعتمادات اللازمة للصرف على هذا الغرض، فاعتُمِدت في وقت «ذروة العمل» ميزانية إضافية تُقدَّر بمليون دولار لاستيفاء تكاليف «صيد» السكان الأصليين، وتم عرض الأمر على الكونجرس الأميركي، فاعتمد الكونجرس تلك الميزانية بإصدار قانون يُفيد ذلك- احترامًا لدولة القانون بالطبع.

وهكذا جرى ذلك التطهير العرقي بموجب القانون ووفق ميزانية رسمية مُعتمَدة!

هكذا تأسَّست أميركا.

***

وُلِدتُ يوم فرغ عرش مصر من آهلِه الفخيم، ذي النظرة الثاقبة، والطلَّة المهيبة.

اهتزَّ برحيله جيلٌ بأكمله، وثقلٌ إقليميّ، وتبدَّدت حرارة جسده من عرش البلاد سريعًا.

أما آهِله الجديد، فجاهد طويلًا كي يـملأ الفراغ بصوته العميق، وحاول تثبيت عرشـه بكثرة النياشين. أفاد من دهائه، ومن نصرٍ جذبه من بين أشواك الـهزيـمة والتضييق الدولي. ولكنه ما أن دانت له خيوط اللعبة، حتى سلَّمها عن يدٍ لإمبرياليَّة الأمر الواقع، بعد أن لوَّحت إليه بعصا الاقتصاد، وجزرته.

تشكَّل وعيي والبلاد تستبدل بعائلها الشرقي عائلًا آخر في الركن الغربيّ القصيّ مـن العالـم. بدا الحلم الأميركي في عيون البعض مـحفوفًا بأطياف الرفاهـة والسـلام، وسـماحة الوجـه الأبيض الباسـم، وقوة راعـي الأبقار التـي تُعلِن عن نفسـها دون حاجـة لأن يُظهرها. كنتُ أذهـل لصليل الجدال الدائر بين أمي اليسـارية وأبي الليبراليّ الحالِـم. ترشقهُ هي بالـمصطلحات الـمُركَّبـة والشـعارات الـمُدوِّيـة كرصـاص الكلاشـينكوف الروسـي، فـلا تُفارقهُ ابتسـامة كارتر الـهادئة، حتى يُنهي الجدال بـمقارنة بين خشـونة الـلادا ونعومـة البيويك.. بين قسـاوة لغة الخاء والشـين، ودماثة لغة الـ(P) الـمُتعالية والـ(R) الخجولة..

تردَّدتُ طويلًا بين الـمعسكريْن، خلال حرب باردة طالت منزلنا الصغير فـي الـمنيل، حتى ارتـحتُ لاسـتقرارٍ مؤقت على يسـار أمـي، تـمرُّدًا على ليبرالية إبراهيم الآدم، أبي، وبـحثًا عن ذاتي، خصوصًا بعد أن اكتمل شاربي واسـتقرَّ طولـي. أمضيتُ سـنوات دراسـتي الثانوية، ومن بعدهـا الجامعية، في تكوين ترسـانة أسـلحةٍ أُجابهُ بـهـا أفكار أبي، وذلـك الزحف الأميركي غيـر الـمرئـي الذي أخذ يـأكل الـمسـاحات الخضـراء الدافئة مـن حولي. درسـتُ الاقتصاد وتفوَّقتُ فيه، فأُرغِمتُ على رؤية الجانب الوجيه في فكر الرأسـماليين، خاصة وأنا أرمق من بعيد انـهيار الـمعسكر الشرقي مع ولوج

التسعينيات، ولكن الفكرة اليسارية ظلَّت في رأسي نقيَّةً، غير مُدنَّسة، حتى دنَّسها العَوز.

لم يكن بمقدوري أن أستمر يساريًّا وقد تكشَّفَت في طريقي فرص الملكية واكتشاف الذات؛ أن تمتلك بيتًا، لا أن تؤجر بقعة محصورة تدفعكَ إلى خارجها رؤوس أموال أكبر منك.. أن تمتلك حق الحفاظ على حياتك وحياة من يتعلَّقون برقبتك.. أن تكتشف في ذاتك ما يؤهلك لملكية كهذه، دون الحاجة لسلطة أعلى ترعاك.

اليوم أُعلن للعالم حقيقتي كاملة..

مقاول أنفار، أعمل لحساب الرجل الأبيض!

هكذا أنا، بلا زيف ولا تدليس.

رحلت همسة كي تُثبتَ لي وللعالم حقيقةً وجوديةً كنتُ أُنكرها، سذاجةً وبداهة؛ حقيقة أن كرامة الإنسان قيمةٌ إلهيَّة فقط، لا تزن في حياة البشر أكثر من حبر كلماتها على مطبوعات الكتب السماوية، ولذلك فلن يوفيها حقَّها إلا رب السماوات، في فردوسه التي تسكن أعلاها همسة.

أما على الأرض، فالميزان يختلف..

***

التقيتُ بالسيد مارك ويزلي للمرة الأولى في مركزٍ للتجارة والأعمال في مدينة سو فولز بولاية ساوث داكوتا، حيث المقر الرئيسي للمؤسسة الأميركية العملاقة، التي تبنَّت موهبتي، والمنتشرة فروعها في ربوع أميركا

شــمالًا وجنوبًا، شــرقًا وغربًا. ألفيتُه رجلًا خمسينيًّا مُـمتلئًا، ذا صدغ مُنتفخ ورديّ، وعينيْـن عسـليّتيْن نافذتيْـن تُشـعركَ برغبةٍ نادرة فـي الإدلاء بكل ما لديـك. صوته عميق، كأنــمـا يجيئك من بعيد أو عبر أنبوب مُـمتد من مكان مـا. سـاورتني رهبةٌ للوهلـة الأولى، وهو شـعورٌ لــم أعتَده، ربـما لسـمتِه المهيب وجلسته التي أوحت بكبرياء مُستحقَّة، وسيطرةٍ كاملة على مُجريات الأمـور. رغم ذلك، أخبرني بأنه يعرف عني الكثيـر، ويُدرك تـمامًا كيف أن مجال تخصصي - التنمية البشـرية - لا يزال مُسـتغربًا في بـلادي، ولا يُقابَل بالتقدير الذي يسـتأهله. أما المؤسســة، فسـتعمل على تنمية موهبتي وإذكاء الجانــب التنمـوي منها، كنوع من الـمُسـاعدة في تنمية هـذه البقعة الصفراء من العالــم.

صاحبنـي فـي جولةٍ في أنحاء المقر؛ مقر مُتَّسـع مُرتفع السـقف بشـكل ملحوظ، شأنه شأن مُعظم الأشياء في أميركا، تتَّسع وتترامى كأنّ المساحات لا تشـغلهم على الإطلاق. راح السـيد ويزلي يُحدِّثني أثناء الجولة عن تنوُّع الإدارات في الـمؤسسة، والتخصصات وفرق العمل، حتى أَنَّت أقدامنا من المشـي، فدعانـي للغداء في مطعم للأكلات المكسـيكية، قـال إن مثلَه نادرُ الوجود في ولايات الشمال، وهناك اختار لي وجبتي من قائـمة طعام فخمة الطباعـة، بديعـة الصور، لــم أرَ مثيلًا لـهـا في أرقى مطاعـم القاهرة آنذاك، ثــم أخبرني أن الخطوة التالية في برنامـج اليوم هي زيارة النصب التذكاري الوطني، المنحوت على جبل راشــمور.

كانــت زيارةً باهرةً في حينها.. لـم تكـن ذاكرتي تحتفظ بصورةٍ واضحة لوجوه جبل راشــمور قبل هذه الزيارة، ربـما رأيتها على بطاقة بريدية أو نحو ذلك، ولكنها على الطبيعة بدَت أصغر مما تصوَّرت، ورغم ذلك أبـهرتني.

بوابـة الدخول الـمُضلَّعة مكسـوَّةٌ بجرانيتٍ رمادي يبرق تحت شـــمسٍ وضّاءة، كذلك الممر الـمُفضي إلى الجبل، والأعمدة الـمُرتفعة التي ترفع أعلامًا مُبهِجة لجميع الولايات الأميركية، حتى المقاعد والسياج الـمُثبَّت على جانبي الطريق، كل شيء مكسوٌّ بالجرانيت الرمادي الـمُستخرج من الجبل الأسود، الذي هو أسود بالاسم فقط، وليس اللون.

كان السيد ويزلي يتصرَّف بتمرُّس مرشدٍ سياحي، وبحماسٍ لـم أعهدهُ فيه في أي وقتٍ لاحق، وباعتزاز من امتلك أبوه هذه الأرض شرقًا وغربًا. تحدَّث بفخرٍ عن الوجوه المنحوتة في الجبل لأهم الرؤساء والآباء الـمُؤسسين؛ جورج واشنطون، توماس جيفرسون، ثيودور روزفِلت، إبراهام لينكولن، بينما التعليقات الساخرة تكاد تُفلت من بين شفتيَّ فتفسد كل شيء. ألـم يدفع جورج واشنطون الـمهيب هذا بمن أسماهم «البرابرة الـهمج» باستراتيجية التوسُّع التدريجي التي انتهجها؟! وتوماس جيفرسون، هذا الفاتح العظيم، ألـم يُنقِّ الثوب الأبيض من «أدران» الأحمر والأسود كما جاء في خطبه؟ ثم ثيودور روزفِلت، ذاك الرئيس الكاوبوي المقدام، أليس هو من قتل الكوبيين والفلبينيين أنفسهم من أجل «تحرير» بلادهم، تحت مسمى مبدئه الشهير: تكلَّم بنعومة واحمِل عصا غليظة؟! وأخيرًا إبراهام لينكولن، فنان حقيقي دون شك، يُشعل حربًا أهلية ضارية في أميركا ذاتها، يُقتل فيها واحد من بين كل خمسين مواطنًا، ثم يُجمِّل لوحة الدماء تلك بضربات ناعمة من فرشاته، يطمس بها العبودية!.

عدتُ لحديث السيد ويزلي، وقد انتقل لشرح طريقة نحت الوجوه العظيمة في سطح جبل الجرانيت، والتي تم تسعون بالمائة منها باستخدامٍ

بالـغ الدقّة للديناميت بالغ القوة التفجيريَّة، ثـــم أكمل المهمَّة نحو أربعمائة عاملٍ تحت إدارة النحات والفنان التشـكيلي جَتزون بورجلَم، وتكلَّفت في أواخـر العشـرينيات نحو مليون من الدولارات. أثارت دهشـتي الأسـاليب والأرقـام، ومن مـكانٍ مجهولٍ في عقلـي داهـمتني صـور تـماثيل الفراعنة الضخمـة التـي نحتها الفنانـون المصريـون القدماء، مـن الجرانيـت أيضًا، نحتًا مُتمهّلًا يسـتغرق عشـرات السـنوات. أما هنا، فالنحـتُ لا يُكبِّله زمن، والحضارة تُبنى في جزء من الثانية، والتدمير الشـديد، الدقيق، يسـبق الفن، كما سبق جورج واشنطون وتوماس جيفرسون وثيودور روزفِلت في الفعل ما قام به إبراهام لينكولن في النهاية، بحرفية فنان.

أثناء خروجنا من المزار، اسـتوقفني السيد ويزلي كأنّـما تذكَّر أمرًا هامًّا، ولفت انتباهي إلى ملمح مُهم للغاية كاد ينسى الإشارة إليه، سألته:

- أي شيء مستر ويزلي؟

- هـذا الموقـع مُجهَّـز بالكامـل لاسـتقبال الضيـوف مـن أصحـاب الاحتياجـات الخاصـة، ممن يسـتخدمون كراسـي متحركة، بـل ويُـمكنك استعارة كرسي مُتحرك دون مُقابل.

شـكرته علـى المعلومة، مؤكدًا أنـه من الواضح أن أمـرًا كهذا لا يُـمكن إغفاله في بلدٍ يُعلي من قيمة الإنسان، كأميركا!

أمل معاطي عبد المعبود

جميعنا يخشى الدكتور ممدوح، ويسعى لتجنب اللقاء به ما أمكنه ذلك، ولكننا كثيرًا ما تُلقينا في طريقه الظروف، فيُحسن استقبالنا ويتباسط في ممازحتنا، بالقول تارةً وبالغمز تارة، وبالملامسة أحيانًا مع الموظفات البسيطات، اللائي تدغدغهُنَّ أناملُ الخجل والنشوة إثر قرصةٍ أو لطمةٍ مُمازِحة تجود بها يد الدكتور ممدوح الناعمة السخية؛ هكذا يزعم البعض، والذنب في رقابهم إن لم يكن صحيحًا. كنتُ أحسده في نفسي، وأُمعِن في الإعجاب به، بينما يحكي لي أحدُهم أنه سمع أن الدكتور يجود بلمساته العابثة على أرداف الفتيات الغضَّة، وأنَّهن يطِرن فرحًا ويحكين فيما بينهن عن خفة ظلِّه وبساطته، في حين تتحوّل إحداهنّ إلى نمرةٍ شرسةٍ خرجت لتوّها من محبسها إذا ارتطمتُ بها بشكلٍ عفويّ - أقسم بالله إنه عفويّ - فسارعتُ بالاعتذار..!

رغم ذلك، ليست كل الموظفات سواء، فحتى الدكتور ممدوح لا يُقدم مثلًا على مُلامسة الآنسة داليا كما يتردَّد عن فِعلِه مع أخريات، مع أنها تعمل في مكتب السكرتارية الملحق بمكتبه. فطِنتُ يومًا للسبب، في لحظة تجلٍّ هي الأجمل خلال اليوم أحكي فيها لأم إسلام عمّا يدور في الشركة، وأستمتع بذهولها أو باغتياظها على السواء. كنتُ أزجرها

عندما تنعتُ الدكتور ممدوح بألفاظها الخشنة كفرشاة البلاط، وأقول لها إن الأمر لا يعدو إشاعاتٍ يتناقلها البعض، وأن الرجلَ يعلو فوق مستوى الشهوات، التي لا يستطيع أمثالُها تَصوُّر الحياة بعيدًا عن سطوتها، وكنتُ أدلِّل على ذلك بموقفه من الأستاذة داليا، فهو يعاملها بتحفّظٍ أكبر رغم كونها أجمل أنثى على وجه البسيطة، بشهادة مدمن أفلامٍ أجنبية مثلي.

- إشمِعنى بقى يا فالح؟

تقولها أم إسلام ببربريَّتها الفكاهية، فأُجيبها أنه لا يودُّ أن يُفهَم تبسّطه مع «صاروخ» مثل داليا على نحوٍ خاطئ، كما أنه يحترم مشاعر الباشمهندس راجي- أقرب موظّفيه إلى نفسه- حيث تربطه بالأستاذة داليا عاطفةٌ لا يُخطئها مُبصر.

***

أم إسلام، أو صابرة عبد المنجي، هي من سلالة المصريّين القدامى؛ هؤلاء الأصلاب الذين لا يقهرهم ظلمٌ ولا يُقعِدهم مرض، ولا يمنعهم عن التلذُّذ بالحياة غيابُ أسباب الحياة.. هي من سلالة الفراعين، يقينًا، إلا أن قوامها يُناقض تمامًا قوامَهم المنحوت فوق جرانيت المعابد، فقد تحوّلت صابرة مع مرور السنوات- ورغم أنف المرض اللعين- إلى واحدٍ من هذه التماثيل في الوزن فقط، وليس في الصورة، فصارت «أم إسلام»...

تزوجتُها عن ما يُشبه الحب.. ليس حبًّا كالذي يتصوّره البعض، ولكنّه احتياجٌ متبادل للصحبة والاستقرار، ولدفء الأنفاس في وحشة الغرف

الخاوية. أعرفُها منذ طفولتي، فهي ابنة ذات الـمنطقة السـكنية الشـعبية التي لفظتنـي- حي الورّاق- وجـميعنا يعرف أبنـاءَ حيِّه، ويـحفظ عن ظهر قلب بناتَه. والحقيقة أني لـم أقع أسـير هواها قط، لا أنا ولا غيري من أبناء الحيّ فيمـا أعلـم، ولكنني حينمـا عبَـرتُ مـحطة الثلاثيـن بعدة أعـوام، وألفيتني وحيدًا بلا عائلة تُذكر، وجدتُ في نفسي حـماسةً أكبر للأخذ بنصيحة الخالة سـعدية- جارتنا وصديقة الـمرحومة أمي- بأن أتقدم لخطبةِ إما أسـماء ابنة عم مـجدي السـبّاك أو صابرة ابنة عم عبد الـمُنجي سائق النقل العام، أيهما تروق لي، حتى لا يفوتني قطار الزواج فأرغبُ عنه نـهائيًا، كحال العديد من أبناء الحي هذه الأيام.

تفكّرتُ في الأمر بـحماسٍ ناشـئ؛ أسـماء هي الأجـمل والأصغر سنًّا، ولكنّهـا خريـجـة الـمعهـد العالـي للخدمة الاجتماعيـة، لذلك قـد تتعالى علـى قبول طلبي، أما صابرة فسـتعتبرني- من واقع عملـي كحدّادٍ ومُوظّفٍ فـي الحكومة- نقلةً نوعية في مسـتوى رجُلها وعائلها، ولذلك فسـتقبل بي بلا تردُّد.

بعـد عدة أيام، وعدة صور سـاقتها إليّ الخالة سـعدية كي تُحكِم الوثاق حول قناعتي الفاترة، وعدة مشاوير أمضيتُها أتتبّع صابرة الشابة الفتيّة اليافعة ذات الجسـد الـمُلفـوف- الله يرحـم!- خِلتني أحبها، أو أرغبها بشـكلٍ أو بآخر، وتـحمّسـتُ كثيرًا لفكرة التقدم لخطبتها، وقد كان. تـم الأمر بسرعة، وبسعادةٍ صادقة شارك فيها الكثيرون، وبلا خسائر تذكر..

قبـل الدّخلـة بأيـام، أبلغتني ابنـة الفـرّان- صديقتـي الصغيرة النشـيطة كنحلة- أن أسـماء قد أعربتْ لـها عن دهشتها وأسفها أنني لـم أخترها هي،

وأنهـا كانـت لتُرحّب بي كثيـرًا إن كنتُ فضّلتها على صابرة..! لـم أنشـغل بالأمر طويلًا سـاعتها- وإن كنتُ أتغيّظُ اليوم كلما تذكَّرته- وشـغلتُ نفسي بـحساب «النُّقطة» الـمتوقّعة وما إذا كانت ستفي بسداد الديون التي تراكمت مع اكتمال تـجهيزات الزواج. وفي ليلة الزفاف شـعرتُ بفرحةٍ وأهـميةٍ لـم أعرفهـا من قبل، وجـميـع أبناء الحيّ يحتفون بي، ويسـدّون من أجل ليلتي مدخلـيّ الشـارع، فتناسيتُ طيـف أسـماء، وإن كان يزورني علـى فتراتٍ مُتباعدة كلما تعاظم ردفا أم إسلام، وثقُل على نفسي وجودها السخيّ..!

* * *

عندما بادر الفشل الكلويّ بقضِّ مضجع حياتنا واستنام في جسد صابرة، كنتُ بالكاد أدفع الأيام بصعوبةٍ بالغة، خشية أن يبتلعني الضجر..

كنـتُ أيامها أعاني عدم اسـتقرارٍ فـي وظيفتي- وهي أهم مـا يـميّزني- بعـد أن قسّـموا مؤسسـة مصـر للطيران إلـى مـجموعـة شـركات، وألفيتُ نفسـي ضمن مـجموعةٍ من الفنِّيين لـم تقيَّد بشـكل نـهائي على قوة أيٍّ من الشـركات الناشـئة عن التقسـيم. كنتُ أعمل في القطاع الفني قبل التقسيم، والـمُفترض أن أُقـيَّد على قوة شـركة الصيانة والأعمال الفنية، ولكن إدارة الشـركة رفضـت أن تُقيِّد جميع فنيّي وعمـال الصيانة علـى قوتـها، حتى لا تتحمّـل وحدها عبء مرتباتـهم ومكافآتـهـم وحوافزهم، بينما هم يقدِّمون الخدمات لعددٍ من الشركات الأخرى الناشئة، وقد كانت الغاية من التقسيم آنذاك أن تصير كل شـركة مركز ربحٍ مسـتقل، وأن تتنافس مراكزُ الربح هذه فيما بينها على تعظيم العائد وتقليص النفقات، ونـحن - كأفراد- أبغضُ بندٍ من بنود النفقات بالطبع. لـذلك رفضت الشركة استيعابنا، وبادرَت بتقديـم

المذكرات والمبرّرات والترهات في هذا الصدد، فاستوعبتنا الشركة القابضة لمصر للطيران مؤقتًا- بصفتها الشركة الأم- حتى يتم حسم الجدال لصالح أحد مراكز الربح- أو ضدها- وفقدنا بذلك أغلب مميزاتنا والجزء الأكبر من بدلاتنا وحوافزنا.

حدث ذلك بالتزامن مع وصول الأستاذ إسلام- ولي عهدٍ لم أكُن مُؤهّلًا بعد لأن أقطعه على نفسي- بسلامة الله إلى عالمنا الضيق في كل شيء، فأسعد قلبي ومدَّد من ساعات أرقي. أضاف أيضًا إلى رصيد أمِّه عشرة كيلو جرامات أخرى- حسب تقديرها المُغرِض- فأضاف بذلك إلى طينتي المُنقوعة في الماء مزيدًا من البلل. ورغم كل ذلك، فإن حلوله مسح عن عالمنا شيئًا من الكدر، في وقتٍ كنّا في أمسِّ الحاجة لشيءٍ من هذا، فلم يكُن قد مرّ بعد على معرفتنا بمرض أم إسلام أكثر من شهريْن.

***

منذ لقائي الأول المباشر بالدكتور ممدوح وأنا أُكِنُّ له حبًّا واحترامًا لم أجدهُ في قلبي من قبل تجاه أبناء هذه الطبقة من أكابر الأكابر؛ تواضعه، لطفه، تقديره لموظفيه، حتى البسطاء منهم.. سألني عن حياتي، عن ماضيّ، عن عملي السابق، وأبدى اهتمامًا صادقًا بحبي للتمثيل وللمسرح، وشغفي بالقراءة كما ذكرتُ له. قال لي إن الفرصة قادمة لا محالة مادام في النفس إصرارٌ على تحقيق الحلم، خاصة أن ما قمتُ به من أجل إنقاذ زميلي ربما لا يُقدِم عليه الأستاذ أحمد السقا شخصيًا..! وبعدما ضحكنا وتندَّرنا بعِدَّة مشاهد من أفلامه، وقبل أن أهُمَّ بالذهاب تحرُّجًا، طلب إليّ بنبرة من يطلب شيئًا لنفسه ألا أُهمل حلمي، وألا تفتر حماستي، فالطريق

موصولٌ منذ مـجيئنا إلى هذه الدنيا وحتى نغادرها، ولا نعرف في أي مـحطة سـنصادف بداية تـحقيق الأحلام. وأضاف أنه يعشـق الـمسرح مثلي، وكان يحلم أن يكون أديبًا وكاتبًا مسرحيًّا، ولذلك يُكن تقديرًا خاصًّا لـمُبدعيه.

ألـهمتنـي كلماتـه.. لا أدري بِـمَ، ولكنها ألـهمتني، وشـحنت بداخلي بطاريـات الأمل، فعُدتُ بشـهيّةٍ مفتوحةٍ إلى قراءة الكتـب في أوقات الفراغ وفي المواصلات، وإلى مشـاهدة الأفلام العالـمية والـمحلية في الـمساء.. عُدتُ كذلك للتمثيل، فمثَّـلتُ بعض أهم الأدوار أمام مرآة الحمام، بصوتٍ خفيض ومشـاعرٍ دافقـة، وخلّيتُ نفسـي للأحلام تعبثُ بي كيف شـاءت.. يُقال إن الدكتور واسـع النشـاط، مُتشـعِّب العلاقات، وقد يكون قد رأى لي أملًا ما، ولـم يُرِد أن يُسدي لي وعدًا مُباشرًا.. لِـمَ لا؟ هو صاحب فضلٍ على الكثيريـن، ويظهر في الحفلات الخيرية على الـدوام، مُنفقًا ومُـحفِّزًا لغيره. هذا ما أكدَته لي الأسـتاذة داليا السـكرتيرة وهي تُسـلِّمني جـواب الـمكافأة التـي أمر لي بـها، تقديرًا لجهودي في إنقاذ عوض ونِون، وفي الحفاظ على سـمعة الشركة من اهتزازةٍ كاد الحادث- لو وقع- أن يتسبّب بـها..

لـــم يتصادف أن قابلتُه كثيرًا بعد هذه المرة، ولكنني في الـمرات القليلة التـي لـمحتُه فيها ولـو من بعيد، كنتُ أُحـاولُ أن ألفِتَ انتباهـه بأي طريقة، فأُحيّيـه، أو أصافحه أحيانًا إن كان على مقربةٍ منـي، حتى يتذكرني ويُهديني ابتسـامةً خاصةً ترفع من شـأني بين أقراني، حتى تفاجأتُ به يتَّصل بي ذات مرةٍ على هاتفي الـمحمول..! يُـحدثني أنا! بل ويدعوني باســمي مسـبوقًا بلقـب «عم» في احترامٍ بالغ!! دعاني إلى حفله التنكري السـنوي بـمناسـبة عيد أجنبي لا أُجيد نطقَ اسـمه.. شكرته مرتبكًا، وحاولتُ الاعتذار بارتباطٍ

عائلي، ولكنه أصر على حضوري الحفل إصرارًا خرقني كمثقاب، وأكد عدم قبوله لأية أعذار. ثم أوصاني بالتكتُّم على الدعوة، خاصة بين زملائي، حيث إنه لن يدعو سوى مجموعةٍ منتخبة من الأصدقاء، وربما كان من الأفضل عدم الإفصاح عن الدعوة حتى لأسرتي، كي لا يعلم بالأمر أحد الزملاء عن طريق المصادفة، وإلا سأكون قد أحرجتُه وخسرتُ بذلك ثقته فيّ نهائيًّا. وعدتُهُ أن أكون عند حسن ظنه، وقد امتلأتُ بمزيجٍ من الزهو والارتباك. أوصاني بصفاء الذهن، وحسن انتحال شخصيتي التنكرية التي اختارها لي، كي أتمكن من مجاراة باقي المدعوين، ثم أمرني أن أمُرَّ على خزينة الشركة كي أتسلم مكافأةً تشجيعية- ألف دولار!- تساعدني على حسن الإعداد للحفل.

زادتني هذه الوصية الأخيرة ارتباكًا..أيقنتُ باستحالة اعتذاري عن عدم حضور الحفل، وشُغِلتُ بكيفية استعدادي بالشكل المطلوب، حتى هدتني كثرة التفكير وطول انشغالي بالأمر إلى مستودع عرائس جاري صلاح.

راجي مدحت بيومي

منذ الرابعة عصرًا وحتى السادسة، لزِمتُ الشاب الأميركي اللطيف ستيڤن، رئيس الطاقم المسؤول عن تنفيذ الألعاب النارية واستعراضات الليزر. هالني ما عرفتُ منه، وما شاهدت.

سيُضرب على مدار فقرات الحفل 1200 صاروخ، أو «قوقعة نارية» كما أسماها، من مختلف الأنواع ذات الأسماء العجيبة؛ الأخطبوط الذهبي، المظلة، المطر السحري، السيوف المتشابكة. نِصفهم على الأقل سيُضرب قرب نهاية الحفل، وعند الختام. بعد إلحاحٍ مني، أضاف ستيڤن أن تكلفة الصاروخ الواحد تتراوح بين العشرة دولارات والثلاثين دولارًا. أما التكلفة الإجمالية فليس مسموحًا له أن يكشف عنها. لكنني قدَّرتُ أنها قد تتجاوز الثلاثين ألف دولارًا، فلم يعترض ستيڤن.

أفهمتُه، بعد أن تبادلتُ معه التعارف والحديث والسجائر وأرقام الهاتف أيضًا، أن لا داعي للتحفُّظ في الحديث معي، فلستُ صحفيًّا يُفتِّش وراء خبايا الحفل. إنما ينبع سؤالي من فضولٍ محض، لا أكثر. ابتسم. أجاب إنه هو كذلك ليس مديرًا أو صاحب قرارٍ في جهة عمله، التي أرسلته إلى هنا، كي يتحكَّم في الأوامر والتعليمات.

عقليّاتٌ مُحترفة بحق. مُنضبطةٌ بحق. هذه هي متعة العمل مع الكولونيل. سعيه الدائب نحو الكمال، أيًّا ما كانت تكلفته، هو سرُّه الأعظم. دائمًا ما تكون للتكلفة حسبةٌ أخرى في ذهنه. برغم أن ما يقوم به ليس سرًّا على الإطلاق، لا يستطيع الشخص «العادي» أن يُدركه مهما حاول. أما أنا، فأُراوِحُ بين ذلك الشخص «العادي» الذي كنتُه قبل أن ألتقي الكولونيل، وشخصٍ آخر استثنائيّ يدفعني هو كي أبعثه من داخلي. هو يعرفُ قدراتي الذاتيّة، تلك المعجزة التي تسكنني كما تسكن كلًّا مِنّا، مارد الفانوس السحري الذي يُمكنني استدعاؤه لو جلوتُ نفسي كما يُريد الكولونيل. هو يُدرك المارد. يراهُ يتحرّك وراء عينيّ. يصرخ حبيسًا داخل حلقي. بينما لا يُمكنني إدراكُه من تلقاء نفسي.

***

بعد أن ثبَّتُّ بنفسي أول قوقعة نارية تحمل اسمي فوق منصّة الإطلاق الخشبية التي أعدّها ستيڤن، جاءني استدعاءٌ هاتفيّ من الكولونيل. قبلها، كان ستيڤن قد أملاني إحداثيات نقطة التثبيت بدقةٍ مُتناهية، وعلّمني كيف أشُقُّ فجوةً مربعةً في الأرضية الخشبية للمنصّة، حتى تحتوي القوقعة، ثم أُراجِع استواءها باستخدام ميزان المياه كي تصبح عامودية تمامًا، فلا تنحرف أثناء الإطلاق. أسمَيْتُ قوقعتي الأولى «راجي 13». وعدْتُ ستيڤن أن أعودَ سريعًا كي أُثبِّت المزيد من الصواريخ، وسط ذهولٍ بادٍ على أفراد طاقمه. لا أعرف سبب تفاؤلي بالرقم «13». ربما يعود السبب لنفوري من الظلم الذي أوقعه عليه البشر، حينما وصموه بالنحس في بلدان شتى.

استقبلتْني بَشاشةُ الكولونيل الـمُعتادة، مهما كانت الضغوط. سألني أين «غطسْت» طوال هذه المدة، فشرحتُ له بحماس كيف تعلّمتُ فنون إعداد الألعاب النارية من ستيفن، وأصبحتُ خبير مفرقعاتٍ دولي، وإني أُفكر جِديًّا في بدء نشاطٍ احترافي في هذا المجال، بعد أن يمَلّ الكولونيل من وجودي. وعدني أن لا يمَلّ أبدًا، وأهداني إحدى ابتساماته الـمُشجِّعة التي تشحن خلاياي بطاقةٍ متجددة، ثم أشار إلى أهمية توزيع وقتي بين أطقم العمل كافّة، كي أتابعها جميعًا وألتقط صورًا لكل التجهيزات دون استثناء، حتى يتضمّنها تقريري المصور الذي سأعِدُّه آخر الليل كما شرح لي من قبل. أضاف إن رُعاة الحفل لن يقبلوا إلا بتقارير وافيةٍ، نهاية الأمر، تشمل جميع التفاصيل، دون إجمالٍ للتكلفة وحسب. كالعادة، لم أجِد في توجيهاته نقدًا مُباشرًا، ولكنه التحفيز على المزيد والمزيد. وَعَدتُه أن أبذل قصارى جهدي، واستدرتُ كي أذهب. استوقفني ثانيةً. ذكّرني أن أبادر من فوري بمراجعة الكاميرات المربوطة بغرفة التحكُّم، وأن أجربها واحدة واحدة قبل أن يداهمنا الوقت. ولم ينسَ التأكيد على أهمية تمرين تنفّس الطاقة لاستدعاء الطاقة الإيجابية، ثلاث مرات على مدار اليوم كحد أدنى، وألا تقِل المرة الواحدة عن خمس دقائق كاملة.

هذا هو الكولونيل. حزمة من التفاصيل، تجمعها رؤيةٌ شاملة. طاقةٌ إيجابية تُشِعّ مِن حولك. تتنفسها في الهواء. تجد لها طعمًا في حلقك، مهما أنهكك التعب. أن تكون منطفئًا، فاترًا، ثم ينبعِثُ الضوء من كل خلية من خلاياك، فترحل عن سمائك سحبٌ منخفضةٌ ملبَّدة، وتستشرف آفاقًا لم تعلم بوجودها قبل هذه اللحظة. هكذا عرفتُه، منذ اللقاء الأول.

***

عندما دلف مستر ممدوح إلى المحاضرة الأولى، لم أفهم ما يجري من حولي كما فهمهُ الآخرون. ألفيتُ اللغط المُرتفع يخبو سريعًا. تَحِلّ بدلًا منه صيحاتُ تهليلٍ وترحيبٍ مُدوِّية. يدعمها ارتفاعٌ في إيقاع موسيقى الهاوس والصفير الحاد، والتصفيق من كل جانب. بدأ الحاضرون في الوقوف تباعًا. جذبني زميلي الجنوبي للوقوف كما فعلوا. التفتَ هو نحو الممر الأوسط الذي يخترق مقاعد القاعة. حاولتُ الاستفهام منه، لكنه لم ينتبه لي. أخذ يصفق بحماس جنوني، حتى مَرَّ شخصٌ ما مادًّا كفّيه نحو الواقفين، يصافح الأيدي الممتدة من الجانبين كما لو كان لاعب كرة عالمي. ارتقى الأخير المسرح قفزًا فوق درجاته الخشبية. عندها، بلغَت الصيحات الجنونية والتصفيق الحماسيّ مداهُما. سرَت بهجةٌ عارمة انتقلت حرارتها لوجنتيّ وأذنيّ. كل ذلك قبل أن أتبيَّن ملامحه على شاشة العرض الكبيرة في خلفية المسرح؛ ملامح الكولونيل.

بدا كنجم سينمائي في أواسط عمره. تُشِعُّ من حوله هالةٌ من الحضور الطاغي. بدأ بشكر مُنظِّمي المنتدى. ثم أثنى على جهود فريق الدعم المُجتمعيّ الذي ترعاه الشركة، الذي لم يُهمل قطاعًا حيويًّا يحتاج للدعم إلا وقدّم له الأيدي، بدءًا من رعاية دور الأيتام، وحتى المساهمة في تجهيز المستشفيات، وانتهاءً برعاية القرى التي ترزح أسفل خط الفقر. أثناء عرض فيلم قصير عن أنشطة الفريق الخيريّ، أشار الكولونيل إلى أهمية أن يكون العملُ الخيري جزءًا أصيلًا في حلم كل منّا بالحرية المالية المُطلقة. ثم استدرك مُوضِّحًا أن إشارته العابرة ليست بالضرورة تدخلًا في حياة المُشاركين، ولا توجيهًا لأهداف الشركة، فدوره الوحيد الذي يُتقنه

ويرتضيه تـمامًا هو أن يدعم الـمُشـاركين في اسـتيعاب ومـمارسـة عناصر النجـاح، كي نـحقق جـميعنـا التميز الـمطلق في عملنا التسـويقي، وهو ما يعود بالنفع العام على الـمجتمع آخر الأمر، كما السحاب الذي تُضَخ ذراته في السـماء، فتتكاثف، حتى تـمنح الأمطار حيث يُقدَّر لـها. اختار عنصرَيْن في غاية الأهـمية ليُكوّنا محور هذه الـمُحاضرة: التحفيز والطاقة.

***

عُدتُ من فوري لصديقي الجديد ستيڤن، مفعمٌ بالطاقة واليقين بأهـمية مـا أقوم به، خاصة وقد قمـتُ بـمراجعة الكاميرات الـمُثبَّتة حول المبنى من داخـل غرفة التحكم، وبعد أن تأكَّدتُ أيضًا مـن كفاءة الخلايا الضوئية التي ستنير الحديقة ذاتيًّا عندما يُـقبِل الـمسـاء. لاحظتُ أثنـاء الـمراجعة حجم البوابـة الرئيسـية للقصـر. هـي بالقطع هائلة، وهـو ما لاحظتُه أثنـاء دخولي إلـى القصر، ولكنني لـم أتصوَّر حجمهـا الـهائل على النحـو الذي ظهرَتْ بـه في شاشـة غرفـة التحكم. بدا عم شـفيع، الحـارس النوبيّ الـودود، إلى جوارها كرضيعٍ يتطلع نـحو أُمه، وقد وقف يُتابعُ العامل الذي ارتقى سـلمًا معدنيًّـا مرتفعًا كي يُعلِّـق زينة الـهالوين الـمميزة أعلـى البوابة، ولـم تلحظْ وجودَهـما البوابةُ الشاهقةُ على الإطلاق.

لـمحـتُ سـتيڤن مـن بعيـد وهـو راقـدٌ بكامله أسـفل منصـة الإطلاق الخشـبية. تنبعث أسـلاك الكهرباء من حوله كأفرع نباتٍ مُتسـلِّق. رحَّب بي بابتسـامةٍ وضّاءة فور أن شـعر بي. بادر بشـرح ما يفعل قبل أن أسأل. يُركِّب موتورًا أسفل منصة الإطلاق يـمَكِّنه من التحكم عن بعدٍ في ارتفاع المنصّة، وكذلك زاوية الإطلاق. عملٌ خطرٌ بالفعل.

ارتحتُ كثيرًا لهذا الشاب، ربما بفعل ابتسامته تلك، أو لأنه قريبُ الشبه بصديق صباي وأعز أصدقائي إلى اليوم، هاني بياظة، مع فارق الألوان والانفعالات بالطبع. البشر جميعهم متشابهون، رغم ما يبدو على سِماتهم من فوارق الألوان والرتوش. كنتُ قديمًا أظن أن الأجانب جنسٌ آخر. أرقى على نحو ما. وأهدأ منّا نحن المصريين. ربما أكثر برودة. لا أذكر تحديدًا كيف كنتُ أفكّر وقتها. لكنني كنتُ أظنهم أشبه بأبطال الأفلام والمسلسلات الأميركية مثّلا، خاصةً رجالَهم. ثابتون. واثقون. يقومون بمطارداتٍ رهيبة كما لو كانوا في رحلةٍ لمرسى مطروح. يقتلون الأشرار والأخيار بملامح ثابتة، كما يقذفون بكرةٍ شاردةٍ إلى داخل ملعب. لذلك كنتُ أتصوّر التعامل معهم لا شك أمر عسير جدًا. ثم تغيَّر تصوّري هذا مع الوقت. تحديدًا، منذ شرعتُ في السفر مع منتخب الشيش. صرتُ أقابل الأجانب الجدد أكثر من المصريين في المعسكرات الخارجية، وكذلك البطولات. أجانب من كل صنف، ليس أميركيين وحسب. اكتشفتُ مع التجربة أنهم أناسٌ عاديّون. ليسوا نمطًا واحدًا. بعضهم لطيف. بعضهم سخيف. منهم البسيط ومنهم المُتعجرف. منهم من هو حاد الذكاء وواسع المعرفة. ومنهم من أفوقُه ذكاءً واطلاعًا بفارق لا يخفى. منهم الساذج أيضًا. لم أكن أتصوّر في صغري أن هناك أجانب سُذَّجًا.

نحمل أفكارًا ونحن صغار لا نعلمُ لها مصدرًا سوى الكبار، فمصدر أفكارنا ومفاهيمنا في الصغر هو الكبار على الأرجح، ثم نكتشف سذاجة أفكارنا عندما نصبح نحن الكبار. هكذا الحياة.

لا أذكر كذلك لِمَ تركتُ الشيش. لا تحضرني الـمُلابسات تفصيلًا. لكنها لن تخرج عن عدة أسباب تقليدية. قد يكون بسببها مجتمعة. الدراسة ربما، أو رحيل أبي، أو... رحمك الله يا أبي. لم نتفق يومًا. كنتُ دائم الشجار معك. لا أتفهّمُ لك تصرفًا واحدًا. دائمًا ما أتعمدُ أن أصنع عكس ما تقول تمامًا. ولكنني لا أجدُني اليوم إلّا انعكاسًا لصورتك في مرآة ذاكرتي. من العجيب أن يحولنا الزمن بطريقةٍ سحرية، بحيث نصير نسخةً من ذكرى آبائنا، كلما قاربناهم في العمر.

ليتني ما تركتُ الشيش. لا بأس، كنتُ سأتركه يومًا لا محالة. لم أكن بارعًا فيه لهذه الدرجة على أية حال. لم أجاوز المركز الخامس في المنتخب ولا الثالث في النادي في أي مرحلة عمرية. حسبي أن اكتسبتُ من اللعبة لياقةً وجسدًا ممشوقًا. لن أخسره قبل عشرين سنة على الأقل. هكذا أطمح.

هاني بياظة لم يزاملني في لعبة الشيش. لكنه لازمني في جميع التمارين والبطولات المحلية. ومن ممارستي أنا الشيش، اكتسب هو لقب بياظة. كان يحمل حقيبة أدواتي وملابسي. يحمل بداخلها عبوةً فارغةً لسائل تلميع الزجاج. يملؤها بالماء البارد من الـ«كولدير» كي يبُخَّ وجهي به فور أن أغادر البساط وأخلع قناعي الواقي، بعد كل مبارزة. كان يُشعرني كأنني أخرج لتوّي من نزالٍ حقيقي، يُمهِّد لمعركةٍ دامية في خياله هو. يُجلِسني، ثم يُروِّحُ أمام وجهي بقطعة قماشٍ بيضاء يسمّيها «البياظة» كي يُطفئ حرارة وجهي الملتهب بالإجهاد. من هنا أطلق عليه مدرب النادي لقب بياظة، ولم يبرحه إلى اليوم.

***

قُـرب نـهاية الـمُحاضرة الرابعة، تأكـدَت لديّ رغبة جارفة في الحديث إلـى الكولونيـل. اسـتأذنتُ صديقـي القنـاوي الـذي لازمنـي فـي جميـع الـمُحاضـرات منـذ اللقـاء الأول، حرصًا علـى الإفادة من تجربتـي قدر ما استطاع. دلفـتُ خارجًا مـن القاعة. سـألتُ موظف الاسـتقبال عن الطريق الـمُؤدّيـة إلـى المخرج الجانبي، الذي يسـتخدمه دكتور ممدوح. شـرحتُ لـه إنـي أرغب فـي لقائه. قـال، كاذبًا، إنـه لا يعلم. ألححتُ عليـه بحاجاتي الماسّة للقائه. أجاب، بصلفٍ، أن ما أطلبه غير ممكنٍ، وأن الدكتور ممدوح لا يُرحّب بلقاء أحد من الحاضرين، وليس في وقته فراغٌ يسمح بذلك.

أهـملتـه، بعـد أن فقدتُ الأمل فـي تعاونه. لكنني لـم أنسَ إسـاءته تلك بعد أن صرت المسـؤول الأول عن تنظيم تلك الـمُحاضرات. كان أولَ من استبدلتُ من موظفي الاستقبال. الـمُهم أني درتُ حول الممرات الـمُحيطة بالقاعة، مرةً وراء مرة. في الأخيرة لـمحتُ فتاةً قصيرة ذات انحناءات شديدة البروز والاستدارة، يتدلّى من يدها مايكروفون يحمل شعار إحدى القنوات الفضائية، يُجاورها شـاب نحيل يعقد ضفائره الدقيقة الجعداء خلف رأسه، ويحمل فوق كتفه كاميرا ڤيديو باستهتارٍ يُنذر بسقوطها في أية لحظة. رمقتُ الكاميرا لبعض الوقت شـاردًا في كيفية اسـتفادتي من الموقف. انتبهتُ إلى ابتعاد الشـاب، وقد ألصق تليفونًا محمولًا إلى أذنه. هي اللحظة الـمُناسـبة. هكـذا حدّثتُ نفسـي وأنـا أتقدم نحو الفتـاة، دون أن أملـك مدخلًا واضحًا للحديث معها.

– مسـاء الخيـر (قلت، بينما أجـذب من خيالي خيط الجملـة التالية) أنا راجي بيومي، زميلك في كلية إعلام.

- أنا مش خريجة إعلام أصلًا!

- فعلًا؟ شوفي الصدفة.. أنا بقى خرّيج إعلام ومحتاج أحضَر اللقاء اللي هتعمليه، هيبقى تدريب عملي ليّا عشان ما عنديش خبرة في محاورة الشخصيات المهمة.

ابتسمَت عيناها. هبط كتفاها لوضعهما الأول، مُفصحتين عن ذهاب توتّرها إلى غير رجعة. ناولتني المايكروفون. طلبت إليّ، على سبيل التجربة، أن أُحاورها باعتبارها نجمة سينمائية تشارك بفيلم من بطولتها في مهرجان للسينما. قمتُ بذلك بالفعل. استدرتُ كي أواجه كاميرا الـمُصوّر عندما اقترب. أهملتُ علامة استفهام تبدّت على وجهه. قامت هي بإفهامه الأمر، فمطّ شفتَه السفلى علامةً على استهانته. حقيقة الأمر أنه كان مُغتاظًا، مُستهجِنًا وجودي، وغير مُقتنع. لكنه لم يُحاول إبعادي أو التدخل مباشرة في شأن الـمُذيعة. لم يكن إلا تابعًا لها رغم الزمالة. أما أنا فسعِدتُ بالتجربة، وبتسلّلي إلى عالم ممدوح رحّال أقرب فأقرب، وإمكانية التحدّث إليه وجهًا لوجه.

- هو دكتور رحّال هيُخرج من هنا؟ أنا حاسس اني جاهز..

- جاهز لإيه بالظبط! إنت ناوي تقطَّع عليَّ ولا إيه؟!

- لا يا فندم العفو، هو انا اقدر. أقصد اني جاهز اتفرّج عليكِ وانتِ بتحاوريه.

- بص.. ما ينفعش طبعًا تظهر في الكادر، فلو مش يضايقك ممكن تمسك المايك الإضافي وتقف جنب الكاميرا مان، إعمل نفسك بتساعده.

- لا مافيش مشكلة خالص..

لاحظتُ أن أسارير الـمُصوّر قد انفرجت أخيرًا، بعد أن انتقلتُ من خانة المتبوع إلى خانة التابع، في لفتة قدريّة رحيمة. هذا جيد. كلاهما يرتاح لوجودي الآن. ليس أمامي سوى انتظار فرصة مُواتية للحديث مع الدكتور. واتتني هذه الفرصة بالفعل. لم يستغرق لقاؤها به أكثر من دقائق، راقبته خلالها بشغف مهووسي نجوم البوب. شكرتها بعُجالة. طرحتُ المايكروفون بين يديها بسرعة من يتخلص من قنبلةٍ موقوتة. مرقتُ سريعًا وراء الكولونيل كي ألحق به. بادرتُه بحماسٍ من خلف منكبه:

- أنا اشتريت كل كتب حضرتك، ومذاكرها فصل فصل..

أشرق نحوي بابتسامةٍ تُشيع سلامًا وبهجة. بنبرةٍ رخيمة قال:

- عظيم.. وقدرت تكوّن ثروة قد إيه؟

- لأ ثروة إيه حضرتك، أنا لسه في البداية..

- تبقى ما استفَدتش حاجة، وخسارة تمن الكتب والوقت.

- أنا عارف ان قُدّامي كتير. بس لو حضرتك خلّيتني الـمُساعد بتاعك، أكيد هتقصَّر عليَّ الطريق.

- بس انا ما بشتغلش مُصوّر يا أستاذ.

- ولا أنا مُساعد تصوير! أنا عملت كده عشان اتكلّم مع حضرتك وبس.

أُعجِب بحماسي بشدة. اصطحبني معه لغداء عمل، حسبما قال. هناك، قصصتُ عليه تجربتي مع التسويق الشبكي، بشغفٍ يسيل بين كلماتي اللاهثة. وصفتُ له طموحي للحرية المالية المُطلقة، بصدق من يُدافع عن عقيدته. أما هو، فحدّثني طويلًا عن تجربته الثرية في الحياة وفي العمل. قلّدَني وسامَ استحقاقٍ من الدرجة الرفيعة، بأن وصفني بنموذج الشاب الذي كان يتمنى أن يكونه في مُقتبل حياته. أنا من ينشد فيه مثالًا، ثم يُسمعني بصوته الذي يخطف الألباب كلماتٍ كهذه. كان حلمًا. وأي حلم. طلبتُ منه أن يسمح لي ألا أُفارقه أبدًا. عرض عليّ العمل معه في مجموعة شركاته. شعرتُ أن أميرة مملكة الأحلام قد اختارتني زوجًا، وصدَقَ الشعور بالفعل، فلم ألتقِ داليا إلا بعد عملي مع الكولونيل، ولم أُحقّق ذاتي إلا في صحبته.

قبل أن يودّعني، خافتني بأن المُقرّبين منه ينادونه بالكولونيل، وإني صرتُ أحدهم منذ الساعة. ثم أفضى إليّ بسرٍّ لا يعلمه إلا خاصة الخاصة. ذلك أنه هو من بدأ نشاط التسويق الشبكي في رقعتنا الجغرافية. أن الاسم المُحتجب، الموجود على قمة الشبكة الخاصة بالإقليم، هو: ممدوح إبراهيم الآدم؛ اسمه الأصلي..

داليا عادل سراج

(م د ح)، مَدَحَ..

أي لوحة تحملينها أنتِ أيتها الفيورا صغيرة الحجم؟!. تتحركين كخنفساء قبيحة بين السيارات المُتسابقة نحو مصيرها الخانق، بلا حيلة تُذكر.. تُرى، لأي سيارةٍ عظيمة ترفعين لافتة المديح المعدنية تلك؟! ربما لتلك المرسيدس الذهبية بالأمام..

تُرى أي لوحة تحمل المرسيدس بنز الرائعة! لا يمكنني رؤيتها من محبسي هذا بكل أسف. لا بد أنها (ف خ ر) أو (ع ظ م)، أو ربما (د هـ س)!! أما الصغيرة هذه، فلا تملك أمام بهاء المرسيدس بالأمام إلا (م د ح).

تُرى هل يقبع مستر ممدوح بداخل تلك المرسيدس الذهبية البراقة؟!!

تليق به دون شك، فهو ممدوح، والسيارة الصغيرة تتبعه مادحةً، ومُنبهرةً مثلي!.

* * *

يمتلك مستر ممدوح سحرًا خاصًّا بالطبع، يستحيل معه الاعتذار عن أي شيء يطلبه.. يجعل من رغباته غايةً شخصية لكل من حوله..

أتذكَّر تلك الأمسية الشتوية، عندما التقيتُه أول مرة، كأنها حدثت بالأمس.. ليلتها، كنت أجوب شوارع الزمالك - كعادتي منذ كنتُ لا أزال أدرس في كلية التجارة الخارجية - أتطلّع إلى واجهات المحال المضيئة، ومداخل المطاعم والكافيهات الأخّاذة، وأبحث عن لافتات «اليوم المفتوح» التي تكثر في بلكونات الشوارع الضيقة في الحي الراقي، باعتبار سمعته البائدة على الأغلب.. أدوِّن تواريخها، وأُنسِّق مع حراس العقارات مواعيد كي أزور ربّات المنازل، بحثًا عن فرصٍ لتبادل المنفعة؛ أجلبُ لهن مشغولات أمي وقريباتها اليدوية البديعة، وأتفق معهن على نسبتهن من المبيعات مقابل عرض المشغولات بين البضائع المميزة.

وبينما كنت أسير وأمعن النظر، إذا بواجهة إحدى المكتبات تلفتني، وقد تكدَّست وراءها الأجسادُ في مشهد غريب..

الجو بارد، بينما الحرارة تنبعث من الداخل مع الضوء الباهر والفلاشات والحماس، فتثير شغفي..

كنتُ أرقبُ الواجهة من وراء صف السيارات المُتلاصقة، كأنما تلتمس الدفء، فلمحتُ في الأمام سيارة ميكروباص تحمل شعار إحدى القنوات الفضائية، نبَّهتني لوجود كاميرات تصويرٍ كبيرة بالداخل.. ثم كان أن انتبهتُ إلى المُلصقة التي احتلَّت ركنًا قصيًّا من واجهة المكتبة، يتصدرها رجلٌ أربعيني وسيم القسمات، واثق الابتسامة، في نظرته حدَّة آمرة ووداعة ناعمة في الوقت نفسه، يرتدي سترة توكسيدو داكنة تشوبها لمعةٌ طفيفة، تنفرج عن قميصٍ أبيض مُحرَّر الصدر من أي رباط عنق،

ويحمل بين يديْه صندوقَ مجوهراتٍ أشبه بكنوز السفن الغارقة، تطلُّ من باطنه الجواهر واللآلئ..

دلفتُ إلى الداخل، لا ألوي على شيء إلا أن أصل إلى بؤرة الاهتمام التي تسلّطت عليها الفلاشات والعدسات، وامتدّت نحوها الأيدي بأجهزة التسجيل والهواتف المحمولة. اخترقتُ الأجساد المتلاحمة التي انبعث منها خليطٌ من روائح راقية وأخرى رخيصة. شعرتُ بالدفء مع تكاثر الأنفاس من حولي، وواصلتُ حتى اقتربتُ من بؤرة اهتمام الجميع، وقد ازدادت من حولها الأجساد التصاقًا. دفعتني نزوةٌ مفاجئة إلى تلمُّس قلب الدائرة، وذُهلتُ كلما اقتربتُ من كمِّ الميكروفونات المُشهَرة تجاهها تحمل شعارات قنواتٍ فضائية وأخرى إذاعية، ومواقع إعلامية!.

ألفيتُ الرجل اللامع الوسيم يتوسَّط قوسًا من الأجانب والمُتأنِّقين من فصيلته، يحيط بهم الصحفيون والمصوِّرون من كل جانب كملائكة العذاب، وترشقه أسئلة الشباب من كل زاوية، فيقابلها بابتسامةٍ متفهِّمة.. يسأل كل سائلٍ عن اسمه قبل أن يجيبَه، وينظر إلى عينيْه مباشرة..

انتهزتُ برهة سكوتٍ فصوَّبتُ سؤالًا مُكررًا كان أول ما تبادر لذهني، فنظر إليّ مستر ممدوح- أو الكاتب المرموق ساعتها- مُتمهِّلًا، وسألني عن اسمي.. أجبته باسمي ثنائيًا موسيقيًا، أملتُ أن يعلق بذهنه، وتأكّدتُ فيما بعد أنه علِق بالفعل..

بعد أن أجابني وحوّل عينيْه القويَّتيْن عنّي، شعرتُ أن ثمة فرصةً كي تلتقطني عدسة مصور أو عينٌ تتربصُ بوجه إعلامي جديد. ثم تردّدت، بعدما لاحظتُ كمّ الأجنبيات الفاتنات بلباسهن البسيط الذي لا يلفت

الأنظار عن جمالهن الطبيعي، وكذلك الفتيات ذوات السحنة المصرية الخالصة من عائلات الذوات، وقد اتخذن من الزينة الزاعقة ما يكفل لهن مُجاراة الأخريات..

كيف أنافس هؤلاء؟! هكذا تفكَّرت..

حسبتُ أنني بالكاد أقع في المنتصف، فلا يحمل وجهي تلك الطبعة المصرية الخالصة، ولا أمتلك مفاتح الجمال الأوروبي الخالص، كما أنني - بالطبع - أبعد ما أكون عمّن تحتكرن الجاذبية بسطوة المال! طالما تميّزتُ بملامحي الناعمة الجذابة، المُستمدّة من أصولي الأرمينية، ولكنَّ منافسة القسمات الأوروبية الخالصة شأنٌ آخر!.

تراجعت.. وعند كومةٍ مهرَّمة من نسخ الكتاب توقفْت. تظاهرتُ باهتمامٍ بالغ بالكتاب، ريثما تُجري معي إحدى المُراسلات أو المُذيعات حوارًا بصفتي إحدى قارئات الكاتب الشغوفات. جهّزتُ في خاطري الكلمات التي سأمطِر بها الفتاة ردًّا على الأسئلة النمطية، وأخذتُ أتصفَّح الكتاب الثقيل الأنيق، موليةً وجهي نحو مركز الأحداث والعدسات والأنظار..

ولكنّ شيئًا مما أمُلتُ فيه لم يحدث..

التقطتُ نسخة من الكتاب، وهممتُ بشرائه، إذ ربما أفيدُ من تجربة ذلك المُتأنِّق صاحب الجاذبية الغامرة، إلا أنني لمحتُ بعدها تلك المُلصقة الصغيرة التي وشت بثمن الكتاب! فتراجعْت.. بدا لي الثمانون جنيهًا ساعتها ثمنًا باهظًا لنصائح ذلك الأنيق، ذي البسمة الواثقة المُتعالية، كما أنني لم أملك المبلغ في حقيبتي، تلك التي حملت علامةً تجارية مُقلَّدة، مُنطفئة اللون!.

أعدتُ النسخة إلى موضعها الأول على قمّة الـهرم الـمُتدرّج، والتقطتُ نشرة إعلانية من أعلى كومة مـجاورة، هي صورة مصغَّرة من الـمُلصقة التي علَتْ واجهة الـمكتبة، وهي التي استقرت بعد ذلك على الحائط الـمُلاصق لسريري.

بـحثتُ وراء اسـم مـمدوح رحّال أينمـا تردَّد على مواقع الإنترنت، فإذا به يظهر لي في كل موضع!! أخبار الزفاف، الـمناسـبات الـهامة لـمشـاهير الـمجتمع، افتتاح الـمشـروعات السياحية الكبرى، لقاءات الوفود الأجنبية الاقتصاديـة، اجتماعـات الغـرف التجاريـة، نـدوات معـرض الكتـاب، محاضرات التنمية البشـرية، وكذلك احتفاليات نـوادي الليونز وقوائم كبار الـمتبرِّعين ذوي الأيادي السخيّة الـمعطاءة!.

تابعـتُ أخبارَه باسـتمرار، حتى شـاهدتُ صورًا في إحـدى الـمجلات لافتتـاح أحـدث شـركات مـجموعـة رحّـال التي يترأسـها رجـل الأعمال والـمفكـر التنموي الشـهير مـمدوح رحّـال، مصحوبةً بـمقال عن الشـركة الوليـدة فـي مـجـال الدعايـة والإعـلان، كما يتنـاول رحلة رجـل الأعمال الفذِّ مع الـمال والأعمال والتنمية البشـرية في ذات السـياق، ونصائحه التي اسـتفاد منها الكثيرون في تـحويل مسـارات حياتـهم من الفشـل والإحباط إلى تـحقيق الذات..

قرّرتُ سـاعتها، وعلى الفور، أن أقدّم أوراقي إلى شـركة مسـتر ممدوح الوليدة تلك، فمجال الدعاية والإعلان لا يـخلو من فرص ثـمينة لاكتشاف الـمواهب..

أعدتُ صياغة سيرتي الذاتية، وبالغتُ قليلًا- أو كثيرًا- في إبراز مواهبي وأنشطتي الجامعية والاجتماعية، وحتى الرياضية التي لم أقُم بها على الإطلاق.. بالغتُ أيضًا في حجم الصورة التي احتلَّت الركن الأيمن من ورقة السيرة الذاتية، فكنتُ أعلم أنها أهم ما أملك من مواهب، وتفوق جاذبيتُها ما تستدعيه فرصة عمل في مجال المحاسبة، الذي هو تخصصي الدراسي..

ولكنها آتت ثمارها على أي حال، فبعد وقتٍ ليس بالطويل تلقيتُ اتصالًا من الإدارة العامة لشؤون الأفراد التي تديرُ التوظيف في المجموعة، لتحديد موعد مقابلةٍ شخصية، أوصلتني بعد ذلك إلى مكتب سكرتارية مستر ممدوح شخصيًا، في هذه الشركة الجديدة!

وهل أفضل من ذلك؟!

* * *

أين نحن الآن؟!

هل هذه ترعة المريوطية التي قال راجي إني سأمُرُّ بمحاذاتها عندما أقتربُ من المكان؟

أرجو ذلك!. لن أسأل السائق بالطبع، فعندها سيتأكد من جهلي التام بالطريق، وربما تُراوده الأفكار الشريرة أكثر وأكثر!. ليس مُستبعدًا أن يدفعني حظي السيئ إلى حوزة سائقٍ عجوز، قرَّر أن يختم سجل حياته المزرية باختطاف فتاةٍ جميلة!!

استرها يا رب!..

اقترح راجي أن نتبادل هواتفنا الـمحمولة اليوم، حتى أستخدم تطبيقات هاتفه في تتبُّع الـمكان، على الـ(GPS)!

يظنني عبقريةً مثله، وسأتعلم هذه التطبيقات الغريبة فقط لأجل مناسبةٍ واحدة! التطبيق الوحيد الذي أُجيد استعماله هو هذه البخاخة بداخل حقيبتي، الـممتلئة بخليط الخل والكحول والشطة والفلفل والجنزبيل.. هذا هو التطبيق الوحيد الذي يُناسِب هذا الليل، وهذا الحظ السيئ، ويُمكن أن تتحامى به فتاة جميلة ووحيدة، وكاذبة مثلي!!

لِـمَ تركتني وحدي يا راجي؟.. سامحك الله!

ممدوح إبراهيم الآدم

على العَشاء، كنتُ على موعدٍ مع جلسة بروتوكوليَّة سمجة على المقعد المُجاور لرئيس الوفد المنظِّم للحفل. لا مفر من تمرير الوقت في تنشيط ذاكرة الردود الدبلوماسية، والتمرُّن على الإيماءات التي تُبدي اهتمامًا مُصطنعًا لا أجد في نفسي أثرًا له. لكنني أبَيْتُ أن أستسلم بشكل تام للموقف الجاثم على نفسي، فاصطحبتُ راجي كي أُجلسه إلى جواري من الناحية الأخرى، على المقعد المُخصَّص لسكرتير الوفد، ذلك الكائن الأحمر المُستدير الذي لا يجيءُ في موعده أبدًا، بل عادةً ما يختار مواعيد أخرى أكثر ملاءمة لمعدته السائبة على الدوام، والتي يحتاج لتفريغها قبل كل عَشاء، كي لا يمنعه مانعٌ عن إعادة ملئها عن آخرها من جديد.

جلس راجي إلى جواري، مُرتبكًا، مأخوذًا بالصحبة التي قدَّر لها حجمًا يتجاوز ما تستحق- هكذا نفعل عادةً مع الرجل الأبيض- خاصةً وقد فهم بذكائه أن المقعد مخصصٌ للأميركي الغليظ، الذي وقف يرمقهُ بحنق بعدما دلف إلى قاعة الطعام. تململ راجي في جلسته، فربَّتُّ على ساعده كي يستقر ثانيةً بعدما انزاح من أمامنا خيال السكرتير المُكتنز.

غرستُ الشوكة في جسد الكُبيبة المُلتهبة، وحملتها ببطء ونش بضائع إلى طبق راجي، الفارغ اللامع. فطنتُ أنه لم يأكل شيئًا منذ الصباح،

خاصة وقد أعلن بطنُه الغائر فراغه المؤلم بتأوُّدٍ سمعته، رغم الأصوات المُتداخلة التي امتلأت بها قاعة الطعام.

نظر إليّ مُتحرجًا وبادر بالاعتذار، فأنزلتُ الكُبيبة في طبقه بوكزة من سكيني وإيماءة مؤكِّدة، وأنا أقول:

- كُل.. كُبيبة الفور سيزونس ما يِتقالّهاش لأ أتخن كبسولة طاقة إيجابية في العالم. لولا اني عايز احتفظ بتفوقنا في أي حاجة، كُنت علِّمتها للأمريكان في محاضراتي..

رمقني مُمتنًّا وشرع في تقطيع الكُبيبة بارتباكِ مُبتدئ، فتفتَّتت أسفل سكينه، ألحقتُها بقطعة سمبوسك مبرومة الحافة مُنتفخة الباطن، واستدرتُ للجهة الأخرى كي أُخفف عنه حدة ارتباكه، وناولتُ جاري الرسمي عبارة رسمية أخرى من محفظتي البروتوكولية..

I'm truly delighted to welcome you here today, Mr. Quimby..

جذبتُ انتباه مستر كيمبي بعبارتي المُرحِّبة كي يتوقف عن متابعة راجي، فغمغم بشيء لم أتبيَّنه. عرضتُ عليه أن يتذوق المقبلات الشرقية فلم يُبدِ اهتمامًا، ولا شكرًا، فحدَّثتُ نفسي أن: يا ليتني ما اهتممتُ بهذا الغليظ، وأهَّبتُ نفسي لمقابلة ليلة عصيبة أخرى..

***

بيعَت بناية المنيل بعد رحيل أمي بسنوات، وبعد زواجي من همسة بعدة أشهر، في ذات الشقة الصغيرة الدافئة. اشتراها مقاول شهير شيَّد أغلب الأبراج المحيطة، والذي تربطه بعضو مجلس الشعب المهيمن

على الدائرة علاقةُ نسب معروفة، وكذلك شراكةٌ غير معلنة. أُشيع وقتها أنه سيرتفع بالمبنى دورَيْن إضافييْن، كي يُقيم لنفسه شقةً شاسعة من طابقَيْن، ربما ترى النيل من جديد بعد أن استحال ذكرى بائدة. ولكنّ ما حدث كان أبعد من هذا، فقد شرع المقاول ينقُدُ المُستأجرين القدامى مبالغ مالية مغرية، في مقابل إخلاء الشقق، ذات الإيجار القديم، أو يعرض عليهم شققًا بديلة في عمائره الحديثة ذات المصاعد والإنتركوم.

أحرز نجاحًا لا بأس به في غضون أشهر قليلة، لم يبقَ بعدها غير الدكتور نجدي جارنا في الطابق الثالث، ومكتب الأستاذ عرفة للمحاماة في الطابق الأرضي، ونحن. لم يبرح الأستاذ عرفة مكانه بالطبع، إلا بعد أن استلم عقدًا مُسجلًا لمكتب بديل على الميدان الرئيسي، كما أنجز تعاقدًا طويل الأمد مع عضو مجلس الشعب يخص خدمات استشارية وقانونية. أما الدكتور نجدي فلم يصمد هو الآخر طويلًا أمام تزايُد المبلغ المالي المرصود من قِبل المقاول، خاصةً بعد أن سافر ابنه الوحيد صوب منابع البترول كي يوقّع عقد عمل مغرٍ، عن طريق المقاول بالطبع..

وبقينا نحن..

رفضت همسة مجرَّد التفكير في إخلاء الشقة مهما كان الإغراء المالي، لقوة موقفنا القانوني ولأن الأمر ليس «بالعافية»، وشمَّرت عن ساعديْن دقيقيْن استعدادًا لمعركة قادمة مع المقاول..

اكتشفتُ فيها قوةً وعنادًا لم أُدرك مداهما قبل تلك الحادثة، فسُعِدتُ بموقفها كثيرًا، وتمسَّكتُ أكثر وأكثر بالشرفة التي وأدَتها الأبراج الصماء، وبالنباتات التي لم تمنع عنها الحصون الرمادية ضوءَ الحياة..

ثــم كان أن أُخطِرنــا بقرار الإزالة الصــادر من حي مصــر القديـمة، بناء علـى تقرير من لجنة الخبراء التي لــم نشــاهدها تقترب من الـمبنى قط. تـم إخطارنــا بإخلاء الـمنـزل قبل أن يُنفَّذ أمــر الإخلاء بالقـوة الجبرية. وددتُ لـو أننـي استطعتُ حـمـل أكثـر نباتات الزينـة معـي، على الأقـل، ولكنني اكتفيـتُ بـحمل ذكراها كما حـملتُ ذكرى النيل الـهادئ الرزين، طيلة هذه السنوات.

أصـرَّت هـمسـة علـى تـحريـك دعـوى قانونية ضـد الـمقـاول، وضد لجنة الخبراء، وضد عضو مـجلس الشـعب لشبهة التضامن، ولــم تستجِب للعـروض الـماليـة التي سـاقها إلينا الـمقاول عبر سـبلٍ غير مباشـرة مقابل التنازل عن الدعوى، رغم أن الـمحامي الذي اصطحبنا إليه شـريف أكد لنا أن القاضي لن ينظر الدعوى أغلب الظن، وأنه سيكتفي بالاطلاع على تقرير لجنة الخبراء.

ثــم بعـد أن رحلت هـمسـة، قبلـتُ بالـمبلغ الـذي عرضـه الـمقاول، وتنازلــتُ عـن الدعـوى كي أوقـف نزيف ما تبقـى من حياتي، بعـد أن صار الـمبلـغ أقل كثيـرًا مـما حصل عليه الـمسـتأجرون من قبـل، وبالتزامن مع تنازلي عن حلم الكتابة.

***

أتفكَّر أحيانًا فيما كان سـيحدث لو أنني قرَّرتُ أن أثور ضد ما كنتُ أراه ظلمًـا، بعـد أن اختُطِفت مني هـمسـتي، وحلمي، في لحظـة خاطفة تجلَّت فيها قوى الرأسـمالية التي تُـهيمن على العالم، فعلًا وفكرًا..

لـو كنتُ فعلتُهـا، وأعلنتُ رفضي لذهابـهما بـهـذه الطريقة، لـمجرد أن الصدفة دفعت بـهما نحو نقطة حدودية بين الحياة والموت، دون أن يـملكا ثـمن تأشـيرة العودة إلـى الحياة، لو كنتُ فعلتها، ووقفتُ أمام سـطوة رأس المال وقانون الـمِلكية الـمقلوب رأسًا على عقب، لو كنت!..

بعد تفكيرٍ أخلص إلى أنني، لو كنتُ فعلتها، لكنتُ قد سجلت اسـمي في قوائـم ليمان القلعة أو أبي زعبل؛ مكان قد يكون مناسبًا للكتابة واستنهاض الحلم.. هذا كل شيء.

نعم، آثرتُ السـلامة وقتها، وابتعدت.. أيقنتُ أنني لستُ من أولي العزم مـن الرسـل، وأنني مجرد واعظ أو مرشـد ينير الطريق؛ هكـذا كنتُ أتـخيل نفسي ساعتها، بسذاجة بائسة.

قـرَّرتُ أن أُقاوم الجور بـمزيد من تعليم الآخرين قيمة الإنسـان، وقيمة أن يُـدرك قدراتـه الكامنة على صنع الفارق، على قيـادة العالـم نحو التغيير، لو ركَّزنا جهودنا على ذواتنا لبعثها من جديد.

هجرتُ تدريـس الاقتصاد، وتخصصتُ في التنمية البشـرية والتدريب؛ مجال لـم يسـتلزم وقتها أي نوع من التأهيل الخاص، ولا شهادة تخصصية، ولا ترخيـص لمزاولـة المهنـة. اكتفيـتُ بـمقدرتـي علـى تحفيـز الآخرين واسـتمالتهم نحو الأفضل. مضمار جديد، حسـبته يتيح لي التأثير في أوسع قاعدة محتملة من البشر - باستثناء ما يُـتاح للساسة ودعاة الدين - واستطعتُ أن أبرع فيه حتى ذاع صيتي، وبلغ كبرى المؤسسـات والشركات ومنظمات العمل الأهلي. كل من كان ينشـد التغيير في أي مُنشـأة - في مصر أو ليبيا أو

دول الخليج- أيًّا ما كان مجال عملها، صار يسمع بممدوح الآدم، رائد التنمية البشرية والذاتية في الإقليم. أحرزتُ ثروةً في غضون أعوام.

ثم واتتني الفرصة كي أُوجِّه ضربةً سلميَّةً وإنسانيَّةً كبرى للرأسمالية المتوحشة، ذلك عندما تغيَّرَت إدارة المستشفى الذي قتل زوجتي- وكائنًا رقيقًا كان ينبض بداخل أحشائها- وطُلِب مني أن أُلقي سلسلة محاضراتٍ على مُختلف أطقم العمل في المستشفى، كجزء من عملية تطوير استراتيجي وتغيير شاملة. سعدتُ بالفرصة، وذهبتُ للقاء إدارة المستشفى، فإذا بي أروق لهم لدرجةٍ أن يعرضوا عليَّ المساهمة في رأس مالٍ إضافي، سيطرحونه من أجل إجراء توسعات كبيرة في مؤسستهم العلاجية.

وافقت، ثم انضممتُ لاحقًا لمجلس الإدارة، وبدلًا من أن أُصبح مُحفِّزًا لعملية تغيير واسعة النطاق في عقل وقلب منظومتهم العلاجية، كي تصبح أكثر إنسانية ووعيًا بحقوق البشر، صرتُ مشاركًا في دعم قرارات الإدارة الرأسمالية، التي تستهدف الأرقام لا المبادئ، وتضخ الدماء في أرصدةٍ لا قلب لها، ولا مجال في التعامل معها لسطحيتي القديمة، البائسة..

غدوتُ رأسماليًّا من فصيلة الأغنياء، أتغذّى على الأرقام وأربو بنمو الأرصدة..

استبدلتُ مجمل مبادئي بمبدأ وحيد، يرتكز على الصيغة «كم» عوضًا عن «كيف».

ثم تأكد لي مآلي، بعدما استضافتني مؤسسة أميركية كبرى، وكرَّمتني بصفتي رائد التنمية البشرية في العالم الثالث، بل ومنحتني دكتوراه فخرية

بصفتي «رمزًا» من رموز التعليم والتدريب غير المُقدَّرين في رقعتي البائسة من العالم، ثم كوَّنوا لي فريقًا بحثيًّا معاونًا، كي أتفرغ أنا لتعليم الغير بينما يعمل أفراد الفريق على نقل «علمي» و«تجربتي» لعالمي الرجعي، في كتب فاخرة الطباعة، بالعربية الفصيحة التي هجرتُها منذ سنوات!.

تحوَّل اسمي إلى ممدوح رحال- مُفصِحًا بذلك عن قطيعةٍ نهائية مع الماضي- بسبب كثرة ترحالي شرقًا وغربًا، وكانت مهمتي شبه الوحيدة هي أن أضع هذا الاسم بلونٍ برّاق على أغلفة الكتب الفاخرة بعد أن أقرأ محتواها، إذا رغبت، كي تُطرح في الأسواق العربية العطشى لهذه المعارف، تحت عباءة دار نشر تابعة للمؤسسة الأميركية التي كفلت موهبتي، مع اسطوانات مُدمجة تحمل اسمي الجديد وصورتي، ما فكَّرتُ يومًا أن أطَّلع على محتواها..

سرعان ما توالت الطبعات، وتدفَّقت الأموال على المؤسسة، وعليَّ، وصرتُ عَلَمًا دوليًّا في التأليف والكتابة؛ كتابة تختلف كثيرًا عما حلمت به زمنًا.

وهكذا دأب الرجل الأبيض في اكتشاف الذهب في كل زمان ومكان، كلما حلَّ في البلاد التي أبدًا لن تُدرك قيمته، ولا ستعرف طريقةً لبيعه!..

***

توطَّدت علاقتي بالمؤسسة الأميركية، واتَّسعت مساحة الثقة في إمكانية تحقيق مصالح مشتركة بيننا. رعوا موهبتي المُتنامية، وأتاحوا لي الفرصة تلو الأخرى لاستثمار إمكاناتي العلمية والمالية، فتحرَّرتُ بذلك

من سطوة شركائي المصريين، واتَّسعت دائرة علاقاتي بشكل لم أتصوَّرهُ ممكنًا. مع الوقت، صرتُ مُمثِّلهم شبه الرسمي في جميع أعمالهم في الإقليم، والمسؤول الأول عن تأسيس الشركات، وعن توظيف الأفراد، حتى إنني استطعتُ أن أنتشل صديق الماضي شريف من عثرته، بتوظيفه في منصبٍ استحدثتُهُ خصيصًا لأجله- مدير البرامج المعنوية- وآمل أن يجد الليلة الفرصة أخيرًا لإثبات موهبته الترفيهية، ويُسدي نفعًا حقيقيًّا للمؤسسة الكبرى، التي انتشلتهُ من تحت أنقاض مسرح الدولة، ومنحتهُ حياةً جديدة.

***

في إحدى زياراتي لأميركا- بهدف التعاقد مع المؤسسة على نشر مجموعة جديدة من الإصدارات- دعاني السيد مارك ويزلي مُمثِّل المؤسسة لعشاء عمل في مطعم كوينس في سان فرانسيسكو. تحدَّثنا كثيرًا، وأكلنا أكثر، وبعد أن أنزل النادل المُتجمد، الذي تحرَّك كإنسان آلي، أطباق الحلوى المتجمدة مثله على الطاولة، بادرني السيد ويزلي باهتمام بادٍ على ملامحه الممتلئة:

- أريدك أن تُشير عليّ في أمر هام سيد آدم.

- بكل سرور سيد ويزلي.

- ليس قبل أن أطمئن إلى إعجابك بآيس كريم القرع بالزبدة وصوص الشيكولاته، المفضل لديّ.

- سيُعجبني بالطبع، سيد ويزلي. أبدًا لم تخطئ لي الاختيار من قبل. أرجو أن نُصيب معًا هذه المرة..

بعد الطعام فاتحني فيما أراد أن يستشيرني بشأنه؛ المؤسسة ارتأت أخيرًا أن تُنتج برنامجًا تلفزيونيًّا تنافس به برامج «الحقيقة» التي أخذت تنتشر في الآونة الأخيرة، وصارت ورقة الإعلام الأعلى ربحًا والأقل مخاطرةً.

سألته:

- أي نوع من البرامج؟

قال إنه يعني تلك البرامج المُشوِّقة التي يتابعها المشاهدون على الهواء مباشرة، يتفاعلون مع شخوصها، وينفعلون لصالحهم. شيء من الدراما، لحظات من الانفعال، أو ربما البكاء، قصص مؤثرة عن ماضٍ أليم، هكذا تكتمل الخلطة السحرية، وتُفتح الخطوط لتلَقّي دعم الجمهور المتعاطف في كل مكان، عبر رسائل الهاتف.

شرد ذهني بينما يسرد لي تفاصيل هذه الصناعة، واستحضرتُ صورة الأميركي النابغة جراهام بيل.. تُرى هل تصوَّر أن تنتقل عبر تموُّجاته الكهربائية الهيِّنة كل هذه التدفقات الهائلة من الأموال؟! كان الأجدى بك يا صديقي العبقري أن تحتكر أفكارك لصالح شركة تليفونات بيل، التي أسستَها فور تسجيل براءة اختراعك، فقد خسِرَت رُفاتك الكثير من الأموال منذ توفيت!.

عدتُ لحوار السيد ويزلي وهو يطرح عليَّ بعض الأفكار التي نتجت عن عصفٍ ذهني عنيف، جرى قبل يومَيْن في اجتماع إدارة المؤسسة مع فريق الإبداع الإعلامي الذي يعملون معه.

كنا نبحثُ عن فكرة جديدة، غير مسبوقة، صارخة الدراما، تجوب العالم بأسره، تحطُّ كل عام في أحد البلدان.

أخيرًا، طرح عليَّ الفكرة التي توصلوا إليها نهاية الأمر وقال- مُجاملةً- إنه يسعى للحصول إما على دعمي لها أو تعديلاتي في شأنها، بصفتي مستشارًا للمؤسسة في جميع ما يخص إقليم الشرق الأوسط، رغم أنه أبلغني ونحن نغادر المطعم- وبعد أن اطمأن إلى استسلامي للتعليمات الجديدة- إن الفكرة قد نُفِّذت بالفعل في أعوام سابقة في أماكن أخرى من العالم، وأنها بيعَت بالفعل، حصريًّا، لحوت الإعلام الأزرق في القرية العالمية الواسعة؛ تلك المحطات الكبرى التي تُذاع ساعات بثِّها في أغلب بلدان العالم التي تستقبل أراضيها إشعاع الأقمار الصناعية ليل نهار، بأغلب لغات العالم..

أكد لي أن البرنامج الذي خطَّطت المؤسسة لإنتاجه يختلف عن النمط المُعتاد لهذه البرامج. هي مسابقة واحدة، في ليلة واحدة، تُذاع مرةً كل عام على القناة الترفيهية التابعة للحوت الإعلامي، لارتباطها بعيد الهالوين الشهير الذي يزداد هوس العالم به سنةً وراء سنة. يُتابعها صفوة الجمهور في بلدان العالم المتقدم، فهو الأكثر شغفًا بهذه المناسبة، ولا ينبني اهتمامه على التعاطف مع المشاهدين فحسب، بل على الرغبة في التحكم في مصائرهم. أما البلدان المُستهدفة لإقامة المُسابقة فهي عديدة؛ الهند، البرازيل، بولندا، أيرلندا، جنوب أفريقيا، مصر، وغيرها الكثير.

فائز وحيد في كل مرة، وملايين الجماهير في كل مكان.

هكـذا وُلِـدت «دسـتينو» قبل أعـوام، وهكـذا وصلتُ إلـى موقعي هذا اليوم!.

لحظات ويبدأ السباق..

الـموعـد الـمُقرَّر يدنو نـحونا كقطـار إنـجليزي، ولن يؤخرهم عن بدء الحفل في موعده شيء، فهم يُقدِّسون الـمواعيد أكثر مـما يـحترمون البشر، أكثـر من أطنان القمح التي يُغرقونـها في الـمحيط، أكثر من حيواتٍ تُزهِقها نفاياتـهم النووية، أكثر من حياتي وسطهم ومن رجائي إليهم.

أنا..

ذاك التـرس الصغيـر فـي ماكينة الـمـال والأعمـال التـي يُديرونـها، أو بالأحرى التي تُديرنا جـميعًا.

فليبدأ الحفل إذًا، لا فرق عندي.

سأضع لباسي التنكُّري، وأحصد الثمن.

الحــلَبَة

أمل معاطي عبد المعبود

دلفتُ أخيرًا عبر فرجة ضيقة في زاوية البوابة الأسطورية، سرعان ما أغلقها من ورائي الخفير النوبي أليف الملامح حاملًا كيسي البلاستيكي، فأصدر الباب الحديدي صريرًا ممطوطًا مرعبًا، كأنه تأوُّد غولةٍ خرافية..

وجدتني في حديقةٍ ممتدة كبحر، تحت سماء منطفئة إلا من نجمات باهتة مترددة، وقد أنيرت الممرات بمصابيح برتقالية صغيرة اتخذت شكل القرعة المفرَغة المفزِعة، ينبعث الضوء من عيونها المثلثة ومن حنكها ذي الابتسامة الساخرة..! في الأفق يتلاعب ضوءٌ باهرٌ متقلب الألوان، فيجوب أرجاء الحديقة المترامية هاتكًا ستر الظلام فوق مساحةٍ تلو الأخرى بشكلٍ راقص، فيتجاوب مع رقصته الغجرية دخانٌ أبيض ينبثق من أركانٍ غارقةٍ في الظلمة، تدعمه شعلات نارٍ متراصَّة في خط مستقيم، تتصاعد في دفقاتٍ متقطعة كأنها من منخار تنّين، فتحاكي إيقاع الموسيقى الغربية الغريبة التي تصدح من المجهول..

ذكرتني تلك الأجواء بالمسرح، أو بما كنتُ أتمنى أن أجد في المسرح، أيّ مسرح، أيام كان حلم المسرح ممكنًا، قبل أن يعقم في حياتي رحم الأحلام..

اااه، أيام.

▪ سِرتُ في الظلام لاهث الأنفاس، أتعثر في الغربة والاستغراب..

شـرد عقلـي يتسـاءل عن دكتـور مـمدوح. تُـرى أين هـو الآن؟ هل من اللائـق أن أبـحث عنه وأشـغله عـن ضيوفه الأكابر ذوي الشـأن؟ من أنا كي يهتم باستضافتي وتقديـمي إلى سائر الـمدعوين؟!

بعـد تفكير فطنـتُ أن الأفضل ألا يلاحظني الدكتـور، فأنا ومن هم على شـاكلتي عوّدتنا التجارب أن الأفضل دائمًـا ألا يلحظكَ أحد. من الجائز أن يُلحِقني بسـائقي سـيارات البكوات خارج أسوار الفيلا حتى يـحين البوفيه، فأشـاركهم الطعام هناك.. ماذا لو فعلها؟! ثـم ماذا لو وجدتُ الخفير النوبي الـمسـالـم يغُـطُّ فـي نومٍ طار بـه عائدًا نـحو الجنـوب، بعد أن ألقـم البوابة الـملعونة آخر الـمدعوين، الذي هو أنا..! هل ألحقُ بسائقي البكوات بـهذا الزي الـهزلي!! ثـم حين يسـألوني عن اسـمي، أقول لـهم: أمل! هنا تتفجر الضحكات، وترتفع فوق ضجة الـموسيقى الـموتورة بالداخل.

لـن تكـون الـمرة الأولـى التـي أُضحِك فيها النـاس من اسـمي أو من هيئتـي، ولـن تكون الأخيـرة أغلب الظن. كنـتُ أسـتمتع بإضحاكهم عامدًا متعمِّـدًا في السـابق، مـع فريق التمثيل، أيـام كنت لا أزال أعمـل في الإدارة العامـة للصيانة في مؤسسـة مصر للطيـران، قبل أن تتفكَّك الـمؤسسـة إلى مراكز ربح، وتتشرذم معها فرقة التمثيل. أما اليوم، فلا أجدُني أهلًا لـمواقف هزليةٍ كتلك، خاصة هذه التي تتسم بالجدية التامة بعيدًا عن خشبة الـمسرح. لـم يعُد هناك خشـبة منذ زمن بعيد، ثـم منذ زمـنٍ أقرب قليلًا لـم يعُد هناك مسرح، ولـم يبقَ من التـمثيل إلّا ما يتعايش به الناس فيما بينهم..

لماذا تنتهي صلاحية الأشياء القليلة الجميلة في الحياة أسرع من غيرها بكثير؟!

قلتُ لنفسي: ربما استدرجوني إلى هنا كي يجعلوا مني أضحوكة حفلهم المُزعج المظلم! شعرتُ بكم هائلٍ من السذاجة يقتحمني، بعدما فتحتُ لهُ الباب بنفسي.

أين أنت من هؤلاء يا أمل، أين أنت؟! تحدَّث صوتي الداخلي بلهجةٍ مستوحاة من سوقيّة أم إسلام. ثم لم ألبث أن هدأْت، حينما لفَتَني صوتٌ حريريٌّ جاءني من عالم آخر..

- من فضلك تمضي أوتوغراف الحضور..

التفتُّ كي أجد شبحًا باهر التناسق يتحرك في الظلام، باعثًا أريجه الساحر المثير في كل الأرجاء.

- أفندم؟!

سألتها، وقد ارتمى انعكاس الضوء المجنون لبرهة على جانب وجنتها اللامعة، فاستطعتُ أن أميز قناعًا بنفسجيًّا متلألئًا يُواري أعلى وجهها المثير، إلا عينيْها الآسرتيْن اللتيْن أنسوني ندمي على المجيء قبل ثوانٍ.

- فيه أوتوغراف عايزة حضرتك توقع عليه.. «جِسْت بوك»، مكتوب عليه صيغة تذكار بالإنجليزي، معمول عشان الضيوف يوقَّعوا فيه. تسمح حضرتك؟

علّقَت كفّها الشمعي في الهواء، بأصابع معقوفةٍ كأصابع الحواة، وأظافر مصقولةٍ براقة مؤطرة الحواف بطلاءٍ بدا فضيًّا مع أشعة الضوء التي تجوب

الفضــاء. لــم أفهم ما تريده الحسـناء مـن إيـماءتـها تلـك، فالتقطتُ أناملها البديعة وانـحنيتُ كي ألثمها، ولكنها ضحكت ضحكةً موجزة تفجرت لـها آبار بترولٍ في باطني، وسـحبتني من يدي برفقٍ وهي تـخطو بثقةٍ لا تُناسـب الظلام الدامس الذي سرنا في أسره، وكلما مررنا فوق بلاط الـممرات التي تـخترق النجيلة السمراء علا نقر كعبيْها الدقيقيْن في إيقاعٍ مثير..!

تُـرى كيـف سـتبدين يا أم إسـلام لو جربتِ حـذاءً كهذا؟! لا شـك أنكِ ستتبخترين بردفيْكِ الـهلاميَّيْن كسقاء يـحمل قربًا تتقاطر منها الـمياه!!

أمام منضدة مكتنزة يكسـوها مفـرش برتقالي مؤطر، توقفت الحسـناء. ناولتنـي قلمًـا أسـود أنيقًا، وقدَّمت لـي أوتوغرافًا في حجـم صحيفة يومية، امتـلأت صفحاته عن آخرهـا بإمضاءات الـمدعوين أسـفل عبارة الترحيب الإنـجليزي الـمُتأفِّف، بأحرف أنيقة مُتشابكة. طلبَتْ مني الحسناء أن أسطر بـخطٍّ دقيق اسـمي الثلاثيدون غيره. مرَّت برهةٌ قبل أن أسـتطيع الإمسـاك بالقلـم بقفـازي اللعين، وبرهةٌ أخرى كي أجد مسـاحةً أنقش عليها اسـمي تـحت سديـم الظلام، تـخللتها دفقاتٌ مفاجئة من الضوء الـمبهر الـمتلون. دعوتُ الله ألّا تلمح الحسـناء اسـمي الـمثير للشفقة مع خطفةٍ من خطفات الضوء الـمفاجئة، كي يدوم احتفاؤها بشـخصي أطول زمن مـمكن. مددتُ إليهـا يـدي بالقلم، ولكنهـا حطَّت ورقـةً أخرى فوق صفحـة الأوتوغراف، وأومـأت كـي أوقعها كذلـك. وجدتُ مُتَّسـعًا في الورقة هـذه المرة، ورغم ذلـك سـارعتُ بنقش اسـمي بخطٍّ دقيقٍ كي لا يبين. سـرعان مـا وجدتـها تشـكرني وتوجهني بإشـارة من يدها البديعة نـحو البوفيـه الـمفتوح، الذي لـم أتبينه قبل هذه اللحظة.

إذًا فلن أشارك السائقين الطعام خارج الأسوار! هكذا طمأنتُ نفسي.

شعرتُ ساعتها أن الحظ قد فاته أنه زارني منذ أسابيع، فجاء ليعوضها! أو ربما اختلط عليه أمري لتنكري في زي هزلي توارت وراءه هيئتي الرثة.. شعرتُ بامتنان عميق لصلاح أن هيأني على هذا النحو لهذه المغامرة المفعمة بالنشوة، وتمنيتُ لو تعاود الحسناء محادثتي ولو لمرة، لأي سبب آخر..

وجدتُ أغلب المدعوين متحلقين حول البوفيه في أزيائهم التنكرية الغريبة، وقد اصطفوا أمام صنوفٍ لا نهائية من الأطعمة وفواتح الشهية. تقدمتُ نحوهم مأخوذًا بالمشهد، فاعترضني نادلٌ يرتدي سترة رسمية سوداء، وقفازًا قطنيًّا أبيض، يحمل صينية براقة ارتصت فوقها عشرات الكؤوس الكريستال الأنيقة.

- تشرب إيه سعادتك؟

ألجمتني المفاجأة، ولكنني تمالكتُ ذاتي المهترئة كما نفعل على المسرح إذا أخطأ أحدنا، وسألته:

- عندك إيه؟

- شامبانيا سعادتك.

خمر؟!

سارعتُ بنفي التهمة عن نفسي:

- لأ ألف شكر، أنا ما باشربش!

داهـمني بإجابة غير متوقعة على الإطلاق..!

- الشرب ضروري سعادتك.

- يعني إيه ضروري؟! أنا ما باشربش خـمرة!

- سـعادتك لازم تشـرب تحية اسـتقبالك، ده نظـام الحفلة، الشـامبانيا كويسة قوي، وخفيفة.. اتفضل.

قالـها بـحسمٍ يشوبه لطفٌ مصطنع..شعرتُ بكلماته الـمتلطفة تـخترق مسامي، فتبعثُ فِي باطني شعورًا عميقًا بالإهانة والإذلال.

كيف يكون الشـرب ضروريًا إذا لـم يصادف في نفسـك رغبةً فيه؟! مال هؤلاء كيف يـحكمون...

تلقفتُ الكأس متوجسًا، منقبض الصدر. رفعتُ القناع وسكبتُ مـحتوى الكأس في جوفي دفقةً واحدة، مُستسـلمًا لطعمه السـقيم اللاذع،ثـم أعدتُ الكأس إلى حيث كان، وابتعدتُ عن النادل شاعرًا بنظراته تلاحقني..

أين أنتِ يا أم إسلام كي تشهدي سقوط زوجكِ الـمخزي، تـحت وطأة الكعوب الدقيقة وسترة النادل الأنيقة..

اللهـم اغفـر لعبـدك الضعيـف أمل معاطـي عبـد الـمعبود زلَّتـه، بـحق بـراءة وطهـارة ولده إسـلام، وعفة وصبـر زوجتـه أم إسـلام، ذات الردفيْن العظيميْن..!

راجي مدحت بيومي

أنـهيتُ مُتابعتي لأطقم العمل عندما قنعتُ أنـها فرَغَتْ من معظم مهامها. كان الـمغرب قد أوشك. أدّيتُ صلاة العصر التي كادت تفوتني على عجل. مارســتُ تـمارين الطاقة بـلا رغبةٍ حقيقية ولا تركيز. ثـم التحقتُ بـستيفن عند الـمسـرح الـمواجه للحديقة الـمُترامية. كانت البرودة قد تسـلّلت إلى الأجواء مع انـحسار الضوء. عزّزتـها نسائم الـمساء بـجديةٍ أكبر. ارتـميتُ بـجوار ستيفن مُستسلِمًا للإنـهاك. رمقني بابتسامةٍ ودودٍ مُعتذِرًا عن انشغاله. استمر في نقر لوحة مفاتيح حاسوبه الـمحمول لدقائق أخرى، حتى نقر نقرةً أخيرةً حادة الصوت. زفر مُعلنًا فراغه مـما يفعل. تطلّعتُ نـحوه مُسـتفهمًا، دون اهتمامٍ حقيقي، فأطلعني على الشاشة. أوضح لي إنه كان يرسل إيـميلًا لإدارة شـركته. يـخبرهـم بـمـا أتـــمَّ فريقُه إنـجـازَه من عمـل. يرفقه بصورٍ التقطها لـمنصّة الإطلاق وإجراءات التأمين التي اتـخذها، وأجهزة الاتصال اللاسلكي والتشغيل عن بعد التي تركها على وضع الاستعداد. قال أيضًا إنه أرفق صورةً التقطها لنا معًا، كي يـخبرهم لاحقًا عن صديقه الـمصري الذي عاونه في بعض مراحل العمل.

أعجبتني بسـاطته، وصراحته الأميركيـة الخالصة. ابتسـمتُ مُـمتنًّا وأنا أشـعر بالنشـاط يتدفق لحواسـي من جديـد. نظرتُ إلـى عينيْه العسـليتيْن، وقلت:

- أعِرني حاسوبك قليلًا.

ناولنيه بترحاب، فأنزلتُ جميع «الشبابيك» المفتوحة على الشاشة كي أستطلع الـ(desktop)؛ هوايتي المُفضلة ومفتاحي لمعرفة الشخصيات. عادةً ما أفعل ذلك خلسةً بينما أقوم بإصلاح عطلٍ ما أو إجراء ضبطٍ على أجهزة موظفي الشركة، خاصة الشخصية منها، مما يتيح لي أن أعرف شيئًا يسيرًا أو كثيرًا عن كل شخصٍ في محيطي. صدَق من أسمى شاشة الحاسوب الأساسية، حيث تُرتَّبُ الأيقونات الهامة: (desktop)؛ أي سطح المكتب. الوظيفة واحدة. طريقة تعامل المرء معها هي ذات طريقته في التعامل مع سطح مكتبه الفعليّ. من مراقبتي لكليهما أُكوِّن صورةً دقيقةً عن الشخص صاحب الحاسوب.

هذا ما شرحته لستيفن، بعدما أذهلتُه باستنتاج بعض ملامح شخصيته، بمجرد النظر لسطح المكتب على شاشة حاسوبه؛ صورة فتاة صغيرة السن، رقيقة الملامح، ذات بشرة سمراء وشعر داكن أملس، يختبئ نصفُ وجهها الأسفل خلف قصاصة جريدة مُهترئة الحواف، ولا توجد إلا ثلاث أيقونات فقط على الطرف الأيسر من الشاشة. اختيار غير تقليدي بالمرة لخلفية شاشة. رغم ذلك، أوحت لي الصورة ببعض مفاتيح شخصية ستيفن: شفقة، رِقَّة، تستتران خلف غموضٍ إنساني.

شرد ستيفن لبرهة، ثم قال إن الأمرَ مُبهرٌ بالفعل، وإنه لم يفكر في إمكانية ذلك أو تداعياته قبل هذه اللحظة. استثمرتُ حالة انبهاره تلك. استعرضتُ أمامه تجربتي مع موظفي الشركة. أجلس على مقاعدهم الوثيرة

الـمُتّسعة أحيانًا، أو الضيقة الـمُتقلقِلة أحيانًا. أشعر بـما يشعرون. أشاهد ما يشاهدون. أرقب صور ذويهم في إطارات مُتفاوتة الحجم واللون والطراز. أرمق أشياءهم الـمرتبة بعناية، أو الـمبعثرة بعشوائية على سطح مكتبهم. أعرف عنهم أكثر مـما يتصوَّروا. أتنشّقُ مشروبهم الصباحي الـمفضل. يـمتص جسدي دفئًا سكبوه على مقعدهم. أشعر بـحرارة أجسادهم وثقل وجودهم، ثـم أتطلع إلى الـ(desktop). تحكي لـي تفاصيله الكثير عن أصحابه وعن حيواتهم. صورة الخلفية، ملفات القرآن، صور بابا الكنيسة الراحل، الأبناء، نـجوم السينما الـمفضلين، فتيات بلباسٍ مثير، إشعارات تذكيرية. أحيانًا، أعرف مستوياتهم في ألعاب الكمبيوتر أيضًا.

رمقني ستيفن بابتسامةٍ مُشِعّة، ومشدوهة، وأنا أناوله «مفاتيح الشخصيات» التي يـمكن أن أجدها مُتناثرةً على أسطح الـمكتب.

أيقونات كثيرة: شخص غير مرتّب، ارتجالي، ربـما ينقصه إحساس بالأمان، وسرعان ما يفقد تركيزه.

أيقونات متساوية على الجانبيْن: شخصية تسعى إلى التوازن والتناسب والترتيب، تتجنّب الـمواقف الـمُتأزمة، وتبتعد عن الـمُعضلات.

صفوف عديدة من الأيقونات: شخصية تـميل إلى إتاحة الأشياء أمامها بسهولة، والحفاظ على مفردات حياتها في متناول يدها، تـحت السيطرة، وإن بدت غير مرتّبة.

صورة لإنجازات سابقة: شخصية نرجسية، تـميل إلى الظهور وتستجيب للإطراء، منصبّة على ذاتها في أغلب الأحيان.

صورًا شخصية: شخصية تضع أولوياتها الأهم في الصدارة دائمًا، كانت هذه الأبناء، أو الاتجاه السياسي أو الديني، أو ربما الأصدقاء في حالة الشخصيات ذات الشعبية الجارفة.

خلفية زرقاء فارغة: هذه شخصية غامضة. مُنغلقة. تميل إلى الاحتفاظ بخصوصية حياتها الشخصية قدر ما تستطيع.

جالت خلف عينَي ستيڤن أفكارٌ تمتصّ التركيز. جعلتهُ يرمقني بنظرةٍ غائبة تمامًا. أخيرًا قال:

- لحظة، لا تُكمِل الآن..

استخرج هاتفه المحمول وشرع يعبث بشاشته وهو يشرح لي الأمر. أرسل رسالة لصاحبته يطلب منها أن تلتقط صورة لسطح المكتب على حاسوبها الشخصي، على أن تبعث إليه بها في الحال على الإيميل. شُرِرت لحماسته. سرت إلى نفسي فألهبت حماستي. رُحت أرسم سيناريوهات لما يمكن أن يُنبئ عنه سطح مكتب صديقة ستيڤن من ملامح شخصيتها. تساءلتُ إن كنت أستطيع الحفاظ على انبهاره الذي أحرزتُه منذ قليل.

استجابت صديقته سريعًا. تلقّى ستيڤن إيميلًا جديدًا منها بعد دقائق. جذب من بين يديّ الحاسوب كي يستطلعه. بدأتُ أرتِّب في ذهني بعض مُبررات فشلي في تحليل شخصيتها. ربما أتحجَّج بأن الأيقونات التي تستخدمها أو الصور التي أتوقع رؤيتها تنتمي لثقافة أجهلها ومجتمع لا أعرفه، فسيكون فك رموزها صعبًا بالنسبة لي. ولكني، بعد برهة تفكير،

قلتُ لنفسي إنني سأنجح. سأبهره مرةً أخرى، وبدرجة أكبر. إنني ليس عليّ إلا أن أمارس تنفّس الطاقة، باهتمام وتركيز هذه المرة. عندها، أصبحُ جاهزًا للجولة الجديدة.

ناولني الحاسوب مرة أخرى. على شاشته ظهرت صورة سطح مكتب صديقته. أومأ بيدَيْه أن: تفَضّل بالشرح. جمعتُ خيوط تركيزي في قبضةٍ مُتماسكة. شددتُ قوس خيالي أستعد لأفضل رمياتي، بينما أرمقُ الصورة. مشهد زهري ناعم. صحراء شاسعة على ما بدا. يمرق في الخلفية سرب من جِمالٍ بيضاء، أو ما يُشبه حيوان اللاما. شمس قرمزية شفافة تذوب في الأفق. تُغادر المشهد بشفافيةٍ بالغة التأثير. سطح مكتبها خاوٍ تمامًا من أي أيقونات، بخلاف «سلّة المهملات» و«حاسوبي»، والصورة الحالمة. لا أيقونات أخرى. ليس إلا اختصارات البرامج الأكثر استخدامًا في الشريط السفلي؛ (SKYPE , MOVIE MAKER) ، حظك اليوم لبرج الميزان، وأيقونة أحدث نسخ الويندوز على الإطلاق، لم تُطرح للاستخدام الشخصي خارج السوق الأميركية بعد.

إما أن صديقته هذه غامضةٌ إلى درجة غير مسبوقة، وهو ما لا يتفق مع الخلفية الحالمة الرومانسية، وإما أن الجهاز حديثٌ جدًا، لا أكثر. رجّحتُ التفسير الأخير. دعّمه برج الميزان الذي لوّح نحوي أسفل الشاشة بالمؤامرة كاملةً. الراجح أنها اقتنت الجهاز منذ أيام لا أكثر، فلم يمتلئ سطح مكتبها بالأيقونات بعد. الأرجح أن الجهاز ليس إلا هدية عيد ميلادها الذي وقع منذ فترةٍ وجيزة، مع نهاية برج ميزان. قد يكون هديةً من ستيفن نفسه.

- بكم اشتريتَ لـها هذا الحاسوب؟

هكذا سـألتُ سـتيفن. رَنا إليّ بذهوله الفطري. فسَّـرَت لي عيناه سـبب حـماسته الجامحة قبل قليل. أكملتُ واثقًا من مهبط ضربتي القاضية:

- هدية عيد ميلاد لا بأس بـها أبدًا، من شخص كريـم مثلك.

ظل يرمقني باستغراب هكذا، حتى تـهادت إلينا بوادر موسيقى الـهاوس من بعيد.

* * *

سلب لُبّي مشهد الغروب. أثار في قلبي حنينًا لداليا. كان الغروب ظهيرَنا وراعينا فـي أول صورةٍ تجمعنا. ثـم ظلَّ مُرتبطًا في خيالي بعظمتَي وجنتيْها البارزتيْن، اللتين تتشرّبان حمرة الشفق إذا ما أطلتُ إليها النظر.

جلبتُ سـلّمًا من مخـزن القصر. ارتقيتُ السـور. اسـتخرجتُ الكاميرا كانـون (EOS 7D) الاحترافية التـي أهدانيها الكولونيل لأُغطي بـها أحداث اليوم. عندما لاحظ الكولونيل كم أعجبتني الكاميرا، ذات الحقيبة الـمُكتنزة، قال إني سـأحتفظ بـها إلى الأبد. كريـمٌ كعادته. التقطتُ العديد من الصور الفوتوغرافية. من بينها صورة بانوراما تـمتد عرضًا كي تستوعب أوسع كادرٍ مـمكن للأفق الـمُشرَّب بالحمرة، لا تقطعه أبنيةٌ ولا أبراجُ كهرباء. التقطتُ كذلك صورةً أخرى، أسـميتها «في وداع الشـمس»، تتوسط فيها الشـمس الذبيحة كبد السـماء، مُنسحبةً من أفقها الدامي نـحو مواتـها الليلي، من بين سحبٍ مُشرذمةٍ كأشلاء حرب. صورة كبيتِ شعرٍ في رثاء الشمس، في وداع

موكب تأبينها السماويّ. أثارت في نفسي شجونًا مُبهمة، واستعدتُ مرةً أخرى صورة داليا، بمسحةٍ من القلق هذه المرة.

ناداني ستيفن. كنتُ لا أزال مُرتقيًا سور القصر، لم أفرغ من التقاط الصور بعد. أومأتُ له أن: انتظر. لم يفهم إيماءتي. استمر في مُناداتي كي نلحق بالعشاء. عشاء في السابعة. غير مناسب على الإطلاق. لكني لم آكل شيئًا منذ الصباح. لا بأس من وجبةٍ في غير موعد.

خطفتُ صورةً أخيرة قبل أن أهبط السلم. ناولتُه الكاميرا داعيًا إياه أن يتصفح الصور. عدَلتُ بعد تفكيرٍ عن إعادة السلم إلى المخزن. كنتُ أشعر أنني فاتر النشاط أكثر من أي وقت مضى. ناولني ستيفن الكاميرا وهو يرمقني بإعجاب. أومأ بإبهامٍ مُنتصِب مُستحسنًا صوري. فهمتُ إيماءته على الفور، بينما لم يفهم هو إيماءتي قبل قليل، عندما طلبتُ منه أن يمهلني قليلًا. قلتُ له ذلك. شرحتُ له، بإشارة جديدة، أن هذه الإيماءة تعني في بلادنا: انتظر.

ابتسم مُستغربًا، وقال:

- كيف تعني هذه الأصابع المُطبِقة على لا شيء، بينما تهتز راحة اليد رأسيًا: انتظر؟!

- بالنسبة لي، لا يمكن أن تعني شيئًا آخر.

استغرب كثيرًا. ضحكنا معًا من تفاهتنا.

أطرقتُ مُحدِّثًا نفسـي. لِـمَ نفهمهم على الفور، بينمـا لا يفهموننا على الإطلاق؟ يسـتغربون إيـماءاتنـا وتعبيراتنا. ربـما مشـاعرنا أيضًا. لكن ماذا نقـول، هكذا حال ثقافتنا الـمُنسـحبة أمام ثقافتـهـم الـمتقدمة على الدوام. تـحتل مساحاتٍ أكبر من وجداننا كل يوم. هكذا الحال بكل أسف.

داليا عادل سراج

وقفتُ أخيرًا أمام بوابة القصر، أرمق لافتتَه بأنفاس آخذة في الانتظام..

كان أول مـا فكـرتُ فيه هـو الاتصال براجـي، ولكن.. أيـن الـهاتف؟!
الحقيبة تكتظُّ كعادتـها بأشياء لا معنى لـها، لا يـمكن إيـجاد شيء من بينها!
لا بد أن أرتبها وأُفرغها من نصف مـحتواها على الأقل! كل يوم أهُمّ بـذلك،
ثـم أتكاسـل، وفي الصباح أدرك مدى سـخافة ما أحـملُ وأنا أنقل مـحتوى
حقيبةٍ إلى أخرى- تناسـب ملابسـي- فأنوي مُـجدَّدًا أن أُعيد ترتيبها عندما
أعود في الـمساء، ثـم أتكاسل من جديد..

أووووه، إنـها الـمرآة الجديدة.. أين الـهاتف الغبي؟!!

هااه!! ليس ثانيةً.. كان في يدي كالعادة ولا أشعر به!..

لـــم يعُـد عقلي في مكانه الأول على الأرجح.. لقد نسـيته في آخر لجنة
امتحان للبكالوريوس، كما تقول ماما!

جربـتُ الاتصال براجي عدة مرات، ولكن الرقم لـم يكن مُتاحًا.. ربـما
تكون شبكة الاتصالات ضعيفةً في هذا المكان المنزوي!.

عدَّلتُ ملابسـي استعدادًا للقاء مستر ممدوح وضيوفه، بينما شرد عقلي فـي محاولةٍ لتذكُّر ما كنتُ أرتديه يوم الـمقابلة الشـخصية في إدارة شـؤون الأفراد..

لا يـمكنني أن أنسى شيئًا كهذا! أظنه التايّور السماوي القصير.. لا، لـم أكـن قد اشـتريته بعد.. أظنني كنـتُ أرتدي بنطالًا ضيقًا لـم تـخطئه لدقيقةٍ واحـدة نظـراتُ الـمدير الوقـح الذي اسـتقبلني يومها.. أخـذ يرمق فخذيّ الـممتلئيـن، وأنـا جالسـة أمامه كتلميذة مذنبـة، تنتظر توقيـع عقوبة ما على جسدها الـمُثير..

آاه، الآن تذكَّرت؛ إنه البنطال الرمادي الضيق ذو الحزام الأبيض الدقيق، الذي أعارته لي نرمين قبل الـمقابلة بيوميْن.

ها هي الأحداث تعود إليّ تباعًا، كسربٍ من طيورٍ مهاجرة..

فتحَتْ لي نرمين يومها خزانة ملابسها، وطرحَتْ أحشاءها على الأرض وفوق قطع الأثاث في غرفة نومها، كي أختار منها ما يناسبني.. سحبَتْ أيضًا درج تسـريـحتها، ورصَّت أمامي على السـرير كمًّا هائلًا من الإكسسوارات والإضافات، كما لو كانت فَرشَة بائعٍ جائل..

شـعرتُ كأن مغـارة علـي بابـا انفتحت أمامـي! كنز من الإكسسـوارات الفخمـة تـمنح فرصًا لا نـهائية للتجويد، وإضفـاء الـمزيد من الحداثة التي لا تـمنحها غيرها، عكس تلك التي نشتريها بأثـمان بـخسة..

اختارت لي خواتـم بديعة وبسيطة، أكبر قياسًا مـما أرتديه عادةً، وقالت أنـها ستُناسـب سـبابتي أو إبـهامي.. لـم أكن قد وضعتُ خاتـمًا في سبابتي

أو إبـهامي من قبل.. أهدتني كذلك ألـماسةً دقيقة من الزركوم ألصقتها بشق أنفي الأيسر، وقالت أنـها ستبرز جـمال أنفي!

ترى نرمين أن أنفي جـميل.. لا أصدقها هذه البنت!!

ثـم عرضَت علـيّ البلوزات الواحـدة تلو الأخرى، لاختيار ما يناسب البنطال الرمادي. لـمحَت عينيّ وهـما تتأمّلان البلوزة البيضاء التي اشترتـها مؤخرًا، ولـم تـقُم بارتدائها بعد، فطلبَت إليّ أن أجربـها..

رفضـتُ أول الأمـر، خاصـة وأنـهـا بيضـاء كالثلج، خشـيتُ أن تتسـخ لأي سـبب قبـل أن أُعيدها إليها. عندما قلت لـها ذلـك، صارت نرمين أكثر إصـرارًا؛ قالـت إنـها سـتكون أجـمل بكثير على جسـمي- وكانـت مُـحقّةً تـمامًا- ولكني عانَدْت، وبالغتُ في الرفض، فقالت إنه ليس عليّ إرجاعها، وأنـها ستعتبرها هدية تعييني بالشركة.

قلتُ لـها: ومن أدراكِ أنـهم سيقبلونني؟!

فقالت: إنـها متأكدة، وقد كان..

نرميـن طيبـة، ورقيقـة، ولا تغـار منـي على الإطـلاق، رغم أنـي أفوقها جـمـالًا بفارقٍ كبير.. لا تتحفظ في إبداء إعجابـها بشـخصيتي وثنائها على شكلي وتناسق قوامي، ربـما بفعل الغنى..

الـمـال يُغني عن كل شـيء، ويُعوض عن أي شـيء، ويُـفـكِّكُ لصاحبه عقـد النقص أولًا بأول.. إن كانت إحدانا سـتغار من الأخرى فسـتكون أنا، بالطبع!!

يكفي أنـها تعمل في مركزٍ لخدمات رجال الأعمال يـمتلكه أبوها، وأن مُسمّاها الوظيفي الفعلي هو «ابنة صاحب العمل»!..

يكفي أن أباها هو صاحب السـيارة المرسـيدس بنز الوحيدة التي رأيتها رأي العين من الداخل، وتنعّمتُ بركوبـها لمشوارٍ كامل!!

تكفيها الـملابس الكالڤن كلاين والأحذية الـمايكل كورس و... و...

أووه، كفى.. نرمين أطيب من عرفت!!

علـى النقيض منها أجد زميلاتي في الشـركة، اللاتي تبـوح أعينهن بـما لا يُطِقن البوح به.. منذ عُيِّنتُ في مكتب سكرتارية مستر مـمدوح، بعد مقابلة شـؤون الأفراد بيومين أو ثلاثة، وهن لا يكففن عن تفحُّصي كل صباح! ثـم ألـمَح إحداهن بعد أن تُلملم نظراتـها الـمتناثرة على كل منحنيات جسدي، تـميل على أخرى بـجوارها- ترمقني أيضًا- وتـهمس إليها بشـيء، فتقذف الأخـرى في إثره بسـهامٍ جديدة مـن عينيْها، وتُتبِعهـا أحيانًا بابتسـامةٍ خبيثة تُشعِرني بـمهانةٍ عميقـة، وقِلة حيلةٍ خالصة، خاصة إذا كنـتُ خارجةً لتوّي من مكتب مستر مـمدوح!..

كثيـرًا مـا يسـتدعيني بـمفردي، ويُطيـل بقائي عنـده لـمكالـمةٍ ينشـغل بـهـا، أو لأي سـبب آخـر، أخرج بعدها والنظرات ترشَـق فـي اتـجاهي من كل صوب! يتفحّصن ملابسـي وهيئتـي، بـحثًا عن أي طارئٍ يعتريني.. ماذا تظـن بي هـؤلاء، هَه؟! ماذا عسـاه أن يطرأ على ملابسـي، بعد انفراد مسـتر مـمدوح بي؟!

سفالة!!

هـن الأقـدم والأكبر سـنًّا، فلا حيلـة لي معهـن. أطلب ودَّهـن جـميعًا، وأقوم بأكثر العمل نيابةً عنهن بوجهٍ مُنبسط حين يُطلب مني ذلك، فلا أملك إلا تـجنـب إغضابـهـن. لولا وجود إيڤـون في المكتب الـمجـاور ما كنتُ احتملـتُ البقاء بينهن طوال هـذه المدة! أدلف إلى مكتبهـا الصغير، كاتـمةً غيظـي كحلَّة بخـار، فتقـوم ابتسـامتها الهادئة بتنفيـس محتـواي تدريجيًّا.. تسحبني إلى البلكونة الصغيرة المتَّسخة الـمُلحقة بالمكتب، تُشعل سيجارةً وتطلـب إليَّ الحديث. بينما أتكلَّم، أراقب الدخان المندفع من بين شـفتيها المضمومتيـن، كأنـمـا يحمل معه مـا اعتمل بداخلي منذ قليـل، فأهدأ! ثـم ينصرف ذهني إلى حملها، فأتحسـس بطنها الآخذ في الاستدارة، وأرجوها أن تكف عن التدخين لأجل صحة الجنين. تؤكد أن اسـتهلاكها قد انخفض إلى الربع، ربـما الخمس، وأنـها تحرص على تدخين سجائر مستوردة أثناء حملهـا، كي لا يتعكر مزاج الصبـي! أضحك، وأعرِّج على مواضيع أخرى، ثـم أعود إلـى حيزبونـات مكتب السـكرتارية، كـي أعبئ جوفـي حنقًا من جديد!..

يعاقبننـي على الغياب بجرعـةٍ مركَّزةٍ من الغيظ الخالص، فيأتين بسـيرة راجي!!

كلمـا مرَّ بـمكتب السـكرتارية لإصلاح جهازٍ ما على الشـبكة، يتغامزن ويتلامـزن فـي فجاجـة، ويتغزَّلن فـي وسـامته وأناقته فـي اشـتهاء ووقاحة لا مثيل لـهما!..

سفالة!!

هو أنيق ووسـيم حقًّا.. كل ما فيه دقيق؛ أنفه، ثغره، سترته، ياقته، بنطاله، وربـاط عنقـه.. حتى خطه، دقيـق.. يصفِّف شـعره إلى الخلف فـي لـمعانٍ دائم، وحذاؤه يلمع على الدوام..

هو جذابٌ بالفعل، ولكنه سيئ الحظ مثلي تـمامًا، فلم تـمنحه الحياة إلا الوسامة والجاذبية، أي لا شيء مـما يُنتفع به في هذا الزمان.

لكـن.. ربـما يـمتلك راجي شـيئًا واحدًا نفيسًـا ونافعًا، فهـو ذكيٌّ جدًّا، ومـحبوبٌ من الجميع، وإلا لـما قرَّبه إليه شخصٌ في مكانة مستر مـمدوح، ولـم يُـمضِ إلّا وقتًا وجيزًا في شركته..

أما أنا، فصاحبة أرقام قياسية في سوء الحظ، يصعب كسرها!!

عـادة ما أفتح علبة الدواء من الجهة الـمعاكسـة، فأجد النشـرة الداخلية مطويّـة، تـحتضـن شـريط الـدواء فـي إطبـاقٍ شـديد، كأنـهـا تـحميـه من أصابعـي!.. أبـحث عن شـيءٍ في أدراج الـمكتب فلا أعثـر عليه إلا مدفونًا فـي آخر درج أفتحـه، أيًّا كان الترتيب!. أبـحث عن رقم هاتفي لأحد عملاء الشـركة، يستعجل مستر مـمدوح في طلبه، فأجده في آخر بطاقةٍ أستطلعها، وعـادةً بعـد أن يُعاود مسـتر مـمدوح السـؤال عنـه أكثر من مـرة، وتكثر من حولي العبارات اللائمة الـمُسـتعجِلة، الباعثة على التوتر.. الأكثر من ذلك، عندمـا أصـل إلى أي مصعـد من أي دور يتصـادف وجودي فيـه، فأجده قد تـحرك للتو! وأشياء أخرى لا أذكرها، ولا أريد أن أذكرها..

ما أسوأ حظي!..

***

ما إن مررتُ عبر البوابة حتى استلمني توتُّرٌ مشوبٌ بالحماس والدهشة!. أجواء احتفالية لم أرَ مثيلًا لها إلا في مهرجانات عالمية عبر التلفاز؛ أضواء ليزر، كشافات تجوب الفضاء، دخان مندفع من كل الأنحاء، مظاهر تدفع بالبهجة نحو حدود لم أعرفها من قبل..

خطَوتُ ذاهلةً، وقد شُغلتُ عن التفكير في راجي لأول مرة منذ ساعاتٍ طويلة، فإذا بإحدى فتيات الاستقبال تخطو نحوي، وتومئ إليّ كعارضة أزياء تداعب كاميرات المعجبين.

أمهلتُ نفسي برهة استيعاب قبل أن أبتسم لها، كي أتأكد من أنها تقصدني أنا، فباغتتني من فورها:

- هاي.. أنا بيري.. مبسوطة اني شُفتِك.

- هاي..

- الجمال ده طبيعي ولا انتي مُتنكرة في شخصية (glamour model)؟

- ميرسي!!

- (De rien).. بس أنا باتكلم بجد، لما تِبدأ فقرة اختيار مِس هالوين، هادّيكي صوتي أكيد.

دغدغَت هذه الغيداء الرائعة كبريائي، بإطرائها اللطيف! شعرتُ أن بإمكاني مجاراة جميلات الحفل، أنني لستُ نغمة نشازًا في سيمفونية الإبهار تلك، وحمدتُ الله أن منحني من آنس إلى رفقتها خلال الحفل.

- وقّعتي الأوتوجراف؟

فاجأنـي سـؤالـها، ولـم أكن فعلتُ أي شـيء بعد منذ دلفـتُ ذاهلةً عبر البوابـة العملاقة. قلتُ لـها ذلك، فتأبَّطَت ذراعي بتلقائية ودود، وسـحبتني نـحـو طاولـة على هيئة صنـدوق سـاحر كبير الحجـم، وُضع أعلاهـا دفتر حضـور ضخم ذو غـلاف جلدي، وأوراق كبيـرة مصفَرَّة مهترئـة الحواف، كأنـهـم اسـتعاروهُ مـن مقتنيات متحـف. رمقـتُ الصيغـة الـمطبوعة أعلى الصفحة بـخط إنـجليزي قديـم، تختفي حدود أحرفها الذهبية بين زخارفها الكثيفـة، فلـم أميِّز إلا بعض الكلمات البسـيطة. بحثتُ عن مـكان خالٍ بين عشرات الإمضاءات الـمتناثرة فوق صفحتي الدفتر، بالكاد وجدت.

ناولتنـي بيـري ورقةً إضافية طلبـت إليَّ أن أمهرها بتوقيعي، سـألتها عن كنهها فقالت إنـها تعهدٌ بالموافقة على شـروط الـمُسـابقة إن اختارني القدر للمشـاركة فيهـا، وحثتنـي على الإسـراع كي نلـحـق معًا باللحظـات الأكثر إمتاعًـا. لم أكن لأترك فرصةً كهذه لاختياري «فتاة الحفل»، عندها سـيدرك الـمحيطون أيَّ جوهرةٍ يُهملون!! هـمسَت لي بيري أن أكتب اسـمي ثلاثـيًّا دون غيره في المسـاحة الخالية، وطلبَت إليَّ أن أُسـرع. فعلتُ كما أشـارت واستسلمتُ ليدها كي تسحبني حيث تشاء.

تأكـدتُ فـي تلك اللحظـة أن حظي ليس سـيئًا علـى الـدوام، وأنني لن أندم على الـمجيء. سـامـحتُ راجي لانشغاله عني الليلة من أجل الإعداد لحدثٍ كهذا، لا مثيل له!.

أمل معاطي عبد المعبود

سطعَت في الفضاء الـمُحلِّق فوق الحديقة نجمـاتٌ مُلونة، ولحق بـها دويٌّ تفجيـراتٍ متلاحـق، أفزعنـي.. لـم أكن قد شاهدت بأم عينـي ألعابًا نارية رهيبة كهذه من قبل، ولـم أكن أتصورها مُروِّعة إلى هذا الحد، ومُبهرة أيضًا. ارتفعت ضوضاء الـموسيقى تجاوبًا وتزامنًا مع النيران الـمُلونة، ثـم فوجئتُ بالظلام وقد انشق عن ضوءٍ باهر مُسلَّط على قاعدة مكسوة بألواح مُضاءة الباطن، ارتفعت عن سطح الحديقة كـمسارح الحفلات الغنائية الكبرى، وفـي الوراء تـلألأت بقعٌ متباينة مـن الضوء، أخـذَت تتكاثر حتى ندَّت عن شاشةٍ عملاقة ترسم خلفية المسرح..

بعد ثوانٍ ظهر أمامها رجل يرتدي سترة رسـمية بيضاء، يتوسط فتاتيْن شقراويْن فاتنتيْن، ترتديان ملابس سوداء فاضحة، تكشف أكثر مـما تستر، بينما ترفرف خلف ظهريْهما باستمرار أجنحةٌ من قماشٍ أسود، شفيف وبرّاق..

سرعان ما تبيَّن لي أن الرجل الأنيق هو الدكتور مـمدوح...

- مساء الخير عليكـم جـميعًا.. أشكركم على تشريفكم لينا الليلة، وأتـمنى لكم سهرة مُـمتعة ومُشوقة.

تعالى التصفيق من حولي، وهدرت موجاتٌ من صيحات الاستحسان من الخلف، فاستجابَت أعصابي لنداءات العبث والمجون.. لم أمانع في كأسٍ إضافية ساقها إليّ أحد الندال، الطوافين بلا كلل بين المدعوين، واستسلمتُ لخدرها اللطيف فور أن سرى في عروقي باعثًا فيها حرارة الطمأنينة، بعدما جفّفها الخوف.

انسحب الدكتور ممدوح بأناقته التي تخطَّت المُعتاد، وحلَّ مكانه رجلٌ نحيف في زي بهلوان، يصبغ نصف وجهه بطلاء أبيض، بينما تختفي حدود أنفه وثغره في مساحات حمراء فاقعة، حاكتها الشاشة العملاقة ببقع مُلوّنة تلاعبت من خلفه بشكلٍ أخّاذ.

سرعان ما التقط ميكروفونًا حبيسًا بين فخذَيْه، وصاح صيحةً معدنيةً حادة، وماجنة، جذب بها الأسماع والأنظار، وقال بذات النبرة:

- حفلِتنا التنكرية السنة دي، مُخ تَ لِ فة.. جِديدة، ومُ مَ يَّزة.. كلنا هنِلعب وهنِنبسط، بس مش أي لعب! ده لعب على كبير قوي ي ي..

تعالى التصفيق من جديد، مُختلطًا هذه المرة مع تأوُّهات أنثوية ممطوطة مُثيرة، انبعثت من أرجاء الحديقة الغارقة في الظلام والجنون، تلفحها الأنفاس اللاهثة بالحماس ورائحة الكوكتيلات المُسكِرة.

لعبتنا جد مش هزار..

مافيهاش إعادة اختيار..

والكل وقّع ع الإقرار..

ومعادش فرصة للفرار..

في جنة كُنت، أو في ناااااار..

زفـرَت النيران من الشـعلات الـمُتراصَّـة عدة زفـرات مُتقطعة، بصوت تنّيـن ينفـث أنفاسًـا غاضبة، صاحبَـهُ ارتفـاع مفاجئ في مسـتوى الضوضاء الـموسيقية والجنون الماثل في الشاشة الخلفية، بينما تصاعد الدخان حول الرجل البـهلوان والفتاتيْن، كأنـهم يقفون فوق فوهة بركان تنفث من جوفها نيرانًا ملونة..!

التهبت مشـاعر الحضـور مع الـمشـهد الأخّاذ، ومع الجو الـمشـحون بالإربـاك والتشـويق، فتعالـت الصيحـات بـهـوس غيـر مسـبوق، وازداد الندال نشـاطًا كأنـهم نـحلٌ يـجوب الحديقة مزوِّدًا خلايا الأدمغة السـاخنة برحيق الخمر الطازج. في هذه الأثناء، تكشَّـف الفضاء الـمحيط بالـمسرح والحضور عن قبة من نجمات دقيقة تتلألأ بألوان مُتغيرة في خيوط مُنتظمة، لا أعـرف كيـف تعلَّقت فـي الـهواء بلا هيـكل يحملهـا.. أيُّ عجب..! ثـم هـدأت جلبـة الـموسـيقى مُـجـدَّدًا، وتعلَّقت الأبصـار من جديـد بالثلاثي البركانـي القابع فوق مسـرح الأحداث، يتوسـطه البهلوان الصـادح بصوته الـمعدني..

اللعبة دي بـحق وحقيق،

فصولْـها بدئِت من زماان،

مانتَ اترسـملَك الطريق،

من قبل ما تِتخلِق إنسان،

لِعبة فرح، لِعبة ألــم،

لِعبة مصير، لِعبة ندم،

والوقت هُوَّ الألُعُبان!

تدفقت سـحب الدخـان كثيفةً من جديـد، وزفرت شـعلات النيران في دفقات مُتلاحقة بسـرعة أكبر من السـابق، تُـزكيها الـموسيقى التي اتخذت طابعًا جنائزيًّا مُغايرًا، ولكنه أشد إزعاجًا من ذي قبل...

انقشـع الدخان من فوق الـمسـرح، فلاحَ في واجهة لـمشهد صف من الرجـال والنسـاء خلف البهلـوان، لـهم ملامح أوروبية علـى الأرجح، وقد ارتدوا أزياء مُضحكة أشـبه بـملابس القضـاة الغربيّين في الأفلام القديـمة، أو أساتذة الجامعات في احتفالات التخرج كما في الأفلام الأميركية.

تـمازجت رائحة الكحـول الفاقعة مع أصوات الحضـر، التي تراوحت بين التهليل والعويل، والصياح الـماجن الـمُهتاج.

- عايزين نِفهم اللعبة يا عم البهلوان، وعايزين نِـبدأ بقى!

تعالت الصيحات مُتجاوبةً، وأخذت الأسـئلة تتطاير كلشـرر من الرقعة الـمظلمة الـمُطلة على الـمسرح. أشار البهلوان بكلتا يديْهمُستعيدًا سيطرته الكاملة على الجمع، وأردف:

- اللعبة ابتدِت فعلًا.. كل واحد منكم قبل ما ييجي هنا ختار حلمه.كان معاه المال والوقت، وقدَره إنه يِجري ورا حلمه لحااد النهية..

ساد صمتٌ مُترقِّب مُتحفِّز، تمهَّل أثناءه البهلوان لبرهةٍ مقصودة، ثم أكمل قبل أن يموج المشهدُ من جديد:

- أنا شايف بينكم آنسة جميلة حِلمِت تِبقى سنو وايت، رمز البراءة والجمال، وجت النهارده عشان تحقق حلمها.. والشاب الوسيم ده حِلِم بغموض وقوة راسبوتين واختار مصيره بنفسه. وكل واحد مننا جاي المكان ده عشان يحقق حلمه، ويشوف مصيره بعينيه.

تكاثفَت سحب التوجس فوق الرؤوس، وأمطرت الحضور برذاذ الصمت والترقب..

تجاوبت نبضات قلبي مع موجة الإرباك الأخيرة التي لطمته،وراح ينكمش بداخل صدري، بينما أراقب الوجوه المُظلمة الذاهلة من حولي. تحركتُ ببطء بين الأجساد المُتقاربة أستطلع الوجوه المكشوفة، وتلك التي توارى أكثرها خلف الأقنعة. تعرَّفَت عيناي على بعض هذه الوجوه، لأول مرة منذ وطئَت قدماي أرض الحديقة المسكونة بالظلام؛ دعاء مشرفة النظافة بالشركة، سامي فراش مكتب الدكتور ممدوح، إيڤون مُدخلة البيانات بالمكتب المجاور للسكرتارية. عجبتُ كيف لم أميزهم قبل هذه اللحظة، دقَّقتُ النظر في باقي الوجوه، بعضهم كان مألوفًا والبعض الآخر لم أكن متأكدًا إن كنتُ قد رأيتُه من قبل، ولكن الوجوه تشابهت والملامح تطابقت تحت غلالة الظلمة والذهول.

- دستينو لعبة مصير.. احتمال يكون مصيرك اختارك انت بالذات، عشان تحقَّق حلمك الليلادي.. واحتمال مصيرك يطلَّعلك لسانُه وتقول: يا ريت اللي جرى ما كاااان!

عـمَّ الوجـوم الـمشـهد، كأن غـازًا للأعصاب قد انتشـر فـي الـهواء مع الجملة الأخيرة، وعندها راح البهلوان ينسـحب إلى الوراء تاركًا الـمسـرح للفتاتيْن الـمُتلألئتيْن، اللتين أخذتا تلوِّحان لأعلى بأشرطة برتقالية وسوداء، ينتثر مع خفقاتـها مسحوقٌ برّاق، وأردف قبل أن يختفي:

- اللي هيُرقُص بِذِمَّة دلوقتي هو اللي هيِسـتحق اختيار الدسـتينو، يعني هيقـرَّب خطـوة من تحقيق أحلامـه الليلادي.. مصيرك هـو اللي هيختارك، بس انت قرَّبلُه.. ارقصووووا..!!

داليا عادل سراج

جُلتُ في أنحاء القصر وراء بيري، بحثًا عن مكان مناسب كي أبدِّل ملابسي..

لسبب ما، سكنت بيري قلبي بسرعة؛ بساطتها ربما، مرحها، إطرائها الذي أخذ يتدفق عليّ بمناسبة أو بغير مناسبة، وأنا لا أزهد الإطراء مهما تكرّر!.

بعد جولة مُختزلة، أدخلتني القصر من مدخل جانبيّ، اصطفّ أمامه سيارتان سوداوان لامعتان، قديمتا الطراز. مررنا عبر ردهة طويلة، مُرتفعة السقف، يتوسطها باب مطبخ على ما يبدو، حيث لمحتُ من خلالِه طاقمَ ضيافة يتحلّق أفرادُه حول مائدة مُتطاولة تتوسط المكان، يُفرِغون العبوات ويجهّزون أواني التقديم.

في نهاية الردهة، دلفتُ خلف بيري إلى غرفة صغيرة، بديعة التكوين، ذات سقف موشى بالزخارف المُلونة، تتوسطه قبةٌ صغيرة مُضاءة الحواف، بطريقةٍ غير مفهومة! جميلةٌ حقًّا..

لم أفهم ماهية المكان أول الأمر، بينما أتابع بيري تسحب مني حقيبة يدي وتضعها على أريكة مُذهّبة فرنسية الطراز، ثم تتوقف أمام شيفونيرة

كلاسيكية باهرة الشكل، من الخشب الـمُطعّم بالنحاس البراق، تعلوها مرآةٌ كبيرة مُذهّبة الإطار، دقيقة التفاصيل، تتوسط قاعدتَها رأسُ أسد مفغور الفم، بارز الأنياب، يكاد يزأر في وجهي لو أطلتُ النظر إليه!!

جذبَت بيري أول أدراج الشيفونيرة، واستخرجَت منه علبة ماكياج ماكس فاكتور كثيرة الخزانات، ففكّكَت أوصالها بعد أن وضعتها فوق سطح الشيفونيرة الرخامي، الـمُعرّق بالذهب، وأومأت نحوي أن: تفضّلي..

- إيه ده؟! سألتُها بابتسامة مُتردِّدة.

- يالّا، صلّحي ماكياجِك.. ولّا تحبّي تخلّيها بعد ما تغيّري لِبسِك؟

رمقتُ علبة الـماكياج في حيرة، فعاجلتني مردفة:

- إلبسي الـ(costume) بتاعِك الأول، عشان نظبّط الـماكياج مع ستايل لِبسِك.. مش كده أحسن؟

أومأتُ موافِقةً، وشرعتُ أستخرج الزي التنكري من حقيبة التسوق التي حملتُها معي، ولا زلتُ غير متأكدة إن كانت بيري ستتركني الآن وتخرج - كي أبدّل ملابسي- أم أنها تنتظر شيئًا لا أعرفه!

نظرتُ نحوها، وعلامات الحيرة البلهاء مُرتسمةً على وجهي في الأغلب، كما أوحت ابتسامتها، بادرتني باعتياديّة غير مُتوقعة:

- إنتي محَضرة شخصية إيه؟

- جان دارك.

- تُحفة! جِبتيها ازاي دي؟!

- همّ اللي اقترحوها عليّ..

- همّ مين؟!

- مش عارفة.. تقريبًا، المنظمين بتوع الحفلة. الدعوة اللي بَعَتهالي مستر ممدوح كان مكتوب فيها الشخصية التنكرية المطلوبة؛ جان دارك.

- مستر ممدوح، شخصيًّا؟! ده انتي واصلة أوي على كده.. عامةً، جان دارك لايقة عليكي موت، فكَّري تعملي ماكياج سموكي، وكُحل سايح على خدودِك عشان يليق على الشخصية.

- تفتِكري..؟

- سيبيلي نفسِك خاااالص.. إنتي حظك من السما ان معاكي أهم «ميكب آرتِست» في مصر، بلا فخر..

اتسعَت ابتسامتي في استجابةٍ سريعة لحماسها الجارف، وشعرتُ بمزيدٍ من الألفة تجاهها..

سألتُها إن كان من الأفضل أن أزيل المساحيق عن وجهي أولًا، فأومأَت بإبهامها مُوافِقةً وهي تشغِّل أغنية (The Fall) لفرقة (Rhye) على هاتفها المحمول، وتضعه على السطح الرخامي بجوار علبة الماكياج، ثم تلتقط أنبوبةً صغيرة الحجم من العلبة، وتمدّ بها يدَها نحوي وهي تتحرك بخطى إيقاعية راقصة، في انسجام تام مع الموسيقى الناعمة.

أنبوبة غسول للوجه- كما توقعت- ولكن أين الماء الذي سأغتسل به؟!

سـألتُها، فلاحَـت علـى وجههـا ابتسـامةٌ موجزة، تشـوبـها مسـحةٌ من السخرية، وأشارت نـحو السطح الرخاميّ للشيفونيرة الخشبية..

لـم أفهم إلى أي شـيءٍ تُشـير، فـإذا بـها قد اقتربَـت، وضغطَت بأطراف أناملهـا فوق مُنتصف الرخامة، فهبطَ مُسـتجيبًا لضغطتهـا جزءٌ بيضاوي من السـطح البرّاق مُصدرًا صوت طقطقة! ثـم اسـتقَرّ على مسافة صغيرة أسفل السطح الأصلي.. عجيب!!

انسـاب في إثر ذلك الـماءُ، من حنك الأسد الذي يتوسط قاعدة الـمرآة الـمُذهبة، فأدركتُ أن الشيفونيرة التي أقف أمامها، ليست إلا حوضًا!..

وبذلك تكون الغرفة، على الأرجح، دورة مياه!!

أيّ ترف وأيّة عظمة؟!..

غسـلتُ وجهي وأنا شـاردة تـمامًـا في تفاصيل الـمـكان- الذي أعدتُ استطلاعه من جديدٍ بعدما تبيّن لي كُنهه- فإذا ببيري تسألني:

- إنتِ تعرفي مستر مـمدوح من زمان؟

تردّدتُ برهةً، أفكِّر في الإجابة الأمثل، ثـم قلت:

- أيوة، من مدة كبيرة.

- أنا اتعرّفت عليه من حوالي.... قولي بتاع شهر مثلًا.

أراحتنـي إجابتهـا، وكنتُ قد فرغتُ مـن إزالة الـمسـاحيق عن وجهي، فسألتها:

- البتاع ده بيقفل ازاي؟

ناولتني منشفتيْن قطنيّتيْن مبرومتيْن كي أُجفف بشرتي، وأعادت كبس القعر الرخامي، فامتنع انسياب الماء من حنك السبع الذهبي، وطقطق السطح مرة أخرى بينما الهواء الساخن ينبعثُ من حوله كي يُجفِّفه، ثم ارتفع من جديد لمستوى سطح الشيفونيرة.. عجيب!.

جذبتني بيري من ذهولي بعبارةٍ جديدة عن المستر ممدوح..

- تعرفي، مستر ممدوح ده بيِعجبني جدًّا، هو ده الستايل اللي بَحِبه في الرجّاله.. راسي كده وهادي، وhandsome موت.. وبعدين تِحِسّيه لافِف ودايِر، ويِعرف يسايِس طوب الأرض.. حافِرتي آخر حاجة.

- حافِرتي! يعني إيه؟

- ما تِعرفيش يعني إيه! إنتي شكلِك غلبانة يا دودو، وكيوت خالص.. حافِرتي يعني دايس في الحياة، بيِعرف يتعامِل.

- ومنكم نستفيد..

- من كُتر ما بِنقابل يا مُزّه.

رمقتُها بإعجاب، أو ربما برغبةٍ في الاستزادة من حديثها المُدهش، وأسلمتُ وجهي لأناملها المُتمرسة، كي تُعيد تصويري في هيئةٍ وثقتُ أنها ستعجبني..

***

دلفتُ إلى خارج القصر مُهرولةً خلف بيري الهوجاء، وقد راحت تعدو بغير مُقدمات كالملدوغة!!

كنا قد أدركنا على غفلةٍ كم تأخّرنا عن بداية الحفل..

تألمتُ كثيرًا وأنا أعدو خلفها فوق الممرات الرخامية العارية، فوق حصباءٍ مُدبّبة من كل جانب، تنغرس حوافها في قدميّ الحافيتيْن، إلا من جورب «فيليه» شفاف بلون الجلد، أصرّت بيري ألا أنتعل سواه كي أبدو حافية القدميْن، كما في الصورة التي رسمتها في ذهنها للجميلة جان دارك!..

كدتُ أفقدُ أثرها وقد انسحب الضوء الشفيف تمامًا من آفاق الليل، ولكني لمحتُ شعرها المموج يبتعد ناحية بقعةٍ مُضاءة في الحديقة الغارقة في الظلام، باستثناء مصابيح برتقالية صغيرة مُثبّتة حول الممرات..

عند هذه البقعة، تقاربت أجساد الناس قرب مسرح الأحداث، حتى كادت تلتصق!..

أمسكتُ بحزام بيري المُتدلّي خلف خاصرتها، كي لا تشرد مني ثانيةً، ورُحتُ أُتابع البهلوان اللطيف الذي اعتلى المسرح، وقد استحوذ على اهتمام الرؤوس المُتحلّقة من حوله بجاذبيةٍ لم يُنازعه فيها أحد.. نحيف، مهوَّش الشعر كفرشاة ماكياج، نشيط كذبابة مُبكّرة، يتحرك كالعرائس الهوائية الضخمة التي يندفع بداخلها الهواء في دفقات عشوائية، مُحدِثًا حركاتها الفجائية غير المتوقعة.

كذلك جاءت عباراته التي تدفّقت من فمه الذائب في ملامح وجهه المصبوغ، هادرة، ثم خافتة، ثم ممطوطة، ثم خشنة، بأداء مسرحي جاذب بالفعل، من وجهٍ مُتقلّب كأقنعة المسرح، ضحكًا وعبوسًا!

سـألتُ بيـري عما يحدث، فقالت إن شـرح اللعبة ربـما يكـون قد فاتنا، وإن الأجدر بي أن أنتبه إلى شـرح المرحلة القادمة، فإذا بالبهلوان ينسـحب إلى خلفية الـمسرح ويختفي وراء شاشة كبيرة تبثّ مشاهد رقصٍ مُتلاطمة. عندها، اسـتدارت بيري نحـوي كي تواجهني، وقالت إن الجميع سـيرقص الآن، كي يتم اختيار الـمشاركين في الـمسابقة..

مسابقة؟ أية مسابقة؟! رقص!!

بدت الأجواء أكثر جنونًا مـما تخيَّلت، ولكنها أكثر تسلية!..

شـرع الحاضـرون فجأة يتحركون ككتلـةٍ واحدة، كالنمـل يتخبَّط حول فريسـةٍ ميتة، لا هو يستقر على موضع ولا يجد لنفسه فسحةً للحركة! فعلتُ كمـا فعلـوا، ورحـتُ أُحاكي رقص بيـري ذا الطابـع الأجنبـي الـمُحترف.. كـم وددتُ قبل اليـوم أن أُتقن هذا النوع الـمُثير مـن الرقص!.. هي فرصتي لاكتشـاف ما اختبأ من مواهبي؛ هكذا حدَّثتُ نفسي، وقد صار جسدي أكثر مرونةً واندماجًا مع الموسيقى..

أخـذتُ أذوب مع الإيقـاع، فراحَ ينسـرِب إلى خلايا جسـدي، واحدةً، واحدة!..

راجي مدحت بيومي

رحَّبتُ بستيفن من جديد، دافنًا قعر علبة البيبسي الـمُثلّجة بداخل إحدى الفجوتيْن الـمخصصتيْن لذلك، في الـمسند العريض الفاصل بين مقعدينا. اتّـخذتُ مجلسي ثانيةً في مواجهة شاشات غرفة التحكم والـمتابعة. الغرفة الصغيرة نسبيًّا بين غرف القصر. تقبع في البدروم أسفل الـمبنى. لا يتخلل جدرانها الـمكسوة بموكيت ذهبي بلون الشامبانيا أية نوافذ. يسيطر على أجوائها عبق التكييف الـمركزي، وترقّب الإضاءة الـمنخفضة.

فتح ستيفن علبته باعتياديّة خبير مفرقعات، دون أن ينبس بكلمة ودون أن يحوِّل بصره عن تلك الشاشات التي أوكلتُ إليه مُتابعتها؛ الشاشات من 5 إلى 8 ومن 13 إلى 16. رمقتُه بامتنانٍ صافٍ ورحتُ أتابع الشاشات الثماني الأخرى. ستة عشر شاشة متجاورة في صفّيْن عرضيّيْن يتوسطان الحائط الـمُقابل للمقاعد الجلدية الوثيرة، اللامعة بلون النبيذ في كأسٍ من الكريستال. تعمّدتُ أن أضم لستيفن تلك الشاشة الوحيدة التي تبثّ شيئًا مُضيئًا، مُسليًا، ومُتغيرًا، وهي الشاشة رقم 13 التي تنقل وقائع الحفل، بينما تبثّ الشاشات الأخرى مساحاتٍ ثابتة في أنحاء القصر. بعضها مُظلم لا يضيؤه إلا الأشعة تحت الحمراء لكاميرات الرؤية الليلية. هذه الشاشة الـمُثيرة الوحيدة. ضممتها إلى مجموعته حتى لا يتسلل إليه الـملل خلال

جلستنا التي ستمتد لساعات بطيئة، ثقيلة الخطو، خاصةً وقد فضّل الـمكوث معـي ومعاونتي على حضور الحفل الـمُنتعـش بالحديقة، زاعمًا أن ضجيج الـموسيقى الـمُرتفعة لا يروقه.

رشـف ستيڤن رشفة طويلة من علبة البيبسـي. انساب فورانـها إلى أذني مُدغدغًا، لطيفًا، باعثًا على استرخاء الأعصاب. ثـم باغتني بسـؤال دون أن يلتفت نحوي:

- ما هي في ظنك جدوى إقامة حفل كهذا في بلد كـمصر؟

أمهلتُ نفسـي برهة استيعاب قبل أن أرد. ثـم سـألته بنبـرة لا تخلو من استنكارٍ عمـا يعنيه بـ «حفل كهـذا»، وعما يجعـل مصر بلـدًا يختلف عن سـائر البلدان، في رأيه. استشـف من صوتي مسحة استياء. بادر بـمزيدٍ من التوضيح. قال إنه في العام الفائت شارك في حفل مـماثل تحت رعاية نفس الـمؤسسـة، مع معظم أطقم العمل التي تعمـل اليوم. أما الفارق فأن الحفل كان فـي الـهند. أردف بأنه يسـتغرب طريقة الاختيـار. هذه البلدان لا تعرف عيد الـهالوين، ولا تـهتم به. بل ربـما يراه البعض نوعًا من تصدير الثقافات إلى بلدان جديدة كل عام. هذا هو ما أحبّ سـماع رأيي بخصوصه. شكرته على التوضيح. أوضحتُ له أن العولـمة هي سـمة هذا العصر. أن الثقافات في طور من التمازج عبر الفضاء الـمفتوح، يُـنبئ بأنـها لا محالة في طريقها إلـى انصهـارٍ كامـلٍ في ثقافـة عالـمية موحَّدة، تتسـع للجميـع. ثـم أضفتُ باسـمًا:

- ربـمـا تصـوّرتَ يا سـتيڤن أن الـمصريين يركبون الجِمال ويسـكنون الخيـام قبل أن تجيء إلى مصر، كما أنك ربـما تصوّرتَ منذ عام أن الـهنود

يركبون الأفيال ويسكنون المستنقعات، قبل أن تزور الهند. ولكنك رأيتَ بأم عينك كيف أننا نتواصل عبر الإنترنت ومن خلال شبكات التواصل بشتى أشكالها، ونتابع شؤوننا باستخدام كاميرات المُراقبة وغرف التحكم.

ردّ عليّ بأن ذلك غير صحيح بالنسبة له. ربما يتصوّر بعض الأميركيين ذلك. لكنه كشخص مُطّلع، كثير السفر، مُحب للتواصل مع الآخرين، يعرف الكثير عن بلدان العالم الثالث. يعرف أيضًا أن ما ذكرته عن العولمة يرسخ في عقول البلدان الناشئة والنامية فقط، أما البلدان ذات الاقتصاد القوي والتأثير السياسي الكبير فتسعى للحفاظ على هويتها الثقافية، بل إلى نشرها إلى أوسع مجالٍ يُتاح لها في العالم الثالث.

أبديتُ تحفظي على كنية «العالم الثالث» هذه، خاصة فيما يتعلّق بمصر، أقدم دول العالم على الإطلاق. ابتسم مُتلطِّفًا. قال إنه يتفهم اعتراضي، رغم أن العديد من المُؤرخين سوف يختلفون معي حول حقيقة أن مصر أقدم دول العالم كما أزعم، ورغم أنه شخصيًّا يرى تصنيفها كإحدى دول العالم الثالث موضوعيًّا إلى حد بعيد، إذا نحّينا العواطف جانبًا.

- عدنا ثانيةً إلى تنحية العواطف.

هكذا قلت، بنبرةٍ أكثر غلظة هذه المرة. رشف ستيفن رشفةً أخيرةً ومُطوّلة من علبة البيبسي، قبل أن يطلب مني أن أنسى الأمر. أضاف إنه استوعب للتو أنه ربما لم يسأل السؤال المناسب كي ينتظر مني إجابةً مناسبة، وأنه بالفعل يعتقد أن المصريين أكثر تقدمًا مما تصوّر قبل مجيئه، على مستوى الأفراد على الأقل. ثم عاد يسألني عما علينا أن نفعلَه أثناء متابعتنا لتلك الشاشات. بادرتُ بالشرح، بقليل من الحماس هذه المرة:

- كل مـا علينا عمله هو الـمتابعة، هذا كل شـيء. نتابع أطقم العمل من خلال الكاميرات الـمثبّتة في كل مكان؛ الأطقم الاستعراضية في الكواليس، طاقـم الضيافة في الـمطبـخ العمومي والممرات، طاقـم الإضاءة وعروض الليزر في الشـرفة العلويـة الـمطلة على الحديقة (شـرفة الكولونيل)، طاقم الألعـاب النارية الذي يعمل تحت إشـراف سـتيڤن حول المسـرح، والذي يُفسد الآن ما أمضى يومه كاملًا في إعداده، وهكذا.

ابتسم ستيڤن لتخَيّل الأمر وسألني:

- ثـم ماذا بعد؟

- ثـم أورِدُ هذه الـمُتابعات والـمُشاهدات في تقرير الـمتابعة الذي أرفعه غدًا لـمستر مـمـدوح، المدير الإقليمي للمؤسسـة في إقليمنـا الجغرافي؛ توقيتات بدء الأطقم في أعمالـها وانتهائها منها، كيف جرت الأمور، إن كان ثـمة أمور غير اعتيادية قد وقعت. تقرير روتيني من نقاط جاهزة، إن شئت.

- الكولونيل هذا يـهتم بأمر الحفل كثيرًا، ويُعطيه أكبر من حجمه.

- هـذه هـي طبيعتـه. يـهتم بجميـع تفاصيل العمـل، كما لـو كان يجهز لمعركة حربية أخيرة. يسـتعين بأحدث أدوات التخطيط والتقييم التي تتوافر لديه، كي يحسِّن الأداء في الـمرات القادمة.

أطلّت من عيني ستيڤن وشفتيه بوادر استهانة، وعلّق بسخريةٍ لـم يحاول إخفاءها، وبثقةٍ تـمتزج بالتهكم الصريح، قائلًا:

- لن تكون هناك مرات قادمة على الأرجح.

رغـم طيبـة سـتيڤن، وجـدتُ فـي نبرتـه ذلـك الاسـتعلاء الـمتوقع من أبنـاء جلدتـه. لا ينتظـرون من بلادنا شـيئًا مُفيدًا قط، من البشـر على الأقل. يظنـون أنـهم وحدهم القـادرون على صناعة النجاح، وبهـذا وضع معاييره للآخريـن كـي يلتزموا بـهـا. لا يتوقعون من أراضينا أن تنبـت عقولًا عبقريةً مثـل الكولونيل، تقود بلادها كي تناوئهـم أو تناهزهم، ثـم تتفوق عليهم مع الوقـت، ومع توفـر الإمكانات. لـم أُصارحه بحقيقة مشـاعري تلك، لأني أحببته، وأيقنتُ بحسن نواياه. تفهّمتُ أنه مِن نبتِ أرضٍ بعيدة، وأنه موصولٌ بجذورٍ تنغرس في باطنها وتستمدّ أسباب البقاء والنماء من أحشائها، فكيف له أن ينبتَ نبتًا جديدًا مهما ارتحل.

استعادتني إشارة ستيڤن من شرودي، بذراعه الـمُمتدّة في اتجاه الشاشة رقم 13 وكفِّه الـمُتدلّية منها كثمرة تتعلق بغصن، وقد بدأ جسـده في التمايل يـمنة ويسـرة في رقصةٍ هادئة تجاوب معها الـمقعد الجلدي الوثير، مُصدرًا حفيفـا مُتقطّعًـا يحاكي إيقاع الـموسـيقى ونفثات النيـران الإيقاعية. راقبتُ الدخـان الـمُندفـع من أسـفل الـمسـرح، تعكس ذرّاتـه أضواء الليـزر التي انـهمرت من أعلى المسرح. صورة مُبهِجة في صخبها. لـم يُقلِّل من تأثيرها في نفسـي هدوء غرفـة الـمُتابعة وهـمس تكييفها الـمركـزي. انتبهتُ أكثر. مِلتُ بجذعي نحو سـتيڤن كما لو أنني أريد مشاركته الحدث من موقعه هو. التقط هو لغة جسدي وراح يشرح لي ما يحدث. الآن، تختار لجنة التحكيم سـبعة متسـابقين من الحضور كي يشـاركوا في الـمسـابقة. في الغالب يتبع ذلك عرضٌ موجزٌ عن حياة كل مُتسـابق. يتابعه الـمشـاهدون عبر شاشـات القنوات الفضائية. في العام الفائت، قال ستيڤن، كانت تلك العروض عبارة

عـن أفـلام تحريك قصيرة ترسـم حياة الشـخصيات الـمُشـاركة، على هيئة رسوم متحركة مسلّية للغاية.

سألته، وقد اتّسعت عيناي تعجُّبًا:

- وهل يجهزون الأفلام مسبقًا لكل هؤلاء؟ قل كلامًا يُعقل، ستيفن.

نظـر نحـوي أخيـرًا، وقد نبت نصفُ ابتسـامةٍ ماكـرة على شـفتيْه كأنـها تقول: ها قد بدأتَ تُعمِل ذكاء أجدادك أيـها المصري النابه.

عند هذه اللحظة، هذه اللحظة تحديدًا، تـمهّل قطار الزمن برهة احترام. ابتلـع التكييف الـمركـزي زفيره البـارد. أحنى هواءه وخفـت صوته تقديرًا للقادم. تعلّق بصري بالشاشة الـمُترعة بالـمفاجآت يرشف اللحظة. يحفرها نقشًـا أبديًّا فوق أنسجة دماغي. التقط مُـخرِج الحفل، ذاك الأسباني البارع، حدثًا يتصاغر من حوله غيرُه من الأحداث. فتاة تركض في اتجاه الـمسـرح من ناحية مـمرٍّ جانبي. ترفل في فستان أسود أنيق يتوسطه حزام زهري لامع حـول خصرها النحيل. بينمـا يتبعها بخطوات ملاكٌ حافي القدميْن. مسـيحٌ يخطـو فـوق الـماء فـلا يختلج لـمروره سـطحُه الزجاجي. نسـيمٌ ينسـاب فتفسِح له وريْقات أشجار مُنتشيةً بالسعادة.

أيقنـتُ تـمامًا بـما رأيـت، عندما اقترب الـمُخـرج العبقري من وجهها ذي البـراءة الفاتكـة بالأعصـاب. كانـت داليا. ببهائهـا الذي تجـاوز الـليلة حـدود الرفـق بالإنسـان، وأخـذ يصـرع الناس مـن حولـه بينما يعبُـر بينهم وتحـت أبصارهـم. حتى الـمُخـرج الـمُحترف، الـمُلهَم، استسـلم لصرعته بعـد لحظات، فإذا بالكاميرا الـمحمولة على الونش تـهوي من أعلى عِليّين

تحت القبة السماوية إلى أسفل سافلين فوق وجوه لجنة التحكيم، مُتجنّبةً السقوط في مزيدٍ من الافتتان بداليا.

لماذا يُساور الشِّعرُ خيالي كلما رأيتكِ، فاتنتي.

لاحظ ستيفن شرودي في المشهد، شرودًا ابتلع صوتي وخدّر جسدي لبرهة. قطّب وجهه مُتسائلًا عما حلّ بي. سألتُه إن كان قد لاحظ الفتاة التي كانت تلحق بفتاة الاستقبال، والتقطتهما الكاميرا. قال:

- هل تعرف عنها ما يُثيرُ الاهتمام إلى هذا الحد؟

- هي زميلتي في العمل.

بعد قليل سأل مُجدّدًا:

- زميلتك فحسب؟

لم أملك حبسًا لابتسامةٍ خجلى شقّت ثبات قسماتي. أردف ستيفن وهو يُدير علبة البيبسي الحبيسة الفارغة حول محورها:

- من الواضح أنها خليلتك أيضًا.

قلت بتعجُّلٍ، فشلتُ في كبحه:

- ليست لي خليلة، بالمعنى الذي تفهمه على الأقل. مثل هذه العلاقات المُنفتحة لا يتسامح معها مجتمعنا من الأساس، إلا في طبقاتٍ محدودةٍ جدًا من المُستغرقين تمامًا في الثقافة الغربية المُستوردة. أما نحن (أنا وداليا) فننتمي لطبقةٍ متوسطة، ومحافظة في أغلب الأحوال، لا تتخذ فيها الفتاة خليلًا مُعلَنًا هكذا بلا تحفّظ. نعم، أشعر تجاهها بإعجاب خاص،

وأتصوّر أنها كذلك تُبادلني إعجابًا مُماثلًا، وإن لم تُعبِّر عنه صراحةً، ولكننا في كل الأحوال لسنا خليلَيْن بالمعنى الذي تقصده.

رمقني باستغراب. قد يكون من الكلام أو من طريقتي في قوله. لكنه لم يُعقِّب. ثم عاد ببساطة وهدوء لمُتابعة الحفل، كما لو أنه لم يبدأ حوارًا من الأساس. أنا كذلك لم أُردف بشيء، حتى لا يستشعر مني مزيدًا من التعلّق بالأمر. لكنني أحسستُ حينها بشوقي لداليا يأكلني من الداخل. يقضم حساسيتي المُرهفة تجاهها. تقلّصت أناملي وغاصت أصابع قدميّ في باطن حذائي، دفعًا للوجْد.

ما هي إلا دقائق حتى انفجر المرح في المسرح بمن في محيطه. كأن داليا هي من أتت بشفرة التفجير معها. تلبّست الجميعَ حركاتٌ عشوائيةٌ هزلية. كأنه السحر الأسود، تُزكّيه ألسنة النيران والدخان المتدافع من كل جانب. نوبة من الصرع العارم. ركِبها الإيقاعُ مُسيطرًا على الأجساد النشوانة.

جذبتُ أجزاء الذهول، وأطلقتُ سؤالًا مُفعمًا بالدهشة نحو ستيڤن:

- ماذا دهاهم هؤلاء؟!

- يختارون المُتسابقين.. هكذا يبدأ كل شيء.

هكذا علّق ستيڤن، بنبرةٍ اعتيادية أسكتتني عن المزيد من الأسئلة. غصتُ من جديد في طبقات الجلد الطري، البارد، مُبتلِعًا حيرتي. أُتابع المشهد الجنوني..

حتى وقع ما وقع.

المُسابقَة

ممدوح إبراهيم الآدم

على الشـاطئ أقف وحيـدًا، مُنهـكًا، مُهتـرئ اللحـم، بعدما نـهشـتني الرحلة..

ألـم يقف يونس ذات الوقفة بعد أن لفظهُ الحوت؟

سِـرتُ بين الناس سـنين نبيًّا، مُحِبًّـا، مُلهَمًا، مُلهِمًـا، أدعوهم دعوة نقاء وخير، وكثير من العمل..

صُدمتُ في البعض، أو بالأحرى في الجميع باسـتثناء البعض، فأوليتُهم ظهري وسعيتُ مُغاضِبًا في اتجاهٍ مُعاكس..

ركبتُ سـفينة السـطوة والحظوة، مُـدرِكًا أنني قد خلعـتُ أردية الأنبياء، وأستبدلتُها بثياب الرحّالة..

ثـم أزِفت اللحظة!.

زعقَت أطيافُ السـقوط تأمُر بالطعـام، فالتقطني القدر وقذف بي لظلمة أبَت إلا أن تبتلع.. وتبتلع.. وتبتلع..

على الشاطئ أقف اليوم، وحيدًا، غريبًا، مُهترئ اللحم، بلا شجرة يقطين تؤويني، وتؤنسني بزفيرها غير المسموع، وحنوِّها غير الـملموس..

ولكنّ البدن لـم يعُد أهلًا لأوراقها، فلا جِلد لي اليوم. تساقط جميعُه مع ما تساقط من قبل، ولن يُواري سوءتي إلا جلدٌ مستعار، ليس مني.

* * *

الصخب بالخارج يملأ صدري بهواءٍ ثقيل؛ هواء مُعبَّأ بالرصاص وفلوريد التنجستين، برواسب السفن، بمخلفات مفاعلات نووية، وإشعاعات قنابل تجريبية، وأسمنت بيوت مقصوفة، مُهدَّمة. هواء يصعب دفعُه، لا يمتصُّه نظام التهوية كما يفعل بدخان سيجاري الكوبي.

متى كانت المرة الأولى التي دخَّنتُ فيها سيجارًا كوبيًّا؟

مضى زمنٌ طويل منذ تلك المرة الأولى، حتى كدتُ أنسى حياتي السابقة على ذلك اللقاء؛ لقائي مع أصدقائي المُستثمرين، الذين هم أيضًا أصحاب المستشفى التي قتلت همسة. التقينا يومها كي نضع الرتوش النهائية، والحاسمة، للرؤية الخاصة بمشروعنا الاستثماري، واستراتيجيات وأهداف تُحدِّدها الأرقام والتوقيتات، والجداول الزمنية الأكثر تحديدًا، والأقل مرونة..

عندما أتخيَّل آباء أميركا المُؤسسين- بينما أكتب مذكراتي اليومية- لا تبتعد الصورة التي أتخيَّلها كثيرًا عن اجتماعنا ذاك.. ضمَّتنا قاعة صغيرة، حميمية الأجواء، مُستأجَرة في فندق الميريديان الذي تغير اسمه بعد ذلك، تطل على النيل الذائب تحت قيظ شمس يوليو كفضَّةٍ مُنصهرة، تُسكِرُه الحمّى، وتُرديهِ الرحلة الطويلة أسفل أقدامنا، مُسلِمًا مصيره. اتَّكأنا على أرائك وثيرة، مُتحلِّقين حول مائدة مُستديرة وواطئة، تحمل أطباق مُكسرات

ومُقبِّلات وبعض القوارير الكريستال بديعة التكوين، التي حَوَت سوائل لم أتبيَّنها آنذاك، تباينت ألوانُها بين الأحمر النبيذي والأصفر الداكن والبني. لاحظْتُ ساعتها أن لهذه القوارير أماكن شاغرة أعلى البار الكلاسيكي الخشبي، الذي احتلَّ ركنًا قصيًّا من القاعة مُضاءً بلمبات الهالوجين شديدة الوهج.

بعدما تبادلنا أنخابًا ودودة وكلمات ترحيب بروتوكولية، بدأ الواحد تلو الآخر في إثارة النقاط أو في طرح الأفكار، أو الإلقاء بالحلول مع قشور المُكسرات الفارغة، وبين عبارات مُتحمِّسة وأخرى مُتحفِّظة، راح رجائي المحامي - مُمثِّل مكتب الاستشارات القانونية الذي اتَّخذ مكانه وحيدًا عند البار مع ما اختصّ به نفسه من المشروبات والمُشهِّيات- يقذفُ بتعليقات مبتورة مُتقطِّعة، مع بقايا الكبيبة أو حبيبات اللحم المفروم التي استخلصها بنهم من جوف السمبوسك، فيعيره البعض انتباهًا فاترًا أو مبتورًا، ثم يرشدُه أحدهم أن يتعامل مع هذه النقطة أو تلك بـ «طريقته»- التي لم تتحدَّد أبدًا- حيث إن هذا البند أو ذاك من أهم المحاور التي ارتكزت عليها خطة المشروع الاستراتيجية، ولا يمكن «الآن» إدخال أي تعديل عليه.

لا أنسى كيف أنصتُّ إلى صوتي بإعجاب آنذاك، وأنا أنافسهم في المقترحات وإبداء المُلاحظات، كأنه صوتُ شخص غيري، أكثر رأسمالية من الرأسماليين أنفسهم، وأعلى كفاءةً في إيجاد الحلول المُبتكرة التي تُعظِّم الجانب الربحي من المشروع. شعرتُ ليلتها، بعد أن خلدتُ إلى نفسي في المساء مع سيجار بادرون الثمين الذي أهدانيهِ أحد شركائي الجدد- إعجابًا بأفكاري- شعرتُ أنني قد تحوَّلتُ بيُسرٍ غريزي ونعومة

حريريَّـة مـن عقيدتي الاشـتراكيَّة البائدة إلى فكر رأسـمالي خالـص، يؤثِر الذات والمصلحة القريبة الـمُباشـرة، فوجدتُ تحوُّلي ذاك طبيعيًّا ومُريحًا، كمن اكتشـف خطأً جذريًّا في نظريته الأثيرة، يـهدمها من أساسـها.. شعرتُ براحةِ مَن تقيَّأ طعامًا مسمومًا دفعةً واحدة، فوُلِد من جديد..

* * *

من مُفكِّرة ممدوح رحّال:

الأبيـض ملكُ الألوان؛ حقيقة كونية ما عـاد يقتاتُ في ربوع الأرض من يتجاسر على إنكارها. لذلك يأبى بياض الثوب أن يتلطَّخ بغيره من الألوان، كانت أحـمر أو أسود أو أي لون آخر.

«سنسوقهم كما نسوق وحوش الغابات، إلى صخور الجبال، حتى يتحرَّر الوطـن مـن أي لون يُلطِّخُه.» هكـذا أعلنها توماس جيفرسـون- أحد الآباء المؤسِّسين- حربَ تصفية وتنقية ضد الـهنود الحمر أو الوحوش السود، لا فرق.. حرب تأسيس لإمبراطورية الرجل الأبيض الوليدة، كما يراها جورج واشنطون. لا وجود في إمبراطورية بيضاء كتلك لمن اصطبغ جلدُه بـحَمارٍ أو سَواد، حتى يبقى الثوب الأبيض ناصعًا، خاليًا من الشوائب.

وهـل يجـرؤ أحدُهم على منازعـة رجل أبيض، يُكابد العنـاء كي «يُحرِّر وطنه»؟! هه!

ثـم إن ما حدث للسكان الأصليين لا يعدو كونه «سوء بخت»، لا أكثر هكـذا جاء فـي وصف جون آدمـز- أحد الآبـاء المؤسسـين أيضًا- لحرب المكسـيك، التي أدار رحاها بنفسـه وعقله وجسـده، هكذا قال في مذكراته

التي تضوَّعت من أوراقها رائحة ندم أو عدم ارتياح غير مفهوم، حيث قال:

«السكان الأصليون، قليلو البخت، الذين كنا نبيدهم بلا رحمة، بل بقسوة غادرة».

هل قال هذا حقًّا؟ قالهُ بنفسِه؟! نعم قال، بعد أن أمَّن موقعه المرموق في قائمة الشرف، كثاني رئيس للولايات المتحدة الأميركية. لا يُمكن أن ينبني على «سوء بخت» كهذا رجوعٌ عن المبادئ التأسيسية التي نشأت وفقها الإمبراطورية، التي وُلِدت عملاقة، والعملاق يبتلع من حوله حتى لا يَبقى غيرُه، وهذا مصيره الطبيعي.

وهذا هو تمامًا ما سطرهُ الأب المُؤسس، خالد الذكر، جون آدمز - وكان آنذاك لا يزال سكرتيرًا للدولة - مُتحدِّثًا عن المبادئ التأسيسية:

Expansion is the path to security.

أي أن «التوسُّع هو السبيل نحو الأمن». ترجع مقولته تلك إلى ما قبل احتلال ما أصبح اليوم ولاية فلوريدا، بالمزيد والمزيد من «سوء البخت» الملازم لهؤلاء الهنود الحمر الملاعين!

وفي مذكرته كسكرتير للدولة حول أهمية هذا التوسُّع، جاء الآتي:

«الهنود الحمر والعبيد الهاربون يُمثِّلون تهديدًا مُباشرًا للدولة. وجودهم في حدِّ ذاته يمثل تهديدًا، فضلًا عن كونهم يقفون أمام توسُّعنا في كافة الاتجاهات».

يُمكنكَ - إن شئت - أن ترجع لما قاله المؤرخ الأميركي جون لويس جاديس، والذي أشار إلى أن خطًّا استراتيجيًّا يمتدُّ على استقامته من جون

آدمـز وحتى جورج بوش، ذلك الرئيس الحديث الذي قدَّم انعكاسًـا جديدًا - أكثـر عنفًـا بالتأكيد لفـارق الزمـن والإمكانـات- لـمبدأ «التوسُّـع مقابل الأمـن»، بـل ربـما قـدَّم إعادة صياغـة كاملة، وبعقليـة أكثر نضجًـا وتفتُّحًا، بحيـث صار السـبيل نحو الأمن هو الاسـتحواذ الكامل علـى العالـم، على الفضاء، على الـمجرَّة.. لِـمَ لا؟ فلا حدود لمدى التوسُّع الذي تحتاجه كي تضمن «الأمن»، لا حدود بالمرة.

ولا حدود لما عليك أن تبذله لإرضاء النظام.

أمل معاطي عبد المعبود

لـم أفرح لاختياري- حقيقةً- كما فرح الـمُتسابقون الآخرون..

ربـما لأنني لـم أستوعب اختيارهم لي أول الأمـر، فلم أكُن أتخيلهُ من الأسـاس، خاصة أنني أحد الـمعدودين على أصابع اليد الذين لـم يلتحموا مـع موجـة الرقـص الـهيسـتيري التي انتابـت الجميـع، أو ربـمـا لأنني لـم أعُـد أتذوق الفرح بشـهيتي القديـمة مثلما تقول أم إسـلام- بلغتها الركيكة الـمُبتذلـة بالطبـع- كلمـا زار بيتنـا خبر مُفـرِح، في حدود فهمهـا الأجوف وعقليتها الـمُسطحة كبلاطٍ أسـمنتي..

أمسـاكِ الله بالخيـر والفـرح يـا أم إسـلام، وأزاح عنـكِ حِمـل ردفيْكِ العظيميْن..!

النتيجـة أننـي وقفـتُ ذاهِـلًا عندمـا أدركـتُ اختيـاري، أتلقّـى نظرات الـمحيطين بي، وقد سُـلّطَت عليّ مع شـعاع النور السـماوي الذي قصدني دونًـا عنهـم. حملَت لـي النظراتُ كراهيـةً خالصـة وحقدًا لا يتـوارى. لـم أعـرف وقتها ما يتوجّب عليّ فعلُه، فانسـحبتُ من أمامهم بارتباكِ من أفلت ريحًا وسـط جمعٍ مـن الغرباء، وتوجّهـتُ صوب الـمسـرح الـمُرتفع، وقد استدعتني أضواؤه، أنشُد الرجل البـهلوان.

كان يصدحُ أعلى الـمسـرح مُهلِّلًا ومُـحيِّيًا سـبعة راقصين وقع عليهم اختيـار الأضواء السـماوية، من بينهم جيري- الذي هو أنا! ذكّرتني إشـارته تلـك أنني لا أزال مُسـتترًا وراء زيٍّ تنكري- وكنـتُ قد اعتدتُه حتى لـم أعُد أذكر أني أرتديه- وأنني لستُ عاريًا أمام نظرات الـمحيطين بي، وقد راحت تتفحّصني منذ اختياري.

اقتبستُ شجاعة جيري، وشيئًا من مرحه الذي هو ماركة مسجّلة لكل ما يفعل، رُحتُ أُلوِّح للبهلوان من أسفل الـمسرح. عندها، استوقفتني ستراتٌ سـوداء تحشوها عضلاتٌ بشـرية مُنتفخة كعوامات إنقاذ، وقد تسمَّرَت عند أطراف الـمسرح وتعلَّقت بـها أجهزة اتصال ومُراقبة تُثير الذعر..

- ومعانـا أول مُتسـابق وصـل على الــ(stage).. جيري، رمز الشـقاوة وخفة الدم، الذكاء الـمُفرط، وعبقرية الحجم الصغيّر.. ضعف الإمكانيات، وقوة الحيلة والدهاء.. حيّوا معايا: جيريـــــي..

جذبنـي من قفازي الأبيـض الـمُنتفخ، فكاد ينخلع من يـدي وأنا أهوي على أرضية الـمسـرح فاقدًا توازني، زاحفًا بين البناطيل الرسـمية والأحذية اللامعة!

- يا حركاتك يا جيري.. يِـخرِب عقل شيطانك يا عفريت!

هكذا صاح الرجل البهلوان، مُستفيدًا من سقطتي في رفع مؤشر الحماس أسـفل الـمسرح، واستثارة مسـتوياتٍ أعلى من الضحك. هل تعمّد إيقاعي كي يؤجِّج الـموقف؟ أم أنه استغل بذكائه موقفًا عفويًّا لصالحه؟! تساءلت، وأنا أتـمالك نفسـي واقفًا من جديد. حاولتُ أن ألاحظه عن قرب عبر ثُقبَي

قنـاع جيـري، لكنه سُـرعان ما ابتعد نحو حافة الـمســرح جاذبًـا الـمزيد من الـمتسابقين، بـهدوء وحرص هذه الـمرة.

تفحّصتُ الوجوه تباعًا وهي ترتقي الـمسرح..

أستاذ عبد الرازق إخصائي خدمة العملاء بالشركة، مُتنكِّرًا في زي شارلي شابلن، تكشفُ حقيقته لأول وهلة أذناه الـمنتصبتان وانحراف عينه اليسرى.

ياسر مندوب التسويق النحيل، مُحاكيًا هيئة جيم كيري في فيلم القناع.

ميرفت موظفة الإدارة الـمالية، القصيرة الـمُمتلئة، مُفلطحة الوجه كقطة فارسـية، مُرتديةً زي ضابطة شـرطة- ولـهذا ظلّت صورة رياض القصبجي تُلِحّ على مُـخيّلتي كلما لـمحتُها، حتى خرجَت من السباق فيما بعد.

أسـتاذة داليا سـكرتيرة الدكتور مـمدوح، في زيٍّ أشبه بفارسات الأفلام التاريـخيـة، جعلها تبـدو أكثر إبـهـارًا وغُنجًا، رغم صلابتهـا البادية وقتامة الماكياج.

صبـري سـائق الشـركة، فـي زيّ الكلـب بندق، وقـد راح يتحـرك فوق الـمســرح في خُفِّه الـمحشو، مُـمسكًا ببوزه الطويل خشية أن يصطدم بأحد ما أو شيءٍ ما- عرفته حينما اقترب ووقف إلى جواري، فالتقطَت أنفي رائحةَ عرقه الـممزوج بعبق الحلبة الـمعتّقة، التي لا تُفارق جسـده، وتأكّدتُ حين أجاب تحيّتي بصوت خفيض.

إيڤون مُدخلة البيانات، الحبلى في شـهرها السـادس أو السابع، سـمراء البشـرة زائغـة النظـرة، مُتنكـرة فـي زي راهبـة حُبلـى، لأول مرة فـي تاريخ الرهبنة..!

اصطف سبعتنا، بينما أعلن البهلوان وداعَه الـمشاهدين لفاصل إعلاني، يتبعه عرضٌ عن حياة الـمُتسابقين، ثـم يُعاود بعده اللقاء بـالجميع. انسحب سـريعًا إلى كواليس الـمسـرح، فاستقبله شـاب وشـابة شـقراوان وانـهالا علـى وجهه بأدوات الـماكيـاج، حتى قبل أن يـختفي تـمامًا خلف الشاشـة العملاقة. أما نحن، فهرول في اتجاهنا اثنان من الـمنظّمين- أجنبيان أيضًا- وأخذا يُـحركاننا للأمام أو للخلف، يسـرة أو يـمنة، حتى حاذينا خطًّا أصفر علـى أرضيـة الـمسـرح الـمُضيئة لــم ألحظه قبل هـذه اللحظـة، ثـم أخذا يُنسِّـقان أزياءنا وهيئاتنا الواحد تلو الآخر، في سرعة شابـها شيء من التهوّر والشدة.

أكثـر ما سـاءني هو أن يدفـع أحدهـما إيڤـون الحبلى إلى الـوراء- وإن كان دفعًا هيّنًا لبطنها البارز- وأن يبادر الآخر بجذب ثوب الأستاذة داليا من أعلـى الكتفيْـن وحول الخصر كي يُصلح من هيئتها. كـدتُ أتدخّل، ولكني تراجعـتُ، خشـية ألا يفهـم الأجنبيان مـا أعنيه، فلـن يفهما كلامـي وربـما تصـوّرا أن تدخُّـلـي نوعٌ من التهوّر أو الاعتداء.. سـكتّ، كمـا فعل الباقون، فكونـهمـا أجنبيْـن يعصمهما من سـوء القصـد، ويجعـل تصرفاتـهما أكثر تقبّلًا عنـد معظـم الناس لسـبب أجهله! هكذا حدَّثتُ نفسـي قبـل أن أعود للوقوف صامتًا.

ظهر بعدها البهلوان فوق الـمســرح ثانيةً، وقد اسـتعاد بريقه وانتشـاءه، فأنـارت الكاميـرا الـمحمولـة التـي تواجهُـه، وشـرع الـمنظّمون يُسـكِتون الحضـور أسفل الـمسرح- بل ويهدّدونـهم باستبدالـهم بـجمهور آخر على مـا يبدو- فلم تـمُر لحظات إلا وكان الجميع غارقًا تـمامًا في الصمت، ثـم

توالت عدّاتُ مُـخرِج العرض قبل أن تُشِـع الكشـافات وتتبدّل الـموسيقى، ويصدح البهلوان من جديد.

- وحشتوني وحشتوني وحشتوني.. رجِعتلكم بعد فاصل طويل، ومش عايز اقول لكم الحماس على الـمسـرح شـكلُه إيه. طبعًا مش هِننسى نشكر الرعاة، اللي من غير دعمهم ما كُنّاش هنِظهر لكم الليلادي بالإبـهار ده!

تنـاوش هديرٌ من التصفيق مع قَصـفِ مفاجئ ورهيب من قواعد إطلاق الألعـاب الناريـة علـى الجانبيْن، ثـم ختم المعركـةَ قذفٌ مُتلاحق لألسـنة اللهب، شعرتُ بحرارتـها تلسع مؤخِّرتي من هول منظرها..!

- أثناء الفاصل اللي فات، اتعرّفنا على السبع متسابقين اللي وصلوا معانا للمرحلـة الأولى من تصفيات الدسـتينو.. رغم إننا ماعرِفناش أسـماءهم، إلا إننا شـوفنا خلفياتـهـم ومعاناتـهم، وأقدارهم اللـي وصّلِتهم لغاااية هنا، عشان يحققوا أحلامهم.. يا ترى مين فيهم هيكمّل حلمه للنهاية، ومين اللي هيودَّعنا بدري بدري بعد الجولة الأولى..

الـمُتسابق اللي ما يحالفوش الحظ في الجولة الأولى هيستمر في متابعة زملائه من على الـ(stage). وعشان ماحدِّش يروَّح زعلان، كل الـمُتسابقين هيفـوزوا معانا الليلادي، ده شـيك بـ 10000 جنيه لكل متسـابق يخرج بعد الجولة الأولى، وده شـيك بـ 25000 جنيه للمتسـابق اللي يسيبنا بعد الجولة التانيـة، أمـا اللـي هيوصل للجولـة التالتة ومـا يحالفوش الحـظ في تحقيق اللقب، فعندي ليه مفاجأة عظيمة مش هكشف عنها دلوقتي..

استنّونا، بعد الجولة الأولـى!!

أطلق كلمتَيه الأخيرتين مُدوّيتين، تشقّان الفضاء، كأنــما تــمُطّان الـهواء من حولـهما، وانسحب إلى الوراء مُشيرًا بسبابته نحو الكاميرا الــمُتدلية من الونش، فتابعتْهُ وهي تجوب الفضاء طولًا وعرضًا، مُهيمنة على الرؤوس..

داليا عادل سراج

عندما توقفت الـموسـيقى فجأة، هبطَت من السـماء أشـعة ضوئية فوق عدد من الرؤوس، جعلتني أشعر أن سفينة فضاء تتعلّق فوق رؤوسنا!!

نظرتُ لأعلى أستطلع مصدر الضوء، فمرّت برهةٌ قبل أن أنتبه إلى تلفُّت الأنظـار إليّ، وقبل أن أدرك أنني أمتلكُ واحدةً من هذه الرؤوس الـمُضاءة، التي تسلّطت عليها الأشعة البيضاء!..

لـمحتُ بيري تُصفّق بحرارة، وقد اتّسـعت عيناها وأشرقَت من حولـها رموشـها الموصولـة فـي بـهجة غامـرة، وامتـدّ بوزُها نحـوي مُطلقًا صيحة حـماس..

- أووووووو!.. سيبي موبايلِك معايا.. أحسن ما يِسحبوه منك فوق!

صرخَـت بيري فـي أذني، وجذبت من يـدي الـهاتف بسـرعة.. دفعتني وهـي لا تزال تُطلـق صيحاتـها الحـادّة حتى ارتقيتُ المسـرح، بـمسـاعدة البهلوان الـمُبتسـم. التقط يدي ولثمها فور صعودي بجواره على المسـرح، في خضوعٍ أحرجني!

أحسسـتُ كمـا لـو أننـي نجمـة هوليووديـة تُشِـعّ ألقًـا، وقـد اتّخذَتـها الفلاشاتُ مرمىً لبريقها!..

سرعان ما استوعبتُ نظرات البهلوان، التي لم تمنعني طبقاتُ ماكياجه التي صبغت وجهه من ملاحظتها، شقّ بعينيه أعلى صدري، بينما يعتدلُ واقفًا، حتى استقرّت طعنتُه الأخيرة في شغاف حيائي! أوليْتُه ظهري بسرعة، وقصدتُ صف المُتسابقين في الخلف.. دفعتُ عن خاطري صورة عينيْه وهما تلتهمان ظهري المكشوف وخصري المُكتنز و... ردفيّ الحبيسيْن تحت القماش الأسود الرهيف.. اعتدتُ مثل هذا الجوع في أعين الرجال كلما مرّت أمامهم وجبة شهيّة مثلي.

سفالة!!

استدرتُ كي أواجه الجمهور.. كنتُ أنتمي إليه قبل لحظات!.. كيف تبخَّر سريعًا ذلك الشعور بالانتماء، وسكنَت مكانه رهبة جامحة مُسيطرة؟! ربما يكون شعورًا طبيعيًّا، لظهوري لأول مرة أمام جمهورٍ يُتابعني..

أحسستُ بخلايا جسمي - التي كانت ترقص منذ قليل - وهي ترجف، كما لو أنني على وشك التجمّد! جال في نفسي هاجسٌ يؤكد أن زملائي المُصطفين بجواري ينتابهم جميعًا شعورٌ مُماثل.. ربما!.. جميعنا منذ قليلٍ كان ذائبًا أسفل المسرح، مُنصهرًا تمامًا وسط هذا الحشد المُواجِه لنا، ما بالنا الآن قد تحوّلنا في التّو لغريميْن مُتواجهيْن، يترقّبُ كل منهما مبادرة خصمه، كي يجيء بردّة فعل مناسبة؟!

اهتزَّ المسرح بأصوات آلاتٍ وترية وأخرى إيقاعية أكثر حدّة، فاندفع مؤشر اضطرابي لارتفاع خطِر، قارب منطقته الحمراء!..

هو ثـمنُ للنجومية يا دودي، وعليكِ أن تتحمّليه! تـماسكت، والتجأتُ إلـى حديث البهلوان- غريـمي منذ لحظات- هربًا من الجمهور الـمُترقِّب، فإذا به يُذيع للكاميرات ما نحن بصدده الآن:

- الجولة الأولى من الدستينو بنِسَـمّيها جولة الإحماء؛ تسـخين مبدئي يعني، عشـان الـمُتسـابقين يدخلوا أجواء الـمُنافسـة، والـمُشـاهدين يِبتِدوا يوزنـوا كل مُتسـابق، ويختـاروا الأجـدر بالدعم والأحـقّ بالفـوز بالجايزة الكبرى: الـ 25 كيلو دهب، ده بالإضافة للمشـاركة في فيلم عالمي من إنتاج الـمؤسسـة الراعيـة، وده مش ممكـن يتحقّق إلا من خـلال تصويتكم، اللي هيبدأ من دلوقتي، ولغاااية نـهاية الجولة..

قبل قليل، كنتُ شاردةً أحزِّر مبلغ الشيك الذي سأحصل عليه إذا اجتزتُ الجولتيـن الأولـى والثانيـة، وكذلـك الـمُفاجأة التـي احتفظ بـهـا البهلوان لوقتهـا، ثـــم داهـمتنـي كلمة «ذهـب»!.. تـلألأت حروفها في ذهنـي أثناء تصفيـق الجمهور، خاصة عندما لاحظتُ السـبائك الذهبيَّـة الـمُعلَّقة خلف منصة لجنة التحكيم، تضوي في ســماء المسـرح كلآلئ القصص الخيالية، رغم أنـها تتدلى أمام شاشةٍ تُشِعّ أنوارها في الخلف..

أهذه هي الجائزة؟! شيء مُبهِر!!

انتبهـتُ إلى صوت البهلوان وقد عاد إلى القرقعة من جديد.. أضاف أن لجنة التحكيم ستسأل كل مُتسابق بعض الأسئلة الشخصية، تتعلّق إجاباتـها بـمعلومـات وردت في الأفلام التي عُرِضت أثناء الفاصل- أفلام شـاهدها الجميع عدا الـمُتسـابقين أنفسـهم!!- وعلى كل مُتسـابق أن يلتزم الصدق والدقة ما اسـتطاع، لأن الـمُشاهدين والحضور هم من سيقرّرون ما إذا كان

الـمُتسـابق مُستحقًّا لدعمهم للاسـتمرار في المراحل التالية، أم أنه يستأهل خروجًا مُبكِّرًا غير مأسوفٍ عليه!!

قـال كذلـك إن لـكل مُتسـابق فرصـةً وحيـدة لاسـتبدال سـؤاله خلال الجولات الثلاث، أما الـمُتسـابق الذي سـيمتنع عن إجابة الأسئلة، الدقيقة والشـائكة، فمآله أن يُواجه تحدِّيًا ربـما يفوق السـؤال صعوبة، ويستلزمُ بلا شك قدرًا كبيرًا من الجسارة للقيام به!..

أدركتُ عند هذه اللحظة أن فيلمًا قد عُرِض يتناول الحياة الشخصية لكل مُتسـابق- وأنا من بينهم بالطبع- فانتاب أمعائي اضطرابٌ مفاجئ، وشعرتُ بالتوتّر يتجاوز حدود منطقته الحمراء، ويدفعني نحو تفجيرِ ذاتي!!

تُرى، ماذا عرضوا من تفاصيل حياتي؟ ماذا انكشف مني؟!

هل جاء بين ما عرضوه ذكرٌ لـراجي!!

مـاذا يعرف هؤلاء الـمُشـاهدون عني الآن، يجعلهـم يرمقونني بنظرات نـهِمة مُتفحّصة هكذا؟!

تخبّطَت في خاطري الأسـئلة، قبل أن تُدوّي في السـماء جملة البهلوان الأخيرة..

- الانسـحاب ممنوع منعًـا باتًّا خلال جولات الـمُسـابقة.. الـمُتسـابق اللي يفشـل في إجابة السـؤال، هيكون ما قُدّاموش غيـر العبور من التحدي اللـي هتحكـم بيه اللجنـة، أو الاسـتبعاد التام وخسـارة مكافأة اشـتراكه!.. فاصل قصيّر جدًّا، ونِرجع لكم..

أثنـاء الفاصل، تابعـتُ عبد الرازق- إخصائي خدمة العملاء بالشـركة- ومعه صبري السـائق وهـما يعترضان على مسألة عرض أفلام عن حياتـهما الخاصـة، بينمـا استفسـرَت إيڤـون وميرڤت بقلق بادٍ وتحسّـس شـديد عن محتوى الأفلام.. أما أنا فآثرتُ الصمت والإنصات حتى يتبيّنَ لي الأمر من تلقاء نفســه. من الحكمة ألا أُقحم نفسي في أية مُشكلة مع اللجنة التنظيمـية، مهما كان السبب، فمِن البديهي أنـهم يدركون أنني الوحيدةُ الـمُؤهّلة للفوز بالجائزة الكبرى، وكذا الـمُشاركة بالتمثيل في الفيلم العالمي.

مَن مِن هؤلاء يُـمكنه الظهور في فيلم عالمي؟!

بـل مَـن منهم يسـتطيعُ التحـدُّث بلغـة أجنبية مـن الأسـاس؟ لا أحد طبعًا!!

***

جـاء دوري فـي السـباق بعـد إيڤـون- صديقتـي- وعبد الـرازق، وكما توقّعتُ أثناء الـمُتابعة، فقد كان مصير كل منهما الإبعاد مع نـهاية الجولة.

جـاءت الأسـئلة حرجـةً للغايـة! تـكاد تكـون فاضحـة في حالـة إيڤون المسـكينة، وشديدة الحساسـية بالنسـبة لعبد الرازق! وهو رجل وقور رغم بساطته..

سُـئلَت إيڤـون- التي ارتدت زي راهبة- عن حُـب مرَّ بـها وكاد يعصف بحياتـها ويقتلعها من الجذور، فكان ما تبادر إلى ذهني عند سـماع السؤال أنـهـا لا بـدّ وأن تكـون قد أحبَّت شـخصًا مُسـلمًا في وقت مضـى، فكادت علاقته بـها تجرّها إلى قطيعة كاملة مع حياتـها السابقة!

من الطبيعي ألا تقصَّ عليَّ شيئًا من هذا، فلم يـمر على صداقتنا أكثر من أشهر قليلة، ولكن- إن كان قد حدث- فيكفيها أن احتفظت بحياتـها ابتداء، هكذا تفكَّرت!

تيقَّنُـت من توقعي لـمّا لاحظتُ تغيّر ملامـح وجهها إلى الـهلع التام! أفزعنـي أن تُعلَـنَ معلومـةٌ كهذه على الملأ بـهذا الشـكل، أثنـاء غيابنا نحن الـمُتسابقين عن مُتابعة ما يجري على الشاشة!

رفضَـت إيڤـون الإجابة- بالطبـع- قالت إنـها لا تـملـك إجابة عن هذا السؤال، واضطرَّت إلى قبول خيار التحدي..

فـي اللحظات التالية، كنتُ مُسـتغرقةً في التفكير فيما سـيواجهني إذا ما حـان دوري، خاصة بعـد الفضيحة التي ألـمَّت بصديقتـي الـمُتزوجة، ذات البطن البارز! فما بالـهم بـمن هي في مثل وضعي الاجتماعي؟!

فـي هذه الأثناء، سـحب أحد رجال لجنة التحكيم كـرةً من جوف بلورةٍ زجاجيـة، وفتحها كي يسـتخرج منها ورقـةً صغيرة، وقرأ علـى الجمهور ما ورد فيها؛ التحدّي الذي وقع من نصيب إيڤون المسكينة!!

لـم أنتبه لما قاله البهلوان، فقد كنتُ شـاردةً، مُشفقة من الآتي، لكنني ما أن لاحظتُ هلعًا أكبر تتشكّل به ملامحـها- المصبوغة بحزنٍ فطري- حتى انتبهتُ ثانيةً وأدركتُ أن فجيعةً ما تُواجه حبيبتي إيڤون!..

سـألتُ عبد الرازق، الذي جاء موقعه بيني وبين إيڤون، عمّا طُلِب منها، فطأطأ رأسه هامسًا:

- زي ما سمعتي حضرتك.. عايزينها تِمسح جِزَم الخمسة بتوع اللجنة، بطريقة لا مؤاخذة... مُش هيّه يعني.. وكُل ده في 30 ثانية بس!

- كُل ده اللي هوّه إيه يعني؟! مش فاهمة!..

سأل باقتضاب:

- هوَّ حضرِتك ما سمعتيش؟!

أفهمتُه أنني لم أنتبه لِما قرأه الرجل، فأومأ مرتبكًا أن أُعفيه من شرح المزيد، واستدار وهو يُتمتِم بما بدا لي آيات قرآنية، معجونة بالقلق..

حاولَت إيڤون التفاهم مع عضو لجنة التحكيم، ذي البسمة الحادّة كنَصل، فما كان منه إلا أن شهَر في وجهها الورقة كحُكم واجب النفاذ.. تدخّل البهلوان سريعًا مُسيطرًا على الموقف، بينما لمحتُ ساقَي إيڤون ترتجفان أسفل رداء الراهبات الأسود. ذكّرها بأن الانسحاب غيرُ وارد، وأن معناه الوحيد أن تواجه عقوبةً كالتي واجهتها إليزابيث بارتون، راهبة مدينة كِنت، التي تنكَّرت إيڤون في ملابسها، وهو التعليق من خشبة ترتفع فوق المسرح بمسافة سبعة أمتار، قبل أن تخسر الشيك! لقربي من إيڤون، سمعتُها تخبره إنها ترتدي زي راهبة وحسب، كما طُلِب منها، ولم تقصد شخصيةً بعينها، فعاجلها بتوضيح أن صوتها لن يُسمع بغير ميكروفون، وأن اللجنة أخبرته بالشخصية المقصودة، والجميع مُلزم بما تُقِرُّه اللجنة، كما جاء في الإقرار الذي وقَّعتهُ قبل بدء المسابقة!..

لم أستوعب ما قاله البهلوان بخصوص العقوبة، ولم تمهلني الأحداث وقتًا لاستيعاب شيء، فقد كان ما تلا ذلك أشدَّ وطأة بكثير، وأسأل الله أن

ينمحي تماما من ذاكرتي ومن ذاكرة إيڤون- إن أمكن- فالتحدّي الذي أُرغمت على قبولِه لم يكن إلا المصير الأسوأ على الإطلاق!!

وقف خمسة رجال من لجنة التحكيم في نصف دائرة تتوسّط المسرح، مُتباعدين، وقد ضمّ كلٌّ منهم ذراعيْه فوق صدر سترته الأنيقة السوداء، ووقف وقفةً تشي بصعوبة التحدّي، فارجًا ما بين رجليْه قليلًا، في انتظار إشارة البدء لإيڤون المكروبة، كي تُبادر بـ... بمسح أحذيتهم بـ... بعجيزتها!

كان مشهدًا مُخجلًا للغاية.. بل شنيعًا!!

تُهرول المسكينة ناحية الأول فتوليه ظهرها، وتجلس القرفصاء بحيث تُلامس عجيزتها أعلى حذائه و...! لا، لا يمكن تصوّر ذلك! كان الأمر مُهينًا جدًّا، والإهانة الأكبر جاءت من جهة جمهور الـمُتفرجين، الذين أخذت صيحاتهم وضحكاتهم ترشق المسرح كنبالٍ مسمومة!! هؤلاء الأنداد الذين كنا ننتمي إليهم قبل قليل، تحوّلوا باعتلائنا المسرح لأعداء مُتشفين، وسُمّار مُتطلعين لمزيدٍ من مُتعة إهانتنا، والضحك من مأساتنا التي تمثُل أمامهم!..

ثم...

ثم لمحتُ دموعًا تنسابُ على وجنتي إيڤون الـمُتيبِّستيْن، من نظراتها الـمُتجمِّدة، التي أوحت كذبًا بالجدية والانهماك في إنجاز التحدي.. لم تكن جادّة، ولا مُنهمكة، بل كانت مُنهزمة، مقهورة، خاصة وقد أخذَت تضُمّ إليها ذيل ردائها الأسود لتحشرَه بين فخذيْها الـمُمتلئيْن، كلما جلست

القرفصاء أسفل سترة أنيقة وفوق حذاء لامع، كي لا ينكشف ما توارى من محاشمها أسفل الرداء!!

***

أوَقَع كل ذلك بالفعل؟ أم أن مخاوفي هي التي عبثَت بخيالي فهيّأت لي ما تجاوز الواقع؟!

طمأنتُ نفسي أنه ربما لم يقع هكذا بحذافيره، فقد كنتُ ذاهلةً بينما راح خيالي يهذي خوفًا من مُلاقاة سؤال اللجنة، ولكنّ ما وقع بعد ذلك لعبد الرازق لم يكُن إلا واقعًا مرئيًّا! فقد أعادتني إلى الوعي نغمات الموسيقى التي تعالت بعدما عادت إيفون للاصطفاف بجواري، وتابعتُ البهلوان الساخر وهو يجذب من بيننا الرجل المُسِنّ، بجسده اليابس النحيل، إلى دائرة التسابق!..

سُلِّطت أضواءٌ ساطعة على الرجل المُتغضِّن من الجهة المُقابلة للمسرح، فبدا لي جسدُه الضامر ككتلةٍ صمّاء من الظل، تتخذ هيئة فزّاعة طيورٍ غارقةٍ في السواد، تواجهُ شمسًا مُتوهّجة لا قبل لها بحجبها..

عندها، التقطَت إيفون كفّي وضغطته لثوانٍ قبل أن تُخلّيه ثانيةً. نظرتُ إليها أستطلع ما وراء إيماءتها تلك، ولكني وجدتها مُطرقة، ترمق الأضواء المُلوّنة التي تُضيء تباعًا من باطن أرضية المسرح أسفل أرجلنا، وهيّأ لي خيالي أنني رأيتُ دمعةً تهبط من عينها، رغم أنني لم أجد لها أثرًا على أرض المسرح المُضيئة! قلتُ لها:

- إوعي تكون بطنك وجعتك!

- لأ، مش حاسَّة بحاجة.

- أومال مالِك؟!

- مالي؟! مافيش.. عايزة اشرب سيجارة بس.

ضغطتُ يدها مواسيةً، بعدما آلمتني نبرة صوتها الـمُتهدِّج، ولكني تشاغلتُ بـمتابعة عبد الرازق..

رحَّب به البهلوان، وسأله إن كان جاهزًا لسؤال الجولة الأولى. أومأ عبد الرازق بالإيجاب على الأرجح، قبل أن يُسأل عن مهنةٍ يـمتهنها سرًّا كل مساء، كي يُحسِّن من دخله ومعيشته، بينما لا يقربها خلال شهر رمضان، ولا يُـخبر بها أحدًا من زملائه أو حتى من ذويه!..

امتصصتُ صدمةً خلَّفها في نفسي السؤال الـمُفاجئ، وحاولتُ استطلاع انعكاسه على قسمات عبد الرازق نفسه، ولكنني وجدتُ ملامحه ذائبةً في الظلال السوداء. تأرجح عقلي في مُحاولةٍ لاستنتاج تلك المهنة السريَّة، ثم قفز لـمُحاولة توقُّع التحدي الذي سيُدفع إليه الرجل الوقور، عندما يتحاشى الإجابة عن السؤال، وهو ما غلب على ظنّي أنه سيحدث..

ولكنَّ الرجل سرعان ما فاجأ الجميع بإجابة سريعة، ومُقتضبة:

- باشتَغل مُشرِف مسرح سعادتَك.

- مُشرِف مسرح.. مُـمكن تِشرح لِنا أكتر طبيعة المهنة دي يا عم عبدُه.

- حضرتَك، بقَعَّد الزباين في السيما الصيفي اللي في شارع التل.

- مُكيّفة السينما دي يا عبدُه؟

- لا يا بيه، بَقول لسعادتَك سيما صيفي!

ابتسم البهلوان دون أن يفغر فاه، مُواجهًا الجمهور الذي ضجَّت سماؤه بالضحك، ثم أردف سائلًا عبد الرازق:

- والزباين بيِدّوك بقشيش كويس يا راجل يا طيب؟

صمت الرجل لبرهة، أظن أنه كان يستحلب ريقًا جفت تربتُه، ثم عاد وأجاب:

- أهُه كل زبون واللي يِطلع من ذمِّتُه سعادتَك ، فيه اللي يطلَّع نُص جنيه، واللي معاه عِيالُه ساعات بيِدفع جنيه، وفيه اللي يعمِل مُش واخِد بالُه ويتلَهّى بأي حاجه، عشان ما يدفعش.

- بس كده يا عم عبدُه..؟

هنا، أدركتُ أن البهلوان يستشعر سيطرةً لا محدودةً على مجريات الأمور، أومأ إلى الجمهور بلفتةٍ استعراضية مرِحة، يستقبل بها ضحكاتٍ فارت حتى انسكبت أعلى المسرح!.. راح يرمق الكاميرا المحمولة التي أحسستُ أنها توشك على الانفجار، لشدة تدافع ضحكات المُشاهدين من خلفها، أولئك الأنداد البعيدين الذين يُطالعوننا من أماكنهم، ويتخذون منّا ملهاةً لأمسيتهم!!

بعد برهةٍ ضاغطة، أردف البهلوان:

- جمهورنا زمانُه مصدوم فيك يا عبد الرازق، بكل أسف، وتلاقيه بيراجع نفسه مرة واتنين قبل ما يصوَّتلَك.. نسبة الصراحة والحقيقة في إجابتك ما تتعدّاش الـ 20٪ يا راجل يا طيب!

نـدّت عن الجسـد الغارق فـي الظلمة حركاتٌ عشـوائية، تشـي بصدمةٍ تصـرخ بلا صـوت!.. رأيته يلوّح بذراعيه مُستفسـرًا من البهلوان عن سـبب مقولته، وحالُهُ أقرب إلى الترقُّب والانزعاج الشديد..

تـمهَّـل البهلـوان قليلًا قبل أن يطعنهُ طعنةً مسـمومة أخرى، بدا أنه جهَّز لـها المسرح على أكمل وجه.. أردف قائلًا:

– حلال عليك الـ 10000 جنيه لو ما كمِّلتش معانا يا عبدُه، بس الأصول ما كنتش تخبّي حاجه على جـمهورنا.. عندك مثلًا: زبون الصف الأخير في الصالـة؛ العيال الحبّيبـة بتوع المدارس، فيه اللي بِيكرمِش لَك حِتَّه بخمسة واللي حِتَّه بعشـرة، وانت الله لا ينوَّر عليك تِبعِد عنُّه الكشّـاف لحد ما مُدِّهُ تخلص! نسيتها دي؟!

تحوَّل هديرُ الجمهور إلى طنين، كغليان ماء أسفل غطاء قدر، انخفضت معه نبرة البهلوان وهو يردف:

– الضَّلمة ياما بتداري، وانت اللي معاك الكشّاف يا عُبَدْ.. ولّا انت نظرك ضِعِف، وما بِتشـوفش العيال زانقيـن بعض في الممرات؟! طب الحمامات اللي معاك مفتاحها يا عبدُه، ما بتشوفهاش هي كمان؟!

تلاعبـت ذراعـا عبد الرازق حـول محيطـه الداكن كعـروس ماريونِت، مُحـاولًا إيقـاف المشـهد عند هـذا الحد!. رغـم ذلـك لـم تصدر عنـه كلمةٌ «مسموعة» واحدة، فالميكروفون حكرٌ على البهلوان، هو من بيده صولجان التصريح والتجريح، لا يُنازعه فيه أحد.

ختـم فقـرة الطعـن العميـق تلك بطعنـةٍ أخيرةٍ نافـذة، قبـل أن يبرح عبد الرازق:

- مـا بتقولـش الحقيقة ليه مـن الأول، انت فاكِرنا هنحسـدك؟! ده انت غلبـان يـا جـدع، ده انـت حتى سـاعات مـا بتاخُدش فلـوس م العيـال لـما بيسـيبوك تتفرَّج! ابقى اشـتري نظارة جديدة لما تاخد المكافأة عشان تتفرَّج كويس!! شكرًا يا عبدُه..

أطلـق البهلوانُ سـراح عبـد الرازق، دافعًا بـه إلى الصفِّ مُجـدَّدًا، مُعلنًا عن الخروج لفاصل إعلاني، قبل أن يُعاود اللقاء بالمشاهدين فيما تبقى من الجولة الأولى..

تنفَّسْـت الصعداء رغم ذهولي مما يجري.. أطلقتُ أنفاسًا حبيسةً كادت تُـمزق قفصي الصدري.. شـعرتُ باشـمئزازٍ رهيبٍ مـن عبد الرازق، ولـم أتقبَّل فكرة أن يعود لكي يقف إلى جواري ثانيةً، بعد ما سـمِعته عنه!!

ولكنـه ما إن صار مُحاذيًا لي، ومسَّـني منه شـعورٌ نافـذ بالقهر والعجز، حتـى وجدتُني ألتقطُ يدَه وأضغطها، مُواسـيةً ألـمَه الـذي غمر هيئته تـمامًا، فأضاف على عُمرِهِ سنواتٍ من الكرب!.

ثـم بعد الفاصل، قد جاء دوري..

راجي مدحت بيومي

كدتُ أفقد صوابي قبل أن تُنهي داليا مشاركتها في الجولة الأولى اللعينة. الأمـور لـم تعُـد تجري رائقةً كما كانت قبل قليل. تلبَّدت الأجواء على نحو غير مُطمئن. انسلخت وجوهٌ حقيقية كنتُ أصدِّقها، فكشفَت أسفل منها عن وجوه أخرى، لـم أتصوّرها مُـمكنة.

مكثـتُ مع سـتيڤن في برودة وهدوء غرفـة التحكم والمراقبـة، مُحتجبًا خلـف عيـون الكاميـرات، وراء عُزلـة الشاشـات. لا أسـتطيع التحكـم في مجريـات أي شـيء. لا يـمكنني مراقبة مـا كُلِّفتُ بـمراقبتـه وتدوينه. كيف يُـنتظـر منـي أن أراقـب أطقم عمـل وأتابع أداءهـا، بينما أشـاهد أمامي في الشاشـة 13بشـرًا قد تحوّلوا لأدواتٍ تلهو بـها الأطقم. دُمى مُستسلمة لأيادٍ تعبـث بـخيـوط مصائرهـا. جُـنّ جنوني أول الأمـر، إذ رأيـتُ داليا تتعرض لتحرش أيادٍ أجنبية بثيابـها وشـعرها. كأنـهم يـملكون حق التصرف في كل تفصيلةٍ يعتبرونـها جزءًا من المشـهد. كأنـهـم يـملكون الأضواء والظلال، الضحكات والأنّات، الماكياج والأزياء، الشـعور والأجسـاد، بـما في ذلك البشر. بعدما تصاعدت وتيرة الأحداث، وجدتني أُسائل نفسي: ماذا بعد؟

شاهدتُ حُبلى تـمسـح أحذية السادة بكبريائـها نظير مبلغٍ تافه، ورأيتُ كهلًا يبتلع المهانة قرص دواءٍ مُرّ، منتهي الصلاحية، كي لا يخسر كل شيء.

فمـاذا ننتظـر؟ ماذا يـمكن لـذاك السـخيف الـمُتعجـرف، الـمُتخفي خلف وجـه بـهلوان هازئ، أن يقترفهُ، بعد أن لـمَّع أرضية المسـرح بكرامة إيڤون الحزينـة، وحبـك مشـهدًا هزليًّـا وفاضحًا من خيـوطٍ توارت فـي حياة عبد الرازق الـمُسِن.

انتـاب داليـا ارتبـاكٌ صريح عندمـا اقترب منهـا، وهي من تضمر نفسـية هشَّـة كرقاقة بسـكويت. أخنع عينيْها القلق مع بداية حديثه الـمُتكلِّف، وهو يُداعبها بسماجة قائلًا إن وجهًا كوجهها لا يـمكن أن تبدر عنه سوى الحقيقة الـمُطلقـة، وإنـه يثق في تخطّيها الجولـة دون الحاجة للقيام بأي تحدٍّ يشـقُّ على بدنـها الرقيق. سـريعًا ألقمها السـؤال الـمُربك. سـألـها عن الحب في حياتـها. راح يتناوب النظر الـمُباشر إلى عينيْها تارة وإلى أعين الـمُشاهدين عبـر الكاميـرات تـارة، مع اسـتمراره فـي الضغط علـى أعصابـهـا وكيانـها الرهيف بالتلميحات الجارحة. لكنها قلبَت الطاولة عليه سـريعًا، بسؤاله إن كان باستطاعتها تبديل السؤال.

بريبة أردف البهلوان:

- فعـلًا؟! دي أول حالـة تبديـل سـؤال الليـلادي.. بافكَّـر الـمُتسـابقة الجميلـة اللـي معانـا، والمشـاهدين طبعًـا، إن كل مُتسـابق من حقّـه تبديل السؤال مرة واحدة بس، خلال التلات جولات.. فاكرة يا داليا؟

بقلق أجابت:

- فاكرة!

- ولسه مُصمِّمة على استنفاد فرصتك الوحيدة بدري كده؟

- أيوة، من فضلك عايزة أبدِّل السؤال..

كانـت واثقة من قرارها، رغـم اضطرابـها الذي أنـهكهـا. انتظرَت دون تردُّدٍ سؤالَـها البديل. ثـم تلقَّته بثباتٍ أكبر هذه المرة.

- سؤالنا عن أثـمن أو أغلى حاجة امتلكتيها يا داليا..

هكـذا وقع السـؤال علـى أذنيْهـا، وأذنيّ معهـا. اقتربَـت الكاميرات من وجهها الملائكـي، تُتابع حركة مآقيها الـمُضطربـة، وهي تبحث في الـهواء الـمحيط عن إجابةٍ شافية.

- مامتي!

أجابته أخيرًا. ابتسـم كاشفًا عن أسـنان أبيض من الـمُعتاد. استدار حول نفسه دورةً كاملة كي يواجه الجمهور مُتسائلًا في استهانة:

- مـش عارف لجنة التحكيـم رأيـها هيكون إيه في الإجابة الرومانسـية دي يا داليا! السـؤال عن أثـمن شـيء، مش أغلى إنسـان.. وبعدين انتي لسه مكسوفة وهربانة من أغلى إنسان في السؤال اللي فات، هـترِجعيلُه تاني؟!

علَـت موجـةٌ اصطناعية مـن الضحـك. انتهت فجـأة كما بـدأت. بينما كان البهلـوان يسـتقبل ورقةً جاءتهُ بـهـا إحدى الفتاتيْـن الـمُجنّحتين اللتين تُشـاركانه المسـرح. قرأهـا. التفـت نحو داليا بوجـه يُنبئ عمـا «توقُّعه» قبل قليل، من حذف لجنة التحكيم للإجابة. صمتَت داليا برهة. ثـم أفرجت عن إجابةٍ حملت زفيرًا مُـحتقنًا إلى خارج صدرها.

- الساعة دي!

قالتهـا، وهي ترفع معصمها في مواجهتـه. تلقَّف يدها بطريقته الـمُبتذلة الرخيصة. نظر إلى ساعتها الكارتيير، وهو يتساءل:

- جِبتيها بكام الساعة الشيك أااوي دي يا داليا؟

- مش فاكرة بالظبط.

هكـذا أجابتـه، ببقايا تـماسـكٍ يستمسـك بالحياة. سـألـها عن ظروف اقتنائهـا وفـي أي مناسـبة، وهـو يومئ للجمهور كمن يسـتعد للكشـف عن مُفاجـأة خطيـرة. عندهـا، صفقتنـي موجـة قلـقٍ عاتيـة. قضـم قلبي شـعورٌ بالمسـؤولية تجاه ما يقع لداليا من تحت رأسـي. تابعتهـا مُغتاظًا بينما تقصُّ عليه بصوت مُهتز قصة شـرائها السـاعة، التي اقتنتها كبدايةٍ لمشـوارها معي في التسـويق الشـبكي، وكيف أنـها ضحَّـت بـمعظم مدَّخراتـها كي تسـدِّد ثـمن حلمها الوليد.

أسِـفتُ أن باحت داليا بـكل هذه التفاصيـل، دونـما حاجة. ثـم حدَّثتُ نفسـي إن لديـها من الأسباب ما يكفي لكي تبوح بكل شيء. هؤلاء يعرفون الكثيـر. من الأسـلم أن تقول هي، بدلًا من أن يتكفَّلـوا هم بالقول، وتحميل الأمور ما لا تحتمل.

حمـدتُ اللـه أخيـرًا عندمـا أعلـن البهلـوان أن اللجنـة أقـرَّت إجابتها. اعتبرتـهـا وافية ومُطابقة للحقيقة. لكنني تسـاءلت بقلق مُتزايد؛ ماذا لو كان البهلوان قد حاول إحراجها أكثر من ذلك، كما فعل مع الباقين؟ ماذا لو ذكر اسـمي في معرض حديثه معها. ماذا لو كانـوا قد قاموا بذلك بالفعل خلال الفيلم الذي عرضوه، ولـم نشاهدهُ على شاشات غرفة التحكّم.

إن كان قـد حـدث، فماذا بعـد؟ وهل بعد كل ذلك بعـد! هل أنتظر حتى تتعرّض داليا لمآزق أكبر في المراحل القادمة، آملًا أن تـمُرَّ منها بسـلام كما مرَّت من هذه؟ حتى مرورها سـالمةً نسـبيًّا من هذه الجولة القاسـية لا يعني أبدًا أنـها ستكون آمنةً في الجولات التالية، خاصة أن ما حدث خلال الجولة لا يُـنبـئ بخيرٍ أبدًا. ماذا لو وقع محظور؟ أيـمكنني عندها الحديث بعد أن اخترت الصمـت أول الأمر. ما الصمت إلا تـمريـر لـمُوافقة ضمنيَّة، وغير مشـروطة، على ما سيحدث بعد قليل، خاصة وقد رأيتُ بأم عيني ما يتجاوز كل حدود الترفيه، ولـم نعبُر نصف الجولة الأولى بعد.

كيف سـيكون موقفي أمام داليا لو لـم أسعَ لحمايتها الآن، خاصة وأنني في ظنها، ومعـها كل الحق، أحدُ المسـؤولين عن تنظيم الحفل؟ لن تُصدِّق بالطبع أنني كنتُ أجهل من الجميع فيما يتعلَّق بطبيعة الـمسابقة. بل الحقيقة أني لـم أعلم بوجود مسـابقة من الأسـاس. ولكنها لن تبتلع لي ذلك بطبيعة الحـال، وأنـا الـذي كنتُ أتلـذَّذ بالحرص على كتمـان كل ما يتعلَّـق بتنظيم الحفل، وأُباهي أمامها بأن كل شـيء تحت السيطرة، وأنني راضٍ تـمامًا عن كل ما يتخذه الكولونيل من إجراءات، رغم أنني غير مسموح لي بأي حديث عما سيحدث. أي غباء؟!

الكولونيل هو المسؤول الأول عن هذا الموقف الذي انزلقتُ في وحله، وعـن أي طـارئ قد يواجه داليـا، حتى وإن لـم يكن يعلم بطبيعة المسـابقة، كحالي. تُرى أحقًّا كان لا يعلم؟ لا يـمكن للكولونيل أن يكون جاهلًا مثلي،

كمـا يسـتحيل أن يقبل بكل هذا الـهـراء أيضًا. لا بد أن ألتقيـه، وأن يجد لي مخرجًا قبل بداية الجولة التالية.

***

تركتُ سـتيفن بعدمـا تفكَّرتُ مليًّا في أبعاد القرار. لـم يكن قرارًا يسـيرًا بالمـرة أن أتـرك غرفـة التحكـم والمراقبة لشـخص أجنبـي، لا يـمُـتُّ إلى الكولونيل بأية صلة، ولـم أتعرّف عليه سـوى من سـويعات قليلة تأرجحَت فـي الفـراغ، ثـم تعلَّقت بالقلق. لـن يغفر لي الكولونيل هـذا التصرف مهما شرحت! ولكنني لن أغفر لنفسي يومًا إن تركتُ داليا هكذا، دون أن أمُدّ لـها يد النجدة في محنة أراها تتشكل على مقربةٍ منا.

أفهمتُ ستيفن أنني قلِقٌ بشأن بعض الزملاء ممن يشاركون في المسابقة، وأننـي راغبٌ فـي التأكد من أنـهم يقومـون بذلك بكامـل إرادتـهم. قال إنه يوافقني تـمامًا، بل وتُساوره ذات الشكوك. سألته:

- مـاذا تتوقّع في الجولات القادمة؟ أتصوّر أنـك خبرتَ حدثًا مثل هذا من قبل.

- لا تقلق يا رجل، لن تجدَ جديدًا يُـذكر مُقارنةً بـما شـاهدت. هي لعبة تشويق وإثارة، وليس ثـمّة خطرٌ مميت في انتظار من تبدو قلقًا بشأنـهم.

لـم يكن الوقت ليمهلني حتى أحصلَ على إجابةٍ شـافية. رجَوتُ ستيفن أن يُغلـق باب الغرفة من الداخل، وألا يسـمح لكائن من كان بالدخول حتى أعـود، فأجهـزة التحكّـم الـمُتاحـة فـي الغرفة قد تـؤدي إلى ارتبـاك بعض الأنظمـة إذا عبـث بـها أحدهـم. لـم أؤكّد عليه بالطبع ألا يعبث هو بشـيء،

كي لا أحرجه. مُفترضًا أنه أكثر من يُدرك أمرًا كهذا. لكنني رجوتُ الله سرًّا أن تكون رسالتي الضمنية قد بلغته، كي لا تقع كارثةٌ أتحمّل مسؤوليتها وحدي.

لحُسن حظّي، وجدتُ مستر ممدوح بمفرده في غرفة مكتبه المُطِلّ على الحديقة الأمامية. لكن لسوء حظّي، لم يكن الكولونيل الذي أعرفه هو من وجدت، بل كان «السيد ممدوح الآدم» فقط. ألفيتُه مُنطفئًا، مُنصرف الذهن كمن فقد عزيزًا، فارغ الروح كباقة زهور مُجفّفة، يرنو بشرودٍ نحو أجندةٍ فارغة الصفحات، مُمسِكًا بقلمه في وضعٍ لا يسمح بكتابةٍ مريحة؛ سطح مكتب فعليّ، يوحي بالتشتُّت التام.

حجَمتني هيئتُه الذاهلة عن مُفاتحته فيما جئتُ لأجله. بادرتُ بالسؤال عن حاله، وإن كان في الأمر سوء. لم يُجب بشيء ذي بال. لعجبي، لم يستفسر عن سبب تركي غرفة التحكم، فبدا لي مُنفصلًا عن الحدث برمَّته. أومأ لي أن أجلس على المقعد المُلاصق لطاولة مكتبه. وهناك، تسلَّلت إليّ رائحة الزهور المُجففة التي اتَّكأت على الطاولة الجانبية. استوطنَت نفسي مع شذا السيجار الفاقع الذي عبِقَت به الغرفة.

تراجع ظهر المقعد إلى الوراء مُستقبِلًا ثُقل همومي. استرخيتُ نسبيًّا قبل أن أسأله:

- حضرتك تعبان ولا حاجة؟

رمقني بحيادٍ دون أن ينبس. أعفى القلم من مهمته الهزلية، وراحت أصابعُه تعبث بشيء آخر لم ألحظْه في حينه، تبيّن لي بعد برهةٍ أنها ريشاتٌ ملوّنة، طويلةٌ كريش الإوز.

- حضرتك معايا؟!

سألتُه مُجدَّدًا. رمقني بعينيْن مُحجّرتيْن لـم تشيا بـما يعتمل من خلفهما، ثـم قال:

- تِفتكِر يونس عاش ازاي جوّه بطن الحوت؟

ألجمتنـي الـمُباغتة! لـم أدرك أكان بالفعل يسـأل، أم أنـه يُـمهِّدُ لفكرةٍ جدليَّة ما، يوشـك أن يطرحها. هل هذا السـؤال (أو الفكـرة) مُلِحٌّ إلى الحدّ الذي يفصلُه هكذا عن الواقع، ويُـنسيه ما نحن بصدده؟

- حضرتك، أنا ما فكَّرتش في قصة سـيدنا يونس قبل كده، وكُنت جاي عشان آخُد رأي حضرتك في حاجة مستعجلة.

بشرودٍ وبطءٍ أردف:

- يونـس قِـدِر يعيش في بطـن الحوت عشـان كان راضي عـن مصيرُه، شـايف انه يسـتحقّه.. حتى في دعاؤه لربنـا، كان بِيلوم نفسـه على خياراته، وكان من جُوّاه مُوافق ان وضعه ده يستمر.

أيقنـتُ أننـي أُواجِه شـخصًا آخر غير الـذي قصدتُه. أنني لـو لـم أخُض فيما جئتُ من أجله مُباشـرةً فلن أسـتعيده. سيسـتمر الوضع عبثيًّا هكذا إلى ما لا نـهاية. دلفتُ من باب بدا لي مُواربًا بين كلماته. سألته:

- طيب بالنسـبة للـمُتسـابقين على المسـرح، تفتِكر حضرتك هم كمان شايفين انـهم يستحقوا العقوبات دي؟، ومُوافقين إن وضعهم ده يستمر؟

التفت نحوي وقد اتَّسعت عيناه قليلًا، كأنما يفيق من غفوة. استعادت ملامحه طبيعتها المعروفة بسرعةٍ فاجأتني، ومال نحوي يخاطب عينيّ مباشرةً:

- دي مسابقة عالمية يا راجي، تحكمها قوانين دولية مُتعارف عليها. كل مُشترك من دول وقَّع على إقرار بمسؤوليته الكاملة عن المُشاركة، وكل تبعاتها. ما قولتِليش، تِشرب إيه؟

- لا يا فندم مُتشكِّر، أنا شربت من شوية. اسمح لي حضرتك أفهم منك أكتر، طبعًا أغلب المُتسابقين دول زمايلي وانا عارفهم، ولسه كنا مع بعض الصبح في الشركة، ما حدِّش قال لي انه وقَّع على أي إقرار، ولا حد فينا كان عارف ان فيه مسابقة من أصلُه. أنا شخصيًّا، وانا مع حضرتك ليل نهار، كنت فاكر الموضوع حفلة؛ موسيقى، بوفيه مفتوح، وكبيرها أوي طامبولا، وشكرًا على كده. يبقى هم يعرفوا منين؟

- مهلك عليَّ يا راجي. الضيوف كلهم اتعمل لهم أورِيِنْتيشِن أول ما وصلوا، وكل واحد عرف طبيعة المسابقة ووافق على شروطها، وما حدِّش يتصوَّر انه يكسب 25 كيلو دهب بالساهل كِده! ولّا دي كمان هم مش موافقين عليها؟

بعد تردّد قلت:

- مش عارف والله يا فندم..

- فكَّر فيها بهدوء كده وانت تِعرف. الجايزة ما كانتش بالحجم ده في الأول، أنا شخصيًّا ضغطت كتير عشان تزيد وتبقى مساوية في القيمة

للــي بِــيتمّ في باقي الدول. أصرّيت كمان إن اللي يخرج لازم يُكافأ بـمقابل محترم، زي ما بيحصل بره.. كده المسألة بقِت تستاهل شوية تعب.

- المسألة مش مسألة فلوس ولا تعب يا فندم، الـ...

- أمّال مســألة إيـه يا راجي؟ تفتِكر الـمُتسـابقين زمايلك وحبايبَك دول مكمّلين عشان إيه؟ عشان حلم الفوز بالدَّهب طبعًا، حلم الإنسان من قديـم الأزل، ولو ما حصلش يبقى الشيك اللي قيمته بتزيد مع كل مرحلة.. مافيش حـد بـيِجري التراك إلا وعينه على خط النهاية، ولا حد بِـيضحّي بحاجة إلا عشان يوصل للي أكبر منها..

أنا وانت بداية تعارفنا كانت ازاي، مش التسـويق الشـبكي؟ حلم تحقيق ثـروة توصَّلـك للحريـة الـمالية الـمُطلقـة، مش كِده؟ ضحّيت بكام عشـان تبتِدي، وكل واحد سحبتُه وراك لنفس الحلم ضحّى بكام؟ وجاب الفلوس ازاي؟ وأغلبهم ما كانش معاه المبلغ الـمطلوب، صح؟

النهايـات يـا راجي هـي اللي بتحـدِّد اتجاهنـا، والطريق بيِترسـم تحت رجلينا أول ما نِبتدي نـمشيه.. وكل اللي بِنقابلُه في النص، تفاصيل.

- الغاية تبرَّر الوسيلة يعني..

- تبرَّرها طبعًا، أُمال انت فاكر ايه. لعلمك دي أهم نتيجة توصلَّها الإنسان على مَـرّ تاريخُه، وعشـان كده عايشـة معاه من أيام ماكيافِللي لحد النهارده، بقالـهـا فوق الـ 500 سـنة، وهتعيش لحد القيامة ما تقـوم لإنـها حقيقة كونية لازم تستوعبها، وتعرف تتعامل معاها.

تاني أهم نتيجة بقى هي الطاقة الداخلية؛ من أهم النظريات اللي علّمتهالك في التنمية الذاتية.. اللي يقدر يجمع بين وضوح الغاية واستحضار الطاقة الداخلية، هو اللي هيتفوّق ويحقق نتايج جبارة بالمقارنة مع اللي في نفس وضعه. بس بشرط: انك ما تُقفش عند التفاصيل.

رمقته في وجوم، فأردف:

- صحيح يا راجي.. ما ينفعش التفاصيل تعطَّلك عن هدفك النهائي؛ نقطة الضوء اللي في آخر النفق.. مش مهم النفق شكله عامل ازاي.. مُربع ولا مدوَّر، مسفلت ولا فيه شوك وحصى. ولا مهم هتعدِّي منه ازاي.. مشي، ولا عوم، ولا طيران، ولا زحف.. المهم توصل، ولو ما وصلتش، تقف وتعيد حساباتك، وبعدين تكمِّل.

عاد كلامه مُلهِمًا، وغامضا كعادته. أساريره أيضًا عادت مُنفرجةً ومُسترخيةً كسابق عهدها. لكن هاجسًا ما ظل يتسرَّب إلى صدري. يتمدَّد بداخلي كهواء البالون؛ يحافظ على هيئتها مُنتفخة وثابتة، رغم أنه يجعل سمكها رقيقًا، يسهل خرقه. لم أجد ما أردّ به على حجَّته، ولم تستقر في نفسي قناعةٌ جديدة، راسخة وهادئة.

الهواجس تأكل خلايا دماغي وتحتل شعبي الهوائية، كحالي قبل المجيء.. لماذا وافق هؤلاء على الشروط المُجحفة؟ ربما لم يَفهموها على حقيقتها أول الأمر. ربما أكون أنا من يبالغ في التأثر بمجريات الأمور. هي لعبة نهاية الأمر. لا تستأهل هذه الدرجة من المُعايشة والتوحُّد مع المُتسابقين. إن كان خوفي يتعلق بداليا، فمن الواضح أن اللجنة تخصُّها

باحترامٍ خاص، هي تستحقه دون شك، فهُم لم يُحرجوها كما فعلوا مع الآخرين. لم يضغطوا عليها بأسئلةٍ حرجة. لم يدفعوها لتنفيذ تحدٍّ مهين. ربما تكون هي من أبدت تحفُّظًا منذ البداية بخصوص شروط المُسابقة، فتم مراعاة تحفظها في الجولة الأولى. أظن أن الوضع سيستمر على هذا النحو في الجولات التالية، أرجو ذلك.

شكرته على وقته. استأذنتُ كي أعود سريعًا إلى غرفة التحكم. طاف على وجهه اضطرابٌ مفاجئ لذكر غرفة التحكم. بدا لي أنه لم ينتبه قبل هذه اللحظة أني تركتها دون إشراف. طمأنته أن الغرفة مغلقة، وأنني سأعود إليها من فوري. أومأ لي بابتسامةٍ باهتة أن: اذهب.

ممدوح إبراهيم الآدم

أُدرك تـمامًـا أن الليلـة غيـر مناسـبةٍ للتوقـف أمـام أي شـيء، لا وقـت للتَّذكُّـر، لا فرصة للتأمل، لا فسـحة للمُراجعـة، دارت عجلات الزمن ثقيلةً فوق قضبانـه الملساء، ولا أعرف في أي يدٍ يكمن الكابح كي أوقفها. لكنني على الرغم من ذلك، لا أسـتطيع أن أدفع عن ذهني الأفكار، أفكارًا تتسـلل كالحيّـات مـن جحور الماضي لتزحف فوق سـطح مكتبـي، قاصدةً دماغي الـمُثقلـة. أفـاعٍ لـم تُفلـح الخمر في تغييبها، لـم يشـغلها عـن هدفها دخانُ سيجاري الـمُتلوّي نحو السقف أمامها، كمزمار فقيرٍ هندي..

أوووفف، كفاك ادعاءً يا ابن الآدم.. ليس اليوم على الأقل!

أي فقيـرٍ هنديٍّ بائسٍ سـيصطفُّ إلـى جوارك مُواجهًـا أفاعي الماضي؟ مـاضٍ عصـيٍّ على التـآكل كأنه حجر رشـيد. يالـهـا من مسـافةٍ كبيرة تفرق بين سـيجار «بـادرون» ومزمار فقيرٍ هنديّ.. هيهات أن تسـتكينَ الأفاعي أو تسـتجيبَ لإرادتي، فتتراجع أمام عصاي الكوبيَّـة الثمينة، الـمحشـوة بأنقى ورقات التبغ، يـتسـرَّب من طرفها الدخان مُفرغًا جوفها من الروح. ليسـت عصا موسـى كي تبتلع الحيّات من أمامي.. ليست عصا سليمان فتُقيمني في وجه الزمن.. هي سـيجارٌ وحسـب، حسبها أن أسحب من طرفها روح التبغ كي أملأ فراغَ روحي، ثـم أزفرها وأُلحِقها بـما تسرَّب من طرفها الآخر..

أي هـراء هـذا الـذي أثرثـر بـه؟ سـحقًا للخمـر ولضيـق الصـدر! لِـمَ لا أتشاغل بـمتابعة ما يجري أسفل مني على المسرح وأغرق في الصمت؟.. ربـما لأن الصمت لـم يُنهِ مشكلةً قط، أو أنني قـرَّرت ألا أتشاغل منذ اليوم، فالتشـاغل ادعـاء، والادعـاء زيٌّ تنكـريٌّ بالٍ، مُهتـرئ، لـم يعُـد يليق بي إن أردتُ أن أستشعر القوة من جديدٍ، وأستعيد الثقة..

الأقويـاء لا يدَّعـون.. عندمـا يسـعون لافتـراءٍ مـا، يُعلنونـهـا صراحةً، لا يـوارون، قـد يضعـون العناويـن البراقـة والشـعارات الـمُلتهبـة لينالـوا المزيـد من التصفيـق، ولكنهم بصراحةٍ يعلنون: سـنقصف العراق، سـندكُّ جبال الأفغـان زارعي الـمُخـدِّرات، حاملي الأسـلحة الـهزليَّة والعمامات الـمُضحكـة، سـنفقأ عيـن جالوت، سنسـخر من مقـام الحجاز، سـنضرب العُربـان تحـت أحزمةٍ تربـط خناجرَهم إلى كـروشٍ مُتدليـة، وبعدها ربـما نضطر لأن نشُـقَّ كروشهم بالخناجر تلك، كي نفرغها من زيتها الأسود، ثـم نقطـع بالنصال أسـباب اعتـزازهـم التافهة، تلك التي تتدلّى من محاشـمهم البربرية الضخمة..

هكذا يُعلنها الأقوياء، صريحةً وساخرة.

أنـا أيضًا أريـد أن أعلنها صريحة، مُتَّسـقة مـع الفعل، ليـس ضروريًّا أن أجعلها سـاخرة، حسـبها أن تكون قاطعةً وتشي بقوةٍ تحتشد من ورائـها؛ أنا الـمُسـتغل لـهؤلاء البشر، أنا الباحثُ عن الـمُتسكِّعين في الحارات الضيقة والشـوارع الـمُتداعية، واللاهثين خلف مكاتب الوظائف الشكليَّة، يبحثون وراء فتـاتٍ لا يقيهم شـر التسـوُّل والتحايل، في مُقابل عمـلٍ لـم يؤدّوه ولا يـملكون كفاءةً لكي يؤدّوه.. أنا من يَـقبضُ عليهم أيًّا كان لونـهم، ويسلِّمهم

لسلطاتٍ تملك معرفةً كاملة، وقوةً حقيقية، فتدفع بهم إلى عملٍ حقيقي، نافعٍ للبشر، كهذا الذي يجري الآن فوق المسرح.. عمل فارق بالفعل، شتان بينه وبين ما لفظَت من أجله همسة حياتها فوق مسرحٍ مُتهالك، في دولةٍ مُتداعية.

- مستر ممدوح..

- تعالي يا سارة.

- حضرتك رافع سمّاعة اللاين الأرضي!

- أيوة يا سارة، كنت بنضف التليفون. عايزة حاجة؟

- الموبايل كمان مش بيرُدّ!

- عاملُه سايلنت يا سارة، عايزة إيه يا حبيبتي خلَّصيني!

رجائي بيسأل على حضرتك.

- وصل؟ ولّا على التليفون؟

- وصل يا فندم.. مُنتظر حضرتك برَّه.

- مُش بِعادة يعني ييجي في مَعاده.. دخَّليه يا سارة.

تُداهمني الذكرياتُ الليلة أكثر من أي وقتٍ مضى.. كلما ندَّت عني حركةٌ عفويَّة عابرة، جرَّت من ورائها خيطًا من ذكريات، أغلبها غير مرغوب.. ألفُّ سريعًا خيط استرسالها حول إصبعي، أُكوِّرها في باطن يدي، أضغط عليها، مُفرِغًا في مرونتها شحنة الألم.

دخل رجائي بـهيئةٍ بائسـة لا تناسب بـهاء الحفل ولا فخامة القصر. هي هيئتـه المعتادة، التي تـهز موقفَه أمام هيئات الـمحاكم قبل أن يتفوَّه بشـيء، فتُخسِـره القضية تلو الأخرى؛ سترةٌ بائدةُ الطراز مُتهدِّلةٌ عند الكتفيْن، كرشٌ مُتـدلٍّ يفـرج ما بين أزرار القميص مسـاحاتٍ للتنفُّس، شـعرٌ مهوَّشٌ رمادي يطوِّق رأسه كخوذة قيادة.

اقتـرب بخطـواتٍ تطبـع أثـرًا دائـمًـا علـى فـروة الموكيت، أشـرتُ له بالجلـوس، ورنَوتُ إلى فتافيت لحمٍ مفروم تعلَّقَت بشـاربه الكثِّ كسـعفٍ جاف، سـارع بنفضها وشرع يُـقدِّم بين يديَّ هداياه في صورة عباراتٍ مُنمَّقةٍ تُشـيد بالحفل الـمُبهر والتنظيم الرائع، لـم تقترب كلماته من منطقة «البوفيه الرائـع» ولـو بإشـارةٍ عابرة. شـردتُ فـي لقطاتٍ لا تبـرح ذاكرتي لشـراهته الـمُفرطة، الـمُقزِّزة، ثـم عدتُ لـمُتابعته أتحيَّنُ فرصةً كي أُقاطع استرسـاله في التزلف.

- وصلنا لفين يا رجائي بيه في موضوع عمارة المنيل؟

- سـعادة الباشـا الموضـوع شـبه منتهي، زي مـا قولت لسـعادتك على التليفون.

- انت جاي تكرَّر لي اللي قلتُه في التليفون يا رجائي! أنا طلَبتك عشـان أعرف وصلنا لفين، بالتفصيل؛ أرقام.. مبالغ.. تواريخ..

- سـعادتك، الشـقّتين اللـي على الشـارع الورّاني بتوع نفـس المالك، ومُسـتأجَرين بعقـود غيـر مُسـجَّلة، وصاحبهـم ممكن يخليهم خلال شـهر من اسـتلام شـيك مقبول.. ده الاتفـاق، وآخر كلام معاه ربطنـا المبلغ على

3 مليـون، وهنِتحمّـل احنا تكاليف نقل الكراكيب بتاعت الـمُسـتأجِرين من العين.. بالنسبة للسمسار، فهِم خلاص انه مالوش عمولة في الشقّتين دول، لإن كلامنا من الأول على العين القدّامانية اللي ع النيل.

- كويس والله انك فاكر ان كلامنا كان على الشقة اللي قدّام.. خُش في الـمُهم يا رجائي ما عنديش وقت.

- أنـا حطّيـت سـعادتك في الصـورة بخصوص الشـقة دي قبـل كده يا فنـدم! الشـقة ملك السـيدة راوية كمـال الدين مشـالي مُناصفةً مـع زوجها مصطفى...

- انـت حكيتلي القصة اللطيفة دي يـا رجائي! آخر حاجة وصلنالـها إيه لو سـمحت؟

- ما انا قلت لسـعادتك انـهم فـي عُمان، والاتصال بيهم من خلال أخو المدام، وكل مرة يقَفِّل معايا ويقول لي الشـقة مش معروضة للبيع.. مالوش مصلحة يا باشا.

- مالـوش مصلحـة نِوجد لُه مصلحة يا سـيادة المستشـار! وقولت لك الشـقّتين اللي ورا مالـهمش لازمة من غير الشقة اللي قُدّام، وتتأكّد لي انـها بِتشوف النيل كويس.

- البوّاب بيقول...

- تِدخُلها بنفسـك وتصوَّرلي الڤيو، وتجيب لـي الصورة هنا.. وخلّص مع المالك من فضلك.

- ما هُمَّ يا باشا لو موجودين هنا كنت...

- اتصرَّف يا رجائي.. وفي أسرع وقت من فضلك.

* * *

سحبتُ درج المكتب، استخرجتُ مرآتي الـ(MAC) التي تُعظِّم انعكاس وجهي، كي لا تفوتني تفصيلةٌ لم أُعالجها، صغيرة كانت أو أصغر. أصطادُ بالملقاط شعرةً تفلَّتت من خيط الحلاق، أُمشِّط حاجبيَّ، أُتابع مساحاتٍ حمراء تغزو مُقلتيّ فأعالجها بقطراتٍ مُهدِّئة، أُشذِّب شُعيراتٍ تمدَّدت خارج فتحتيْ أنفي تستطلع العالم القبيح، أنتزع زغبًا تعلَّق بطرفيْ أذني.. هكذا.

لا أنسى اليوم الذي أهدتني فيه ماريسا هذه المرآة السحرية؛ تلك الفتاة الأميركية مكسيكيَّة الأصل، التي كانت مسؤولةً عن مظهري قبل أي لقاءٍ بالجمهور في أميركا، تليفزيونيًّا كان أو مُباشرًا. كانت تحترف التقاط التفاصيل التافهة التي قد تظهر على الشاشة- في ظنها- أو تلك التي يلمحها المُحيطون، وتُجيد التعامل معها ببراعةٍ مُذهلة، بطريقةٍ عمليةٍ فجَّة. كنتُ أُتابعها باهتمامٍ بينما تتعامل مع تفاصيلي كما لو كنتُ طبقَ فواتح شهيَّةٍ تودُّ عرضه في أبهى صورةٍ في مُسابقةٍ للطبخ. أحيانًا، كانت تنتزع بالملقاط شعرةً من أعلى وجنتي، فتدفنها في مؤخرة رأسي أو خلف أذني. أسألها: ماذا تفعلين أيتها الموتورة؟! فتقول: هذه مناطق لن يُلاحظها أحد!

تعلَّمتُ منها أن تغليف المنتج وتعبئتَه لا يقلان أهميةً عن مُحتواه، وفي حالتي هذه يفوقانه في الأهمية. مع الأيام، فتر اهتمامي بالمحتوى إلى أبعد قاع، وبقي اهتمامي بالتغليف والتقديم على حاله، حسبما تعلَّمت،

أَتَّبِعُ في شـأنه إجراءات توكيد الجودة بدقَّةٍ مُتناهيـة، دون ملل، حفاظًا على شهادة الأيزو التي أقتاتُ منها.

حقًّا أرغبُ في لقاءٍ آخر مع ماريسا، ولكن ذلك يـمكنه أن ينتظر..

لندع الذكريات الآن، ولنتابع ما يجري على المسرح..

أمل معاطي عبد المعبود

مـع اقتـراب الجولة الأولى مـن نـهايتهـا، كان صداع الخمر قـد تـمدَّد أسـفل فروة رأسـي كزيت التشـحيم، وألـحّت عليّ أكثر من رغبة مُتناقضة، لـم أسـتطع أن أهشَّـها عن رأسـي بعدمـا تضاعف وزنه عدة مـرات، أكثرها إلحاحًا كانت رغبةً في الاسـتلقاء إلى الوراء في أي مكان، وكذلك رغبةً في الإتيان بحركاتٍ انفعالية فجّة في مواجهة الجميع.. نعم، تـملّكني إحساسٌ بعنـفٍ يحتشـد بداخلي ويضغـط حثيثًا علـى أطرافي، لا يُبقيه فـي حيّزه إلا الخدر الذي أثقل رأسي ويبَّس عضلاتي.

وجدتُ صعوبةً بالغةً في مُتابعة ما يجري فوق المسرح.. لـم أنتبه تـمامًا إلا حين جرى خلف ياسر- بجسمه الناحل الذي يكاد يتفكّك من أوصاله- ذلك الكلب الذي يتطابق شـكلًا مع كلب فيلم القناع، بينما لا يتناسب ياسر مـع جيم كيـري على الإطـلاق، ولـم يبدُ مصيـره الذي لاقـاهُ منطقيًّا لعقلي الغائم!

انتبهـتُ مـرة ثانية حينما ركضـت ميرفت- التي اكتظَّـت قامتها القصيرة الـمُمتلئـة بداخل زي ضابطة الشـرطة الـذي ارتدته- وراء قرد شـامبانزي، يرتـدي زي لـص تقليـدي كما فـي أفـلام الكارتون، تحـاول الإمسـاك به! فـكان يقف كل بضعة ثوانٍ ويلتفتُ كـي يُواجهها، فتُهرع راكضةً في الاتجاه

الـمُعاكس ويُبادر هو بالركض وراءها، فيضج الجمهور بضحك رهيب، خاصة عندما تتعثر وتتدهور على الأرض كجردل المسح! حتى نحن كنا نضحك منها ضحكًا هستيريًا، بلا ضابطٍ من زمالةٍ أو تعاطف..

أما دون ذلك فقد لبثتُ شاردًا، غائم الوعي، أحاول الإبقاء على دماغي في موضعه، وقد راح يزدادُ ثقلًا بشكل مستمر.. وبينما أنا على هذه الحال، تهيّأَت لي مرات عديدة مشاهد هزلية لجيري.. مثلًا، أراهُ وقد تجمَّد فجأة، إثر انخفاض حادّ في درجة الحرارة أحدثهُ توم، فصار تمثالًا ساقعًا ذا لون ثلجي لامع، في حين راح توم يعبثُ به، فينتزع منه قطعةً متجمدة تلو الأخرى؛ أذنيْه، أرنبة أنفه، رموشه!. كدتُ أضحك من خيالاتي العبثية، وأرتعدُ خوفًا في الوقت نفسه، حتى نبّهني اقتراب البهلوان مني بعد أن فرغ من باقي الزملاء، باسطًا ذراعيْه في الهواء كمن يُقبل على احتضان صديقٍ يشتاقه..

- مش فاضل غيرك يا جيري.. حيّوا معايا اللعيب الكبير أوي. جيريـــــــي...

صفَقَ التصفيق الحاد طبلتَي أذني، فاستعدتُ شيئًا من تركيزي وفتحتُ عينيّ عن آخرهما أسفل القناع، أستجدي مزيدًا من التنبّه والنفَس.

كان القناع الـمُبطّن بالفايبر مُطبقًا على رأسي يكاد يشويه..

هل حان دوري؟! هكذا تساءلتُ وقد تكاثفت في رأسي غيوم سُكْرٍ ورعب وتحدٍّ. جيري، الأضعف، الأصغر حجمًا، لا بد وأن يرتعد خوفًا وهو مقبل على مواجهة تفوق قدرته بسنوات ضوئية بعيدة! ومع هذا،

تجـد تاريخَه حافلًا بانتصاراتٍ هزلية صارخة، فهو لا يقبل النهايات سـابقة التجهيـز، بل إنـه يُطـوِّع الظروف، يلـوي الحقائق، يسـتدر عطـف مُتابعيه، يستثمر غرور مُنافسيه، وينجو ببدنه الصغير!.

- ابتسامتك بتقول انك مُستعد لسؤال اللجنة يا جيري..

وشت عيناهُ اللامعتان برغبة راسخة في فضحي!

تُرى، إلى أي جهة ترمي أيـها البهلوان اللئيم؟ ما هو السـر الذي انتويتَ كشـفَه مـن سـجلاتي، فلمعَـت بالنشـوة عينـاك؟! اسـمي الـمُضحك، أم حلمي الـمُنهزم؟ مرض أم إسـلام الذي أشهَرتُ في إثرِه عجزي، أم ردفاها العظيمـان اللذان دفنا أسـفل منهمـا معالـمَ حياةٍ حلوة مضت؟! أم تُراهُ سـر شغفي إلى اليوم بأسـماء ابنة عم مـجدي السباك؟!

لا بـد أن أم إسـلام سـتعرف بالـمُسـابقة وتكتشـف الأمـر! إن لـم يكن الآن علـى الـهـواء، فعبر اليوتيوب، أو في مقاطع البلوتـوث التي تُدمنها مع جاراتـها ماكينات النميمة!!

أجبتُه دون تردُّد:

- إحنا مالناش في الأسئلة يا رياسة.. ندخل على التحدّي علطول..

ارتدى البهلوان قناع الدهشـة للحظة، داعب الجمهور والكاميرات وهو لا يـزال يرتديـه، فلم أعرف إن كانت دهشةً تلقائية بسـبب اختياري، أم أنـها دهشةٌ مرسومة، ملوّنة، كملامحِه..

- جيري بيِتحدّانا من بدايتها.. جريء كعادتَك يا جيري!!

تحوّلت الخلفية الـموسـيقية على الفور، ولوهلةٍ شـعرتُ أنني جزءٌ من مشهدٍ سـابق التحضير! أي إمكانيّات تلك التي تجعل هؤلاء القوم جاهزين لجميـع السـيناريوهات، الـمُحتملة منها وغير الـمُحتملـة، وفي أية لحظة؟ تبدّلـت كذلك الأضواء والألوان في الشاشـة الرهيبة الـمُقوّسـة، الكائنة في خلفية المسرح، كأن سيركًا سابق التجهيز قد نُصِب فجأة!.

جُذِبـتُ من ذراعيّ فجأة، فالتفتُّ يـمنة ويسـرة لأجـد الفتاتيْن الفاتنتيْن تحيطاننـي وتُـمسـكاني بغنـجٍ مثيـر، ولأول مـرة ألاحـظُ عـن قـربٍ تلـك الأجنحـة السـوداء الحريرية التي ترفرف خلف ظهريْهمـا؛ كانت تنثر ذرّات سـوداء وفضيّة براقة في الـهـواء، بينما تُـهفهف باسـتمرار!! أثارني البريق، كمـا أثارني خليطُ العطر الـمُنبعـث منهما، فغفلتُ لبرهة عمّا يحيق بي، قبل أن يستعيدني صوت البهلوان الثاقب كالمسمار الصلب..

- الورقـة وصلتنـي أهِـه مـن لجنة التحكيـم الـمُوقَّـرة.. نِفتحها سـوى ونشـوف إيه نوع التحدّي اللي مستنّيك يا عم جيري، طالما اخترت تتحدّانا من أوِّلـها..

خطَـرَ لـي أن أنفـيَ عن نفسـي تُـهمـة تحـدّي اللجنـة، ولكـن الصداع وثرثرة البهلـوان أبقياني خامدًا، ثـم جـمّدني حفيفُ فتح الورقة التي طوت مصيري..

- هاااا؟ تفتكر إيه اللي مسـتنيك يا جيري؟ بتِبتسـم كمان؟! قد كده انت واثق من نفسك؟!

شرعتُ أُفهِمهُ أن القناع هو الذي يبتسم، هو الذي يُعلن التحدي، ولا حيلة لي في تغيير ملامحه، ولكنه أسكتني بإيماءةٍ سريعة. لم يكُن ليسمعني على أي حال، وسط كل هذه الضوضاء.. أيقنتُ حينها أنه يتعامل مع القناع منذ البداية، فلم يُنادِني باسمي ولو لمرةٍ واحدة- وهو ما حفِظ لي كرامتي- ثم أدركتُ أنني بالفعل جزءٌ من هذا القناع، وأن شعوري بالتوحّد معه هو الذي دفعني لإسقاط حياتي كأمل من سجلّات الـمُسابقة، واستبدالها كاملةً بتاريخ جيري، أن وجودي بداخل جسد جيري هو ما ساقني لاختيار التحدّي كاحتمالٍ وحيد، وجيري يبتسم، ويتحدّى، وينجح، وهذا ما يتوجّب عليّ القيام به منذ اللحظة فصاعدًا.. لِمَ لا؟!

أومأتُ لهُ برأسي الـمُبتسم كأني أقول: نعم أثق بنفسي، وأتحدّاكم، فأشعلَت إيماءتي جذوة الموسيقى والأضواء من جديد، وجُنّ جنون الشاشة العملاقة بالخلف مع التهاب نبرات الصياح أسفل المسرح، فراحت تعرض أدق لحظات جيري وهو يُفلتُ من الانسحاق المؤكد، مرة تلو مرة..

تابعتُ نبضات قلبي وهي تواكب هذا الجنون الـمُتدفّق من كل اتجاه، بينما تسحبني الفتاتان من أسفل ذراعيّ إلى حيث لا أعلم، والذرات البراقة تتطاير من خلفهما في مشهد أدركتُ كم كان خلابًا في أعين الكاميرات والجمهور..

لو أُخِذتُ إلى مقصلةٍ على هذه الهيئة الجذابة لما تردّدتُ لحظة!.

- اللجنة حكمت عليك يا جيري انك تجرّب التحليق، لأول مرة في حياتك..

أيـوة، هتطير يا جيري، بس مش الطيران اللـي عرفته أيام مصر للطيران، أيام التذاكر الـمجانية والسـفر ابو بلاش والتظبيـط ده، لااا‌ا، ده طيران تاني خالص، حاجة كده شبه الطيران الحربي!

سـاد الوجوم فجأة، ربـما في ذهني وحدي، ولكني شـعرتُ بالضوضاء تخفـتُ دفعـةً واحـدة، ولـمحتُ فـي الشاشـة العملاقة في الخلـف صورةَ جيـري وهـو مقـعٍ علـى الأرض، والعصافير تحـوم حول رأسـه بعد بطحة أخيرة، أجهزَت على دماغه!.

أي طيران حربي هذا الذي يتحدث عنه ذلك الـمعتوه؟!

عبَرَت بي إحدى الحسـناوتيْن فوق جسـرٍ خشـبي عند نـهاية المسـرح، بعـد أن ودّعتني الثانية بإيـماءة مرمرية من أصابعها البديعة مُفلتةً ذراعي قبل الجسـر مباشرةً. عبر بنا الجسـر فوق مجرى مائيّ مُضاء، وسلّمنا عند قاعدة معدنيـة مُرتفعة، ارتقيتُها دفعًا، فاسـتلمني بغلان أجنبيّـان لامعا العضلات، يرتديان ملابس رياضية لصيقة، وراحا يثبّتان شـيئًا ما وراء ظهري ثـم يُعلّقاهُ فـي هيكل حديديّ نبَـتَ من داخل القاعدة المعدنية- اكتشـفتُ لاحقًا أنـها قاعدة القبة الرهيبة التي تعلو المسـرح- بينما كنـتُ أُتابع البهلوان وهو يقرأ علـى الـمُشـاهدين مصيري- الـذي أنزلتهُ بـي اللجنة- والشاشـة من خلفه تُحاكي ما يقول بـمشاهد هزلية صارخة..

- جيـري، بعـد ما خَد الشـلّوط التمام مـن توم، هيحلّق فوق المسـرح، ويفـادي نفسُـه يـا عينـي من طلقـات الألعـاب الناريـة اللي تـوم هيضربـها عليـه مـن كل ناحية، بـالدرع اللي عامل زي غطا الحلّة ده..! استـلم درعك يا جيري..

ناولني البغلُ الأشقر قرصًا معدنيًّا في حجم صينيّة متوسطة، قبضتُ عليه بقوة الفزع والتشبّث بالأرض، في نفس اللحظة التي أحسستُ فيها بجسدي يُسحبُ إلى السماء!. خفتت الأضواء، إلا من كشّاف ضرب عيني من الأسفل، وألهبَت الأجواءَ موسيقى تصويريةٌ كالتي تُصاحبُ الألعاب الأكروباتية. وجدتني أُحلِّق بالفعل، وعندها انقطعت صِلتي بدورتي الدموية وجهازي التنفسي!. لولا الألم الحاد الذي ضربني بين فخذيّ وداهَم رأسي لظننتُ أن روحي هي التي حلّقت في سماء القبة المُظلمة، بلا جسد يحويها! رغم أنني مُعتادٌ على المُرتفعات والتعلّق بالهياكل الحديدية- بحكم عملي- إلا أنني لم أجرّب التحليق الحر هذا قبل هذه اللحظة، ووجدتُه مُرعبًا دون مُبالغة!. تعرّقْت، التهبت أذناي حتى صارتا قطعتيْن من الكاوتشوك الساخن على وشك الذوبان.. وقبل أن أفقد الوعي، قرّرتُ أن أُفوِّق نفسي بمتابعة الشاشة العملاقة، حيث راح جيري يُحلّق تحليقًا موازيًا لا ينقصه الفزع.

فجأة، سمعتُ دويًّا ممطوطًا لصواريخ تُطلَق من أسفل كي تحلّق من حولي، ثم أصوات فرقعات غزيرة في كل شبر في محيطي!! طوّحتُ بذراعي المُمسكة بالدرع المعدني في كل اتجاه، أُفادي جسمي من طلقات لا أعرف لها مصدرًا، وانفجارات لستُ مُتأكدًا أين تضرب، فاختلطت في ذهني الدهشة مع التركيز الشديد، والرعب الأسود الذي يستخلص الروح!.

متى ينتهي الجنون الذي يحدث من حولي؟!!

أَهذه الومضاتُ أطيافُ موتٍ، أم أنـها الطلقات تنفجِر؟!!

داخلني يأسٌ من أن الأمر قد لا يصل إلى نـهايةٍ أبدًا، وأن ألفَ شظية قد اشتعلت بالفعل في ملابسي التنكرية وأليافها الصناعية. لو لا جلبة الجمهور وضحكاتـهم الـمُحشرجة التي عادت إليّ بعد أمدٍ طويل، لفاضت روحي.. هـدأ دويّ الـمُفرقعات أخيرًا، وابتعد مصدره شـيئًا فشـيئًا، ووجدتني أُحلّق هابطًا- بالتوازي مع جيري الشاشة- نحو الجهة الـمُقابلة من المسرح، ثـم أعاد إليّ صوت البهلوان روحي، رغم سخريته اللاذعة..

- إيه يا جيري اللي انت عملتُه ده! بذمّتك، بتسمّي ده تحليق؟ دي طريقة تدافع بيها عن نفسـك؟ هو انت سـالف درع تـهِشّ بيه دبّان؟! خُد نفَسَـك، خُد..

أخـذتُ أرمـق المشـهد من حولـي كأنـي أتأكد مـن عودتي إلـى أرض الأمان، واطمأننت حين لـمحتُ جيري الشاشـة وقد عاد مقعٍ على الأرض، يعلـو صدره الصغير ويهبط باسـتمرار، والعصافير تحوم حول رأسـه الكبير نسبيًّا من جديد..

الآن، لـم يعُد يـشـغلني الفوز بأي شـيء.. يكفيني أن اسـتعدتُ روحي وأنفاسي من جديد.

واصل البهلوان حديثه اللاذع، مع الجمهور هذه المرة:

- طبعًا مش هاقول لكم انطباع اللجنة عن أداء جيري، عشان ما تفطسوش من الضحك.. كفاية الضحك اللي ضحكتوه وهو بيهشّ الدبّان فوق! وكمان عشان ما حدّش من مُشاهدينا اللي بيتابعونا من كل مكان يحس اننا بنوجّه التصويت.

ثم التفت إليّ مُبتسمًا، باسطًا ذراعيْه كما فعل أول مرة، وأردف:

- وحشتني يا جيري!

داليا عادل سراج

أففف، فاصل طويل... أخيرًا!!

ألـمٌ شـديد ينخر منتصـف ظهري، ينهش قفصي الصـدري، أو حجابي الحاجز، لا أعلم أيـهما.. ألـم يُشـبه أوجاع كتم التنفس لمدة طويلة أسـفل سـطح المـاء، عانيتها قبل ذلك حينمـا اصطحبني خالـي لتدريبات الغوص الحـر.. قد تكـون ذات الأوجاع بالفعل، فلا بد أنني حبَستُ أنفاسـي أغلب الوقت بينما كان البهلوان يُعلن نتائج الجولة الأولى!..

أبلغَنـا الـمُنظِّمـون أن اسـتراحةً قد أُعِدَّت خلف المسـرح للمُتسـابقين - الـمُسـتمرين فـي الـجولتيْـن التاليتيْـن- فأدركتُ حينهـا أن اثنيْن من بيننا سيغادرانا الآن..

التفـتُّ ناحية إيڤـون المكروبة، وعبد الرازق الذي لـم تبدُ على سـحنته أي علامـات تُرشـد عما يعتمـل بداخله؛ كأن شـيئًا لـم يكن، أو كأنـه مُعتادٌ تـمامًا علـى الخذلان والإيلام!.. اقتربتُ من المسـكينة إيڤون، واحتضنتها دون أن أنبس بكلمة، وأسـديتُ لعبد الرازق بسـمة فاتـرة، وتربيتةً هينة على كتفـه الـمُنسـحق على الدوام تحت حِـمـلٍ غير مرئي، ثـم اتجهتُ مُباشـرة نحو استراحة الـمُتسابقين حيث أشاروا.

كنـتُ أول من دخل الاسـتراحة؛ قاعة لطيفة مُبهجـة الألوان، ذات طابع حداثـي يـمـوج ضياءً وبرودة، تفترشـها أرائـك مُريحة بدرجـة «لا تُصدَّق» وإن كانت غريبة الأشـكال، مثلها مثل الوسـائد الكثيـرة التي تعلوها، وعلى الجدران شاشات عرض في كل اتجاه، تنقل ما يدور على المسرح.

لاحظتُ أن عروضًا راقصةً تجري الآن فوق المسـرح، أثناء الاسـتراحة الـمُطوَّلـة تلك. بدت مُبهـرةً للوهلة الأولى.. كنتُ لأتابعها بشـغف رهيب لـو كان مزاجـي طبيعيًّا بعض الشـيء، ولكن... يكفيني ما خلَّفته في نفسـي الجولة الأولى من توتُّر، جعلني لا أنشد إلا السكون!!

تذكَّرتُ راجي لأول مرة منذ بدء الـمُسابقة.. لِـمَ لـم يطلّ عليَّ – ولو مرة واحـدة – منذ قدومي إلى الحفل.. ليس من طبعـه الإهـمال على الإطلاق، ولكن من يدري أي ظروف تـحبسه الآن!..

تساءلت.. لـمَ لا يتَّصل بي كأضعف الإيـمان؟! حينها، تذكرتُ أن بيري سحبت مني هاتفي الـمحمول قبل صعودي إلى المسرح مباشرةً!..

أيـن بيري نفسـها؟!! مـا بالـها هـي الأخـرى لا تجيء وليسـت إلا فتاة استقبال؟ ماذا يـمنعها أن تطمئن على صديقتها فيما بين الفقرات؟!

اسـتدركتُ مُنتبهةً أني نسـيتهما فـي زخم الأحداث الفائتـة، فليس ثـمة سببٌ للاستغراب إن نسوني..

جفلـتُ حين أقبل ياسـر، وفي ذيله صبـري.. دلفا إلى قاعة الاسـتراحة بضوضائهما الـمُعتادة، فتشـاغلتُ بجذب مُغلَّفٍ يحوي حلوى الرُّبسوس،

من صينيَّة كبيرة وُضعت فوق منضدة مُجاورة، ثـم جلتُ بنظري حول القاعة أبحث عن مخرج آخر..

لا أرغب في أي حديث إلى أي شخص، خاصةً من الـمُتسابقين!.. لـم يعُد شـعوري نحوهم كحاله قبل سـاعات- قبل أن نترك الشـركة- شـيء ما تغيّر، ربـما بفعل التوتر الـمُشـترك، أو لكونـهم سـببًا مُباشـرًا لـهذا التوتر، حتى وإن كنتُ الأجدر بالفوز بينهم، وبفارقٍ كبير!..

دلفتُ خارجةً من باب لـمحته في أحد الأركان، مُـموَّه تـمامًا ومُـختفٍ وسط ألوان الجدران وديكور القاعة..

لدهشـتي، وجدتُ الجـدار الخارجي للقاعة غيـر مصقول ولا مدهون؛ جـدار مؤقـت على مـا يبدو! كل هـذه الرفاهـة بالداخل مؤقتـة؟!. لـم أجد هـذه الـملاحظة مُثيرة ولا مُسـلية، بل وجدتُ لـها أثـرًا ثقيلًا في قلبي، ثـمة شـيء مُصطنع فـي تفاصيل هذه الليلـة وهذا القصر، لا يوحـي بالأمان قط، ولا يجعلني أثق في أي شيء، بـما في ذلك فوزي بالجائزة، على الرغم من تـهافت الـمُنافسين..

تذكَّـرتُ حظـي العثِـر، وتـآزرَت ذكراهُ فـي مُخيلتـي مع زيـف المكان والوجوه، فحملتُ هـمًّا فوق هـمّ!!

الآن أحتاج راجي بشدَّة أكبر! وأريد هاتفي الـمحمووول...

جُلتُ في البهو الخارجي الذي أفضى إليه الباب.. بدا لي كقاعة استقبال فخمة، وقد اقتُطِعت منها مسـاحةٌ لبناء اسـتراحة الـمُتسـابقين هذه.. إذًا هو بـهو القصر! السلم الحلزوني الذي يُفضي إلى الدور العلوي مسدودٌ بحاجزٍ

حديدي، ولا مخرج سوى باب الاستراحة الذي دلفتُ منه الآن، فيما يوجد قبوٌ على الجهة الـمُقابلة..

أضـاءت فـي ذهني خاطرةٌ تُفيـد أن البهو لا بد أن يُفضـي بطريقة ما إلى المطبخ- الذي مـررتُ بحذائه من قبل- فقصدتُ القبو على عجل ومررتُ من خلاله، فوجدتُ الردهة الطويلة التي يتوسَّطها باب المطبخ، وعن يساري باب دورة المياه التي بدَّلتُ فيها ملابسي، موصدًا هذه المرة!!

هاجسٌ مـا دفعني لطرق البـاب، ففعلت، فاجتاز سُـمكَ الباب صوتٌ مألوفٌ لأذني، ولامسها مُطَمئِنًا..

كان صوتَ بيري!..

* * *

ثـمـة اختلاف ظاهر طرأ على بيـري؛ نظراتـها قلِقـة، عباراتـها موجزة، اختلاجاتـهـا متسـرِّعة، أو هكذا بـدت.. ألـمحتُ إليها بذلـك عدة مرات، ولكنها أكدت في كل مرة أن: لا شيء!.

- تعبانة شوية، وخرمانة على آخري، مافيش خُرم في الڤيلا دي مافهوش إنذار حريق.. حاجة أومليت!

- طب ما تِطلعي الجنينة..

- مـا يِنفعـش يا بنتي، مـمنـوع أثناء العـرض، وبعدين ورايا شـغل كتير موت.. باقولِّك ايه، لازم ترجعي الاسـتراحة بسرعة، هينادوا عليكي في أي لحظة..

- تِفتِكري هكسب يا بيري؟! أنا قلقانة بجد..

- شيلي من دماغِك، الجمهور بيحِبِّك ومُتعاطف معاكي.. أنا مُتأكِّدة.

ألـحَّت عليَّ كي أعود سريعًا إلى استراحة الـمُتسابقين، ففعلت، رغم أنني وددتُ لو تحدَّثتُ إليها عن عدة أشياء.. أردتُ أن أسألها إن كانت تعرف كيف تُدار الأمور داخل لجنة التحكيم، وكيف أكسبُ تعاطف أعضائها، وإن كان تصويت الجمهور هو كل شيء بالفعل، ولكنها لم تمهلني الفرصة، خشية أن أتأخر!.. كنتُ أستغرب العديد من الأحداث، ولا أجد سببًا لأن تؤول إلى حيث لم أتوقعها أبدًا، ولكن... هكذا تجري الأمور عادةً، عكس ما نتصوَّر!

كيف لم تحصل إيڤون المسكينة على نسبة تصويت عادلة، بالرغم من كل ما تحمَّلتهُ من عناء كي تمرَّ آمنةً إلى الجولة التالية؟!

أعترف أن خروجَها- ربما- أراحني نسبيًّا، فقد أثبتت قدرةً فائقة على التحمل، وأنها خصمٌ عنيد ومُثابر لأقصى درجة، قد يفعل أي شيء يضمن له استمراره في المسابقة! ولكنني في الوقت نفسه حزنتُ لأجلها، فهي صديقتي الـمُقرَّبة، وقد تكبَّدَت الكثير الليلة، ولم تجنِ شيئًا سوى ذلك الشيك الموعود..

ماذا كان ينقص الجمهور كي يتعاطف معها؟!

ماذا انتظر الـمُصوِّتون من المسكينة أكثر مما قدَّمت؟!

ارتدت زيًّا تنكريًّا كأفضل ما يكون، وتقبَّلت قرارات اللجنة- والعقبات التي زرعتها في طريقها- كجاريةٍ مُطيعةٍ مُستسلمةٍ لأيادٍ تسوقها!.. أدَّت ما طُلب منها- رغم استحالته- بحماسٍ وكفاءةٍ تامَّة.. كل هذا جعلني أتعاطف

معها فور إعلان نتيجة الجولة الأولى، وأرتاح لخروجها في ذات الوقت!!

علَّق البهلوان السمج على خروجها أكثر من مرة، مُشيرًا إلى عدم تعاطف الجمهور معها، والذي- حسبما يرى- يدقُّ ناقوس الخطر في آذان مجتمع يدَّعي العدالة والـمُساواة!..

لوهلـةٍ، لـم أفهم مـا يرمي إليـه، ولكنَّ خاطـرةً برقت في ذهنـي فجأة، أفزعتني مما يقول!! أيريد إقناعَنا بأن خروجها الـمُبكر جاء نتيجةً لاضطهاد طائفي؟! أي هراء وأي سُخف!

أحقًّا يرى أن مسـابقة ترفيهية كهذه مجالٌ مناسـب لإثارة زوابع من هذا النوع؟!!

حينهـا، تذكَّـرتُ أمـي- كاثوليكيـة الأصـل- وعائلتهـا الكاثوليكيـة الـمُحافِظة؛ خالاتي الأرمن الكاثوليك، أبناء خالاتي الشمامسـة ومنشـدي الكنيسـة، جدّتـي التـي خاصمـت أمي شـهريْن كامليْـن أملًا في أن تسـمح لـهـا بتعميـدي!!- تذكر لي أمي هذه الواقعة أمام أبـي ويضحكان منها ملء الأشـداق- وخالـي، طبيب الأسـنان ذائـع الصّيـت، الكاثوليكـي الـمُتديِّن ومُشـجِّع كـرة القـدم الـمُتعصِّـب، الـذي قسّـم حجـرات قلبـه بالتسـاوي بيـن أرمينيتـه الموروثـة ومصريتـه الخالصـة، ففـازت الثانية بفـارق النقاط والذكريات.. خالي، الذي وهب ثلاث سـنوات مـن عمره مُجنّدًا في جيش مصـر، وطنـه الذي يحمل جنسـيته مطبوعة في جواز سـفره ومنقوشـة على جدران قلبه، ويُباهي بـسنواته تلك ونوادرها إلى اليوم..

لا يـمكن أن يكون الحالُ كما يدَّعيه البهلوان!!

شعرتُ لحظتها أنني أميل نحو بُغضه، وأن صوته، الذي يدق طبلتَي أذني كجرس الـمزادات، ليس إلا طنينًا يصدر عن خنجر يُشحذ أسفل سترته!.. ربـما كرهتُ أيضًا لجنة التحكيم- التي تحركه- ولكنني سرعان ما آثرتُ السلامة، والتركيز على عبور الجولة الثانية.. لا يجب أن أفرّط في تعاطف أعضاء اللجنة معي، خاصة وقد بدا إيمانهم بي واضحًا عند هذه النقطة.

النتائج جميعها تصُبُّ في صالحي، وتشير إلى فوزي بالسبائك الذهبية والفيلم العالمي، وبخاصة خروج إيڤون- الـمُنافس الأصعب الذي واجهني- واستمرار ذلك الأحمق أمل، الذي يفتقد جميع حيثيّات الفوز ومؤهلاته!..

***

وصل إلى هذه الجولة خمسة متسابقين، منهم أربعة كانوا الأعلى نسبًا في نتائج التصويت، وواحد استعادتهُ لجنة الحكم طبقًا لقواعد الـمُسابقة، والتي أُعلِنت- فقط- مع إعلان النتائج!..

كان ذلك الأخير هو الأهطل أمل!!

اختيار ليس أعجب منه، ومع ذلك يجيء في مصلحتي دون أدنى شك، فذلك الأمل لا أمل فيه مهما اجتهد، فهو معدوم الموهبة بشكل فجّ، لا يـملك مظهرًا ولا لغةً ولا مهارةً من أي نوع!..

حسنًا فعلوا، فوجوده في الجولة الثانية يحسم اسمًا من الاسمَيْن الـمُستبعديْن مع نهاية الجولة.. أقل ما هنالك أن الضرورة الإنسانية

تستدعي استبعاده- مهما جاءت النتائج- فاقترابه خطوة أخرى من أمل الفوز بجائزة كتلك، قد يُعجِّل بأجله من هول الصدمة!!

تُرى، من سيكون المُستبعد الثاني؟! ذلك هو السؤال الأهم، وعليَّ أن أحصل على إجابة..

صبري سيمرُّ آمنًا- على الأرجح- فإجاباته عن أسئلة الجولة الأولى وشَت بمدى إصراره على المُضيِّ حتى النهاية؛ راح يجيب بصراحةٍ فاضحة، وبأريحيةٍ تامة لا تتناسب مع ما يُكشَف من حياته من مخازٍ.. بل أخذ يشارك البهلوان في السخرية من نفسه وإبداء مدى بؤسه وتهافت حياته، مُحاولًا إقناع الجميع بحاجته الماسَّة للفوز! لن يُفوِّت صبري الفرصة بسهولة، وسيفعل أي شيء ممكن أو غير ممكن كي يعبر الجولة..

قد يُستبعد ياسر، ذاك النحيل الهزيل الذي فشل في إجابة السؤال، فاضطُرَّ إلى مُجاراة كلب شرس- أرعبني على بعد عشرة أمتار- حتى عضَّهُ في النهاية عدة عضّات فظيعة! وقد جثم فوقه أسفل المسرح، بعد أن قفز في إثره..

ميرفت أيضًا عُرضةٌ لاستبعادٍ وشيك، فقد تُفضِّل اللجنة ألا تمُرَّ فتاتان، أنا وميرفت، إلى الجولة النهائية، ولذلك قد يقرِّرون إبعادها- أعني إقناع الجمهور بعدم جدارتها- كي يمُرَّ معي رجلان، وفي هذه الحالة سيكونا ياسر وصبري..

هذا أوقع على ما أظن.. سنرى ما سيكون!!

راجي مدحت بيومي

عُـدتُ خائبَ الرجاء إلى غرفـة التحكم والمراقبـة. لا أُضمر إلا القلق. لا ملجـأ عنـدي غير سـكونـها البـارد، وصمتهـا الـمُترقِّـب. لا صحبة غير ستيڤن عديـم الفائدة، قليل الاهتمام بالحدث برُمّتـه. أخلّ القلقُ بأجهزتي الحيوية. كأنه ڤيروس يُصيب جسـدَ نظام التشغيل. ضرب سرعة بديهتي في مقتل. أفسـد قدرتي على استشـراف القادم، وعلى اتخاذ القرار. غُصتُ في المقعـد الجلـدي لا ألوي على شـيء، عاجزًا عن الإتيان بخطـوة نافعة، في اتجاه أوقنُ بصحّته.

لا شك أن ستيڤن لاحظ شرودي، فقد بادرني قائلًا:

- لا يبدو عليك اطمئنان كبير بعد عودتك، ألـم تتوصّل لشيء؟

- لا شـيء يُـمكنك الإمساك به، إن شئت. الكولونيل مطمئن إلى صحة الإجراءات، وهذا كل ما يشغله، أما مسئولو التنظيم فقد أوصدوا في وجهي خزانة من حديد حبسوا فيها الـمُتسابقين.

- أمرٌ بديهي. لا تقلق، لا يزال يُـمكننا التدخُّل في الوقت الـمُناسب.

- أي وقتٍ مناسب، ستيڤن! ألا ترى معي أن هؤلاء يُساء معاملتهم أكثر مـما يجب؟

رمقنـي باسـتغراب، ولـم يُـردف. خجلتُ مـن انفعالي الـذي لـم يجئ محسـوبًا هـذه المرة. تـمتمتُ مُعتـذرًا، فقال: لا عليك، ثـم راح يعبَثُ في حاسـوبه من جديـد. ليته غضب. ليته قابـل انفعالي بانفعال أكبر. أي شـيء يُخرجنا من هذا السـكون الكابس. اغتظتُ لإهـماله الحديث معي لـمجرد أن طريقتـي لـم ترُقه. مع ذلك تفهَّمـتُ موقفه. يراني مُبالغًـا في القلق دون داعٍ. ربـما كنتُ كذلك بالفعل.

شـغلتُ نفسـي بـمتابعة اسـتعراضاتٍ كانت تُبثُّ على الشاشة، تـمهيدًا لعـودة أجواء المسـابقة. تخلَّلتها إعلانـاتٌ غريبة عن مُنتجـات أراها للمرة الأولى. كانت تلك مُحاولتي الفاشلة للسيطرة على خلايا القلق التي راحت تنقسم بداخلي. عُدتُ ببصري لشاشة ستيڤن أدعوه لتغيير مجرى الحديث. سألته:

- ماذا تفعل؟

- لا شيء محدَّد. هل تعرف ما إذا كانت غرفة التحكُّم هذه مجهَّزةً بنظام بثٍّ مُباشر؟

- أي بثٍّ مُباشر تقصد؟

- أقصـد، مادامت غرفة تحكُّم، فلا بد أنـهـا تتّصل بـمقصورة الإخراج بطريقة أو بأخرى.

- مُحتمل. هل تُريد أن تخرِج الحفل بطريقتك كي تُبدِّد مخاوفي؟

ضحك سـتيڤن، من قلبه هذه المرة، وقال بغبطةٍ واثقة أنه سـيمتلك يومًا مؤسسةً كهذه، وسيُخرِج حفلًا على الطريقة التي ترضيه. أجبته:

- كل مـا أعرفه أن الشاشـة 13بـهـا كاميرا مُدمجة، راجعـتُ عملها قبل بداية الحفل، سـوف تَبثّ تـهنئة القائمين على الـمؤسسـة للـمُشـاهدين في ختام الحفل، بـمناسبة الـهالوين.

- إذًا فنحن في قاعةٍ لكبار الزوار!

- نعم، يـمكنك قول ذلك.

- فاهنأ إذًا باللحظة يا صاح، ولا تشـغل بالك كثيرًا.. سـيكون كل شيء على ما يرام، أعدكَ بـهذا.

ثـم عاد وسألني:

- هل تحبها إلى هذه الدرجة؟

وجدتُني أتخلّى عن تحفُّظي السابق معه، قلت:

- نعم ستيفن، إلى درجة لـم أدرك حقيقتها قبل هذه الساعة.

- هنيئًـا لـتلك الجميلة بعاشـق من صنفك، وهنيئًـا لنا بلحظات الـمتعة هذه.. دع ما يشـغل بالك، فقد تفوز صديقتك الليلة بكنزٍ يجعلها تزهد فيك أنت نفسك، فلا تُفسِد آخر سويعات حب تـملكها بقلق غير مُبرَّر.

ضحكـتُ لقوله، مُنفِّسًـا عن بعض انفعالي. شـعرتُ بـمحبَّتي لسـتيفن ترسـخ في قلبي أعمق من ذي قبل. عدتُ لـمُتابعة الشاشـة 13، بينما أُحدّثُ نفسـي أن الأجانـب ليسـوا نـمطًا واحـدًا بالطبع. لا شـك أن مـن بينهم من يـملكـون قلوبًا كقلوبنا، تُزايد في مشـاعرها حـدّ الـمُبالغة. أن من بينهم من

لا يطأ أقدام الآخرين عامِدًا مُتعمِّدًا. أن بينهم من لا يُهين الناس قاصدًا. ستيڤن أحد هؤلاء.

***

نبهتني ملاحظة ستيڤن إلى أسلوب مُخرج الحفل؛ ذلك السقيم الذي يتعمَّد إثارتنا كلما هدأنا قليلًا. بالفعل، تبدَّلت موسيقى الخلفية مع بداية الجولة الثانية، إلى الأسوء بالطبع. انتقلت أجواء المسابقة من السخرية إلى الإرباك. تحفز وقلق يُمسكان بتلابيبنا قبل انطلاق الجولة. عتامة سوداء تسود الشاشة الخلفيَّة. تسطع في قلبها كل بضع ثوانٍ شرارةٌ حمراء، كنبضات قلبٍ يحتضر. أجواءٌ مقصودةٌ تمامًا، تهدّد حياة من كان في قلبه علَّة. والحب علّة كغيره من العلل، أو أسوء.

جلس المُتسابقان اللذان استُبعِدا بعد الجولة الأولى (إيڤون وعبد الرازق) على كرسيَّين من أربعةٍ شاغرة في خلفية المسرح. يتابعان الجولة الجديدة و«يدعمان» زملاءهم، حسب وصف ستيڤن. لم تبدُ عليهما أية رغبة في دعم حشرةٍ تتسابق. الحق أنني أشفقتُ عليهما عندما اقتربَت الكاميرا من وجهيْهما. وجه إيڤون المُمتقع بالصدمة، ووجه عبد الرازق المُتغضِّن بالشقاء. إمعانٌ صارخٌ في القسوة أن تهدَرَ كرامة شخص، ثم يُطلب منه أن يجرح وجهه بسِنِّ إزميل صدئ، كي ينحتَ ابتسامةً مُصطنعة، ويدَّعي تشجيع غيره للحصول على ما خسره منذ قليل.

بعد ثوانٍ، انبجست شرارةٌ حمراء في الشاشة الخلفية أكبر من سابقاتها. تزامن معها صوت فرقعةٍ كأنه انفجارُ عبوةٍ ناسفةٍ. انشقت الشاشة من

منتصفها فارجةً عن البهلوان السمج من جديد، في زي مختلف الآن. سترة خضراء فاقعة، براقة كفساتين الغانيات. على وجهه نفس المكياج الكريه. كرهته من جديد. كرهت صوته الحاد الرقيع، وهو يهدر قائلًا:

– حبايبنا الـمُشاهدين، عشاق شاشتنا في كل مكان، رجعنا لكم تاني مع جولة جديدة من دستينووووو....

أخيرًا، أعلن الوغد بابتسامته المرسومة بدقةٍ عن قواعد الجولة الثانية. صارت تنسل من جوف البقعة الحمراء في وجهه البلاستيكي بالتدريج، كتكتكة قنبلةٍ زمنية. ثلاثة أسئلة لكل متسابق تدور حول شخصيته التنكرية. عليه أن يلتقط الإجابة الصحيحة من بين اختياراتٍ أربع. الطريقة الأميركية الـمُفضَّلة إذًا، الـ(MCQ)، أو الاختيار من بين أجوبة مُتعددة. على الـمُتسابق أن يُصيب سؤالَيْن من الثلاثة على الأقل كي يجتاز الجولة. إن لم يفعل، وقليلًا من سيفعل بالتأكيد، فعليه أن يُلاقي مصير الشخصية، ثم ينتظر تعاطف جمهور الـمُصوِّتين معه عبر رسائل الـ(SMS).

مضغتُ عبارتهُ الأخيرة بتمهُّلٍ وريبة. تسرَّب إلى جوفي طعمُها اللاذع؛ طعم بارودٍ محترق وعرقٍ مملَّح. نبَّه حواسي كصلصة مكسيكية حارَّة. جاهدتُ كي أُرهف السمع لباقي عباراته وأستوعب الأمر. لا مجال لفقدان معلومةٍ واحدة، فالأمر جلل. أي مصير ينتظر داليا إن أخفقت؟ كاد تشوش الذهن يُنسيني زيَّها التنكري. نعم، جان دارك. برقت في ذهني صورتها أخيرًا، مُعلَّقة على الـمحرقة. هكذا أتذكَّر صورتها في إحدى الموسوعات التي كنتُ أستخدمها قديمًا، قبل أن تبتلع الإنترنت عالم طفولتي الورقيّ. صورة بالأبيض والأسود للبطلة الفرنسية الشجاعة، تواجه الموت بثباتٍ

مومياء مُحنَّطة. لكن داليا ليست بطلة، ولا هي شجاعة، ولا يصلح جسدُها البضُّ مومياء مُحنَّطة.

- أنا لا أفهم شيئًا!

كاشفتُ ستيفن بانفعالٍ كأنه المسؤول عما يجري.

- ماذا يقصد هذا الرقيع بـمُلاقاة مصير الشخصية؟ ماذا لو أن الموت هو النهاية المعروفة لـهذه الشخصية؟

أزاح ستيفن سماعة الترجمة الفورية من أذنيْه كي يجيبني:

- أداء مسرحي لما انتهى إليه مصير الشخصية، هذا كل شيء.

- ليس ثـمَّة أذى متوقَّع، ستيفن، أليس كذلك؟

- لستُ على يقين، راجي. في العام الماضي مرَّت معظم الأمور على خير، وإن تخلَّلت بعضها سخافاتٌ مبالغٌ فيها، ولكني أؤكد لك أن التدخلَ ممكنٌ إذا لزم الأمر.

- أي تدخلٍ تقصد؟

- لا شيء مُحدّد يا صديقي، ولكنك لن تسمح بإيذاء دانيا بكل تأكيد.

- داليا، ستيفن، بالـ «لام».

- نعم، داليا، عذرًا.. فقط عليك أن تُتابع الجولة، حتى نرى إلى أين تجري الأمور.

* * *

بـدؤوا بياسـر؛ جيـم كيـري النحيف صاحـب القنـاع الشـهير. حاولتُ استحضار هيئته الـمُعتادة التي أراهُ عليها كل يوم. لكنَّ ذلك لـم يعُد سهلًا. حاولـتُ كذلك اسـتعادة نـهاية الفيلم فلم أتذكّر. خطرَت لي بعض مشـاهدِ غير مُرتّبة. لـم تكن كافيةً لرسم صورة المصير الذي ينتظر ياسر عندما يفشل في إجابة الأسئلة. ياسر فاشلٌ بدرجةِ بائس. لا أشك أنه سيلاقي نـهاية جيم كيـري التـي لا أذكرها. لا بد أنـها نـهايةٌ سـعيدة، فالفيلـم كوميدي على أي حال. أما جان دارك، فحقيقة تاريخية مأساوية، ومؤلـمة.

- فاكـر أفيـش فيلمـك «القناع» يـا سـتانلي؟ خرجت كلمـات البهلوان بطيئةً، كمناديل ساحر متشابكة.

- تقريبًا يا فندم..

- تحت اسم الفيلم، كان فيه شعار مكتوب بخط صغير، فاكرُه؟

بعد برهةٍ أجاب ياسر:

- لأ مش واخد بالي حضرتك!

- علـى العموم، مطلـوب منك تِخـتـار أقرب ترجـمة للشـعار الصحيح من الخيارات اللي هتظهر دلوقتي على الشاشة:

(1) من الأرض للسماء.

(2) من تحت لفوق.

(3) من الصفر للبطولة.

(4) من الطفولة للكهولة.

عادت النبضات الحمراء تضرب قلب الشاشة، خلف الإجابات الأربع. سؤال صعبٌ للغاية. ما عاد أحدٌ يذكر تفاصيل الفيلم. ما باله بشعارٍ بخط صغير على مُلصقة دعائية. قدّرتُ أن الإجابة الثالثة هي الأقرب للمنطق، وهكذا أكّد ياسر بعد قليل.

- إجابة صحيحة!

صدح البهلوان بطريقةٍ أقرب إلى البذاءة، فتعالى التصفيق من أسفل المسرح، مُفرغًا شحنات قلقٍ مُختزنة. السؤالان التاليان كانا الأصعب. أحدهما حول الممثلة التي كانت ستقوم بدور تينا، حبيبة البطل، قبل أن تُستبدل بـ كاميرون دياز، والأخير عن نوع (يقصد سلالة) الكلب صديق البطل، وأيضا النوع الذي يتحوّل إليه عندما يرتدي القناع. سؤالان مستحيلان. لم أتوقّع إجابةَ أيهما بينما أتابع الردود، ولا استطاع ياسر.

انتهى أمر ياسر إلى مُتابعة الشاشة الخلفية مع الجميع، انتظارًا لمصيره الذي سيُلاقيه. ظهرت صورٌ لبدايات مقاطع من الفيلم. راحت تتبدّل وتختلط بسرعةٍ مُتزايدة. ثم بدأت تتباطأ رويدًا كالروليت كي تستقر على مقطعٍ تم اختياره بشكلٍ بدا عشوائيًا. كاميرون دياز مُقيَّدة اليديْن إلى جذع نخلة. الذعر يرتسمُ على قسماتها وهي تصرخ مُستدعيةً الرجل القناع كي ينقذها. بينما تظهر أسفل منها قنبلةٌ بميقاتيٍّ يتناقص، على وشك الانفجار. يُسرع الرجل القناع. يجذب القنبلة. يفتح فمه واسعًا كي يبتلع القنبلة بسرعةٍ قبل انفجارها. تنفجر بداخل بطنه، ويتجشّأ لهيبها في مشهدٍ كرتوني صارخ.

- إيش حالك يا عم ستانلي، عجبك المشهد؟

- جـميل يا فندم!

علّق ياسر بارتباكٍ بادٍ، والفزع يتسرّب إلى قسماته الـمُرتجفة.

- تحب تبلع القنبلة الأول ولا تطلَّع لنا نار من بُقَّك الأوللللللللل؟

سـأله البهلـوان مُداعبًـا الكاميـرا، بينمـا اقتربـت منهمـا الـمُعاونتـان الجميلتان. إحداهـما حملت عبوةً سـوداء مزركشةً بالأحـمر والأصفر. أما الأخرى ففردت أمامها شريطًا فضيًا لاصقًا، وهي تتهادى ببطءٍ، وترنو بغنجٍ نحو الكاميرا. التقط البهلوان العبوة وجذب أعلاها فاتحًا، بينما يرمق ياسـر وهو يتلفّت من حوله كخاروفٍ يتفحّص آلات الجزار.

- شوف يا سـيدي.. حبيبتك، تبلع لـها الزلط، وحبيبتك النهارده جايزة بـ25 كيلو دهب. ناوي تنقذها ولا تسيبها تطير منك؟!

- لا يا باشا ننقذها بأمر الله، بس قول لي اعملّها ايه؟!

- لا دي حاجة بسـيطة خالص يا عم سـتانلي.. ده حتى ستانلي الأصلي بلـع قنبلـة موقوتـة، انت بقـى يا تعبـان هتبلع عبـوة بونبوني بيفرقع، شُـفت البساطة؟

افتح بُقَّك يا بطلللللل!

جـذب فكّـه الأدني كالجـزار يُحكـم الإمسـاكَ بذبيحته. أفـرغ محتوى العبـوة دفعـةً واحـدةً بداخـل فم ياسـر. سـارعَت الـمُعاونـة بالإطباق على شفتيْه بشريطٍ لاصق. راحت الأخرى تُحكِم قطعةً أخرى من اللاصق حول معصميْه، بينما يثبّتهما البهلوانُ مسرورًا بإنجازه.

- يـا سـلام عليك يا عم سـتانلي يا جامـد.. تبلع كيـس مفرقعات كامل مـرة واحدة؟! ده انت مُفتري! أيوة أيوة اتنطّط، خلّي الحريقة تطِّفي، ده انت ولا اللي بلع فحم يا راجل!!

أخذ البهلوانُ يُعلِّق على الـمشـهد بعباراتٍ سـخيفةٍ من هذا النوع. بينما راح ياسر يتلوّى فوق أرض المسرح ذهابًا وإيابًا كنحلةٍ دوّارة، وقد جحظت عيناه واحتقن وجهه، فصار على وشـك الانفجار.. تسـارعت ضربات قلبي خوفًا، فقمت مُنتفضًا صائحًا في ستيڤن:

- هل رأيت؟ سيموت الفتى!

- نعم، أشعر بأنسجة فمي تكتوي لمَرآه..

- شـيءٌ مُـروِّع.. كيف يكون مصير جـان دارك إذًا، إذا كان مصير القناع بـهذا السوء؟!

- ربـما تنجح في إجابة الأسئلة..

- لا أتصوّر أن يُفلِتوا أحدًا من ألاعيبهم.. إنـهم يتسلّون بـالـمُتسابقين، لا حاجة لـهم لأجوبةٍ أو معلومات.

- هكذا تظن؟

- ألديك تصوُّر آخر، ستيڤن!

- سيتأكَّد لنا كل شيء عما قريب.. اهدأ قليلًا كي نقرِّر ما علينا فعله.

أمل معاطي عبد المعبود

من قال إن عصر المعجزات انتهى؟!

لا بد أن من قال ذلك جاهلٌ، قصيرُ النظر، وليس القامة!

أما قصير القامة، عديم الوسامة، الذي يحمل اسمًا آمِلًا في عطاء ربِّهِ المعبود- نعم، أعني نفسي!- فقد صار يرى العكس تمامًا، ولا ينتظر إلا أن يجيء بمعجزةٍ أكبر خلال الجولة القادمة، ثم يهتف بشعارٍ مُلهِمٍ يُضيءُ بالأمل طريق اليائسين..

يقول الشعار: «اخدِش الأرض بجلدك المُتقشِّف.. انبِش ببرائن من حديدٍ قبورَ أيامك التعيسة.. فالمعجزات ترزح أسفل قدميْك!»

أي حلمٍ هذا الذي أعيشه؟! أي دهشةٍ، وأي طفرةٍ، وأي فتحٍ قريب؟ أفقتُ تمامًا من تأثير الخمر مع انتهاء الجولة الأولى، التي ختمها البهلوان المُراوغ بإيهامي بأن أمري قد قضِي، أن أملي في الاستمرار في المُسابقة قد تبخر عن آخره في فضاء القبة الهائلة، قبل أن أهبط عائدًا فوق الأرض، ثم بعد قليلٍ عاد ليعلن النتائج وهو يحدجني مُمازحًا بين الفينة والأخرى..

ياله من ماكر!. أدهشتني قدرته على إتقان دوره بذكاء ومصداقية، صرتُ مبهورًا به، مأخوذًا بأدائه، راغبًا في أن أتتلمذ على يديْه ولو لـهذه الليلة فقط، فهو نجم أول عرضٍ مسرحيٍّ حقيقيّ أشارك فيه.. ربـما أُمسي أكثر نجومية منـه مع نـهاية السـهرة، فتتخطّفني مسـارح عالمية لا تقل إبـهـارًا عن قطعة الخيـال هـذه التي تحملنـا، ولكن حتى يكون لـي ذلك فلا مانع مـن التعلُّم منه!..

تفصلنـي عـن الحلم الـذي لـم يخطر لي مـن قبل خطـوةٌ، أو خطوتان؛ حلـم التمثيـل والأضواء!. قد يتسـع الحلم أكثـر وأكثر بعد الفـوز، أكثر من الإدراك نفسـه، ربـما لا يرضيني عندئذٍ أن يُلبسَـني عـادل إمام بجلالة قدره فانلـةَ اعتزالـه، كما كنت أحلم قديـمًـا أيام المعهد الفنـي الصناعي، قبل أن تنبطـح في ذهنـي الأحلام تحت وطأة العوز، ثـم مرض أم إسـلام، وردفيْها الـمُنتفخيْن..

أيامها، كنتُ أرى نفسـي في مثالِه الـمُلهِم؛ قصير القامة، بسـيط الـهيئة، تُجافيه الوسـامة كما تُـجافي الأحلامُ نومَ البائسـين. أبـدأ بأدوارٍ ثانوية أقدِّم خلالـها دور شـاب بسـيط الـهيئة، يفرض عليه سوءُ حظه مواجهاتٍ طاحنةً مـع أقوياء مفتولـي العضـلات والأوداج، فيواجههم بغبائه الـذي لا تنقصه الثقة، فيوسـعونه ضربًا مُقسَّـطًا على أقسـاطٍ غير مُريحةٍ على الإطلاق، تثير الشـفقة والضحك معًا!. بعد عدّة أدوار، تلتفت صوبي الأضواء والعدسات وتتهاطل عليّ عروضٌ يفترش فيها دوري مساحاتٍ أكبر، فأكبر.. وفي لحظة فارقة ما، ترفض مديرةُ أعمالي - ليست أم إسلام طبعًا- أن أُشارك فيما دون البطـولات الـمُطلقة، وتعاونني فـي اختيار من تنال شـرف الوقوف أمامي،

والتي ستصير نجمةً مُتألقةً في غضون عدةِ مشاهد، تُغذي خلالها بأنوثتها الطاغية مكامنَ البطولة في جسدي الهزيل، بينما أنهالُ ضربًا وسحقًا على أصداغ أفراد العصابة مفتولي العضلات، وتفوز هي بقبلاتي المُلتهبة فيما بين مشاهد «الأكشن».

هكذا ارتسم لي حلم عادل إمام في السابق، قبل أن ترتعش في سقف حياتي لمبة الحلم، ثم تنطفئ تمامًا بعد فترة، فأتصوّر أنها احترقت إلى الأبد، ولا سبيل لتبديلها تحت وطأة الظروف.

ثم تجيء الجولة الأولى من الدستينو ضاغطةً بشدّة، فإذا بها تضغط فيما تضغط على قاعدة اللمبة القديمة، فتُضيءُ بعد موات! لم تكن مُحترقةً إذًا، لم يكن يعوزها إلا المزيد من الضغط كي تتوثق جيدًا مع مقبسها الكهربائي.. أجدر بكَ يا أمل أن تتحلّى بشيءٍ من اسمكَ الذي تحمله هباءً، فلا تترك اللمبة تنطفئ مُجدَّدًا مهما كلَّفك ذلك..

***

أعلن البهلوان أن التصويت لم يجئ في صالحي، وأن اللجنة هي من استعادتني في جولةٍ جديدة! كاذبٌ ماكرٌ بكل تأكيد، لكنه ممثل قدير.. لجنة كهذه لا يمكن أن تمنحني - أنا! - فرصةً دونًا عن الباقين. الحقيقة المنطقية الوحيدة هي أن تصويت الجمهور هو ما دفع بي إلى هذه النقطة، واللجنة تُعلن العكس كي تُحوّل دفة التصويت عني، إن استطاعت. لم أعُد أشك أن جمهور المُشاهدين يؤمن بموهبتي، يرى في هيئتي عادل إمام جديد، يعِدُهم بالكثير من المرح، اختزنَتْهُ الأيام كي يطفر ضحكًا وأنسًا يُعيدُ إلى حياتهم بهجةً مفقودةً، وطعمًا غائبًا. يصوِّتون لي رغبةً في

انتشـال أنفسـهم من بؤسٍ مُقيم، لا رغبةً في انتشـالي أنا!. سـيصوِّتون مرارًا وتكـرارًا، فقد صرتُ فـرسَ رهانـهم في مواجهة هـؤلاء الـمُتعجرفين. مرة بعد مرة سـتُفاجأ اللجنة بأعداد الـمُصوِّتين الذي يرجّحون كفّتي، رغمًا عن توقعاتـهم الـمُتوهَّـمـة، هـم لا يعرفون شـيئًا عن المصريين، ولا يدركون نـماذجهم الـمُفضلة، هم لا يُتابعون أفلامَنا كما نُتابع نحن أفلامَهم ونحفظ عن ظهر قلبٍ نجومَهم الوسـماء، مُتناسقي القوام. هم لا يدركون أن أضألَنا حجمًـا وأقلَّنا وسـامةً كثيرًا ما يصير نجمَنا الأثير، أننـا نُـهدي البطولة لعادل إمام، أمام حسـين فهمي، كي نلاعبَ الكبار مـن خلاله، ونصطف خلفه في المعركة، فلن يُعبِّر عنا إلا شـبيهٌ لنا، نرى أنفسَـنا في هيئته ونتلمّس السحاب أعلى هامته الـمُختزلة، وهذا ما يفرقنا عنهم!.

* * *

مـرَّ نصف الجولة الثانية كأفضل ما يكـون.. وضعتني لجنة التحكيم في منتصـف الجولـة تـمامًا، كما تُـرصّ قطع الفاكهـة في قلب تورتـة احتفال، يسبقني زوجٌ من الـمُتسابقين، ويلحق بي زوج. أما الزوج الأول- الـمُكوَّن من ياسر النحيف وميرفت الـمُمتلئة- فقد شهِد انـهيارًا مُدوٍّ، أعاد إلى ذهني مشـهدًا شـاهدته على اليوتيوب للثنائـي لوريل وهاردي وهـمـا يصطدمان بعنفٍ نتيجة غباء لوريل وعصبية هاردي. هكذا جرت الأمور؛ مارس ياسـر دور لوريـل بغبائه المعروف، فراحَ يتقافز وينبطح ككرة القدم المنبعجة التي يُـمـارس بـها الأميركان كـرة قدمٍ التي لا يفهمها أحد، فلـم يجنِ أول الأمر إلا ضحـكات الجمهور السـاخرة، ثـم حصد صيحاتـهم الـمُستـاءة عندما سـألـهم البهلوان إن كان باسـتطاعة ياسر مواصلة التسـابق. أما ميرفت- أو

هاردي- فقد حسمت أمرها بعصبية كلاب الحراسة التي تسكنها، مع أول سؤال للبهلوان، قالت إنها لم تسمع باسم الشخصية التنكرية التي يُشير إليها البهلوان قبل هذه اللحظة! ضحكْتُ بجنونٍ بينما أُجاهدُ خيالي كي أتصوَّر ميرفت في هيئة الشُّرطِيَّة التي قامت بدورها صاروخ الفتنة أنجيلينا جولي! ما كان من البهلوان إلا أن دفعها مباشرةً إلى مصيرها المحتوم؛ ناولها مسدَّسًا وطلب منها التصويبَ على هدفٍ متحرِّكٍ كي تنقذ حبيبها من قاتله المُتسلسل!.. كان مشهد انبطاحها على وجهها والفتق الذي أُصيب به بنطالها عند منتصف عجيزتها هو «ماستر سين» الفيلم الكوميدي الصارخ الذي أدَّته..

فشل مُكمِّل لما أتقن ياسر بدايته.

مهما كان من أمر الزوج التالي- الكلب بندق والشهيدة جان دارك- فلن يؤثر على بلوغي الحتمي للجولة النهائية، سأكون قَطعًا بين ثلاثةٍ يتأهلون في كل الأحوال، وعندها لن يوقفني شيءٌ عن حلم البطولة المُطلقة؛ بطولة شارلي شابلن، وداستين هوفمان، ومستر بين، وعادل إمام!

المجد لقصار القامة، منزوعي الوسامة، محطّ الأنظار والأضواء..

امتلأتُ حماسًا وإقدامًا بينما عاد البهلوان لجولةٍ جديدةٍ من بطولتي الخالصة..

جذبني من كتفي باحترامٍ ومودة وهو يُعدِّل من وضعيَّتِنا أمام الكاميرا، وبادرني بالسؤال:

- جاهز يا جيري؟

- ميّة ميّة يا أستاذ.

- السؤال الأول: اسم مخترع شخصية جيري..

(1) ويليام حنا.

(2) تِكس أفيري.

(3) والت ديزني.

(4) بوب كلامبت.

قُدّامك 30 ثانية للإجابة عن السؤال يا أستاذ جيري..

- مش محتاجهم يا أستاذ، الإجابة واضحة: والت ديزني.

- متأكد يا جيري؟

- طبعًا سعادتك، والت ديزني.

سحب ذراعه ببطءٍ من فوق كتفي - الذي تهدّل باضطراب ضربني فجأة - وواجه الجمهور مُردِفًا كأنما يخاطبني:

- خيّبت ظني فيك يا جيري.. معقول مش عارف مين اللي صنعك؟! مين السبب في وجودك! يا راجل..

أربكتني طريقته! كدتُ أرتجف، لدرجةٍ تبين حتى من تحت الزيّ الرحيب، ولكني طمأنتُ نفسي بأنه لا بد يراوغني، لا أكثر. لن أخطئ في هذه! والت ديزني هو مخترع تلك الشخصيات الشهيرة؛ ميكي ماوس، بطوط، توم وجيري.. توم وجيري؟! نعم!! لا!!!

- إجابتـك خطأ يـا جيري؛ والت ديزني مصمم رسـوم متحركة أمريكي عبقـري مافيـش كلام، يـمكن أهم واحد على الإطلاق، لكن شـخصيتك يا جيري مش من اختراعه.. انت مش عارف ابوك؟! عيب عليك..

مع خفوت الضحكات الجياشة، ناولني ضربته القاضية التالية. كنت قد فقدتُ تركيزي وانصهرتُ تعرقًا وسـخونةً أسفل القماش الاصطناعي، رغم البرودة الـمُفترَضة، شعرتُ بحاجةٍ ماسَّة للتبول أيضًا! احتبس البول، وأريق الأمل وماء الوجه. ما عدتُ أهلًا لسماع سؤاله التالي، أعادهُ عليّ مرتيْن كي أستوعبه.

- ركِّز يا جيري عشان ترجع تاني تـمثّل أفلام عالمية زي زمان! السؤال بيقـول: الفيلم العالمي اللي فُزت ببطولته، قدّام الراقص الأمريكي الأشـهر جيـن كيلـي، بعد ما كان مُرشَّـح لنفس الدور غريـمك ميكي ماوس.. اسـم الفيلم هو:

(1) دعوة للرقص.

(2) خطير عند البلل.

(3) رَفع المرسـاة.

(4) رقص البحّارة.

30 ثانية يا جيري ما تنساش..

لـم أكُـن موقنًـا إن كان لا زال يُمازح، أم أنـه جادٌ في السـؤال!.. ميكي ماوس يُرشَّحُ لدورٍ، ثـم يخطفه منه الفأر جيري! أي هراءٍ هذا؟!

- 15 ثانية يا جيري، فكَّر مافيش وقت..

- ممكن تعيد الإجابات حضرتك؟ معلش آخر مرة!

- ما هي قُدّامك أهِه على الشاشة!

جذبتُ القناع لأسفل، مُوسّعًا ثقب العينيْن. أذاب العَرق منطقي، والحرارةُ بخَّرت تركيزي! كيف أختار؟ هل أُلقي بزَهْر المصادفة فأحصد الهب يك؟! لا فائدة من المحاولة، إن مررتُ من هذا السؤال بمُصادفةٍ كبرى، فحتمًا سأتعثَّر في الذي يليه، طالما أرزحُ تحت ثقل القناع القائظ.

لا مهرب من المُواجهة!.

- مش عارف يا أستاذ.

- اختار أي إجابة طيب!

- خلاص: دعوة للرقص..

- مُتأكِّد؟

- لأ طبعًا..

- على العموم: انتهى الوقت! للأسف يا جيري إجابتك غلط لتاني مرة. واضح انك بتعاني من حالة فقدان ذاكرة النهارده!

لذتُ بالصمت.. أُريقت فرص المرور اليسير، لم يعُد لديّ ما أقولُه، والتجربة علّمتني أن المايكروفون يكون مغلقًا كلما كان لديّ ما أقول!. أيقنتُ أن المُواجهةَ لا مهرب منها. المواجهةُ أداءٌ فرديّ، عزفٌ مُنفردٌ أمام جمهورٍ شغوف، ينتظر مني الكثير، وأنا هنا كي أصنع من أدائي بطولةً مُطلقة،

كي أمتِّع الجماهير، كي أُسلّيهم، كي أحتلّ رقعةً من ذاكرتهم، أُصيب قدرًا من شغفهم، أمتلك ألبابهم.

استأنفتُ الصلح مع قناعي المُبتسم، أومأت في اتجاه البهلوان إيماءةً مفادها «آدي الله وآدي حكمته»، تلاشت الخيارات، ولم يعُد أمامي سوى المواجهة..

***

لم يوحِ مصيري بأي درجةٍ من التعاطف معي، على الإطلاق.. يدُ المصير هي اللجنة، واللجنة لا قلب لها، لا تتعاطف مع أحد، مهما انحاز الجمهور لصالحه، بل ربما تُمعِن في استفزاز المُصوِّتين، فتقذف بنجمهم المُفضَّل في تهلكةٍ أشدّ!.

من حلقة «صيد القطط» اختارت اللجنة مصيري. عرضت الشاشة في الخلفية مشاهد من هذه الحلقة الشهيرة- كما وصفها البهلوان- ولا أذكر أني شاهدتها من قبل، ولو بالصدفة، رغم علاقتي الأثيرة بتوم وجيري.

نتعاطف دومًا مع جيري، ضد توم.. نؤازر الصغير، ضعيف البِنية، أمام الضخم الذي يسعى لافتراسه. تلك حكايتنا اليومية؛ نلعب دور جيري الصغير، نُوظِّف ذكاءنا وسعة خيالنا كي نفلتَ من أقوياء يترصّدون بنا في كل زاوية. أما اللجنة، فقد اختارت فيلمًا يمنح جيري لتوم منذ البداية، في مشهدٍ لم يمرّ بي من قبل!

رمقتُ الشاشة الخلفية، أستشرف مصيري.. توم يحمل سنارةً وصندوقًا للطُّعوم، في طريقه إلى حافة بحيرةٍ ليصطاد الأسماك. يفتح الصندوق،

كاشـفًا عن مختلف أنواع الطُّعوم، مُوزَّعةً في خاناتٍ مُتجاورة ومُعنونة، في الأخيـرة يرقد جيري تحت لافتة «طُعْم حيّ»، حسـبما أبانت الترجمة. يقوم جيري من رقاده ويُبدِّل ملابسـه ضجِرًا، مُنتحلًا شـخصية الطُعم الحيّ دون أن يُبـدي اعتراضًـا، مُستسـلمًا لتعليمات توم وهو يلتقطـه ويُحكِم وثاقه في طرف السـنّارة.. تتصايح أسـماك البحيرة كي يهبطَ الطُّعم إلى سـطح الماء المثلـج، وعنـد اقترابه، تتقافز فـي اتجاهه كي تلتهمه، ولكنّ جيري يشـتبك معهـا في عراك مُحتدم حتى يتخلّص منها جميعًا.. ولكن بعد برهة، تظهر له سـمكةٌ عملاقة، فيهرب منها فزِعًا..

أي مصير هذا؟!

أعلنها البهلوان جذِلًا:

- الأحداث الأكثر إمتاعًا دايـمًا من نصيبك انت يا جيري!. بعد الفاصل، هنشوف جيري بيحب الصيد ولا لأ أعتقد النهارده مش هيحبه خاااالص!! هنعرف بعد الفاصل، خليكم معانا.

اصطحبتنـي الفتاتـان لاسـتراحة الـمُتسـابقين، لحيـن تجهيز المسـرح لاسـتكمال الـمُسـابقة.. استسـلمَت ذراعاي لوجودهـما، وهدأت نفسـي. الجمال متعةٌ للنفس، رغم كل شـيء. افتقدتـهما سـريعًا- بكل أسف- عند باب الاسـتراحة حيث تركاني، ودلفتُ وحدي مواجهًا أنظارًا سُلِّطَت عليّ، تبعتها ابتسـاماتٌ مُجامِلة بزغت كلما التقت عيناي بعيون الآخرين. وحدها الأسـتاذة داليا هي التي لـم تُبادلني الابتسـام، أشـاحت بوجهها سريعًا نحو شاشة التلفاز تتابع الإعلانات، فلم تلتقِ نظراتنا.

كانت فرصةً كي أمضغ الواقع الجديد على مهلٍ، مُحاولًا هضمه. لا شك أن تغيُّرًا ما قد انتابني نحو الجميع، وتغيُّرًا مماثلًا ومنطقيًّا ينتابهم نحوي، تنطق به عيونهم وشفاههم ولغة أجسادهم. أذكر إشاراتٍ كتلك، تعلَّمتُها أيام المعهد من مُخرجي المسرح الجامعي؛ لغة الجسد وما تُفصح عنه. حدَّثني ياسر بكلماتٍ مضغمةٍ مُتذبذبة لم أُفسِّرها بسهولة، بسبب تورُّمِ فمه. أما ميرفت فجلسَت جلسة مُتشنِّجة، ضامَّةً فخذيها بإحكام تعتصر شحومها المُتكوِّمة، فتذكَّرتُ مشهد انبطاحها والفتق الذي أصاب بنطالها الضيِّق في مكمنٍ حسّاس. صبري عاد لاهتمامه بقناع بندق الذي خلعه داخل الاستراحة، يخيط سِنَّةً أماميَّةً من القماش سقطت من بوزه الطويل قبل فقرتي بقليل. شيءٌ ما يجثم على صدور الجميع، يُكبِّل إرادتهم ويشحن أحدهم ضد الآخر. يُدرك أكثرنا أن الجائزة ليست من نصيبه- أنا الوحيد المُؤهل للفوز بها إن أعملنا المنطق- ورغم ذلك يُدفع كل منّا لمُواجهةٍ غير محسوبة العواقب مع قدَره، ومع الجميع!.

عجيبة نوازع البشر.

رغم تهيُّبي مما ينتظرني، ارتحتُ لاستدعائي مُجدَّدًا. لا حاجة للبقاء وسط عيون مُتربِّصة، وأيادٍ تودُّ لو تفتكُ بي، أو تحبسني عن المواصلة. سأواصل مهما كلَّفني ذلك، الجائزة تستحق عمرًا يُهدر من أجلها، وأواصر تُمزَّق قربانًا لها لو تطلَّب الأمر

- هو اسم حضرتك إيه؟

سألتُ الملاك ذا الجناحيْن السوداويْن عن يميني، فتلفَّتت بابتسامةٍ تفكِّكُ المُفاعلات النووية، وتُعيد السلام العادل إلى منطقة الشرق

الأوسـط، ولكنها لـم تُجِب، مع ذلك اعتبرتُ ابتسامتها وسام استحقاقٍ من الدرجة الصِّفريَّة، واستبشرتُ كثيرًا بالقادم..

يومًا ما سأُقـبِّل حسناواتٍ كهاتيْن، أو هـما تحديدًا، بعد أن قنعتُ طويلًا بتقبيل أم إسلام، بخدَّيْها الذيْن لا تفصلهما عن لغدها اللحيم أية حواجز!.

انشـقَّت الشاشـة الخلفية كي نـمُـرَّ من خلالـها، فارتعـدتُ رعبًا لمرأى مسرح الأحداث!..

أي إبـهـار وأي إمكاناتٍ هذه التي سـتبتلعني بـلا رحمة؟! حوض هائل ممتلـئ بالمـاء غاص في جوف أرضية المسـرح الـمُضيئة، تعلّق أعلاه حبلٌ يشـقُّ الـهواء مُندفعًا نحو الحوض، ثـم سُـرعان ما ينجذب مشـدودًا لأعلى قبل أن يضرب سطح الماء، كأنه سوطٌ سودانـي أسطوري في قبضة السماء!! تَدافع المشهد على موسيقى توم وجيري المرحة، وتلاعبَت أضواءٌ في كل اتجاه كأن سـيركًا قد نُصب في التو واللحظة. أين ذاك من أجواء القلق التي تركتهـا منذ قليل؟! رمقـتُ الخلفيةَ من حيث يندفع السـوط ضاربًا الـهواء، فإذا بصورةٍ تـملأ الشاشـة العملاقة؛ توم ممسكًا بسـنارةٍ يقذف بطرفها نحو المسـرح، فيندفـع الحبل الـهائل صوب سـطح المـاء، مُسـتجيبًا لرمية توم العملاق.. الحبل هو طرف السنّارة إذًا، ولا شك أن الطُّعمَ ليس إلا أنا!.

ماذا عن السَّمَك؟!!

اقتـرب مني البغلان مـن جديد، في ظل غياب مُريبٍ مـن الفاتنتيْن ومن البهلـوان، جعلني أفتقده لأول مرة وأفتقـد الأمان في وجوده. أليس لـهذيْن

شغلٌ سواي؟! أينقِدونهما الدولاراتِ كي يمسكاني ويقذفان بي إلى مهالك شتّى!. سحقًا للدولارات إن لم تكن من نصيبي آخر الأمر.

استسلمتُ لأيادٍ تعهَّدَت بربط أحزمةٍ جلدية حول وسطي، وشدٍّ وثاقي بشدَّةٍ شككتُ في تحمُّلها لجذبة الحبل التي تابعتها منذ قليل. امتدَّت قدماي تحاولان لمس الأرض، عندما ارتفعتُ مُرغمًا، وحملني الحبل كالجوال إلى أعلى الحوض!. لولا موسيقى توم وجيري الإيقاعية المُبهجة لسقط قلبي أسفل قدميَّ قبل أن أرتقي فضاء المسرح هكذا.

ماذا عن السَّمَك؟!!

ظل السؤال يراودني بلا توقفٍ حتى أجابني الحوض مع أول دفعةٍ من الحبل شقَّت بي الهواء، وشقَّت وسطي في ذات الوقت! قبل أن يُلامس خُفّاي سطح الماء، انبثق من قلب الماء على مسافة متر منّي فكٌّ حديديّ دائريّ، انغلق نصفاهُ فأحدثا صوتَ اصطكاكٍ معدنيٍّ مُرعب، كما لو أن فخًّا يصطاد فريسةً مندفعة! في الرمية التالية نظرتُ لتوم العملاق، الذي احتلَّت ابتسامته الشريرة الهازئة قلب الشاشة، شاعرًا أنه هو من يعبث بي بالفعل. اصطك الفك هذه المرة على مبعدةٍ مني، في الطرف الأقصى من الحوض، حمدتُ الله، ولكني شعرتُ بألم حارق يخترق وسطي فيشقني نصفيْن.. كدتُ أبكي قبل الرمية الثالثة، تذكَّرتُ أم إسلام بقلب مُعتذر، ودعوتُ الله أن يُنهي هذا العذاب حالًا «آآاااااه!!» انشقّ جوفي عن صرخةٍ تنتزع الروح، قبل أن أدرك ما جرى؛ كُشِط باطن قدمي كسطحِ باذنجانةٍ نُزعَت قشرتها!! ألمٌ رهيبٌ يحرق قدمي، وآخر يضرب وسطي بسيفٍ ناري.. اندفعتُ

مُجدَّدًا نحو سطح الماء مُدركًا لما وقع؛ لقد قُضِم خفّي الأيسر، أكلَهُ أحدُ الفكوك الحديدية الشرسة بينما كنتُ شاردًا أستطلع الوراء، ونهش باطن قدمي الذي ينزف الآن دون شك!

بكيت، بينما أقسم لنفسي ألا أمنح الفرصة مُجدَّدًا لانتزاع شيءٍ من جسدي. ضربتُ برجليّ الهواء كفأر تجاربٍ يُلتقَطُ من صندوقٍ زجاجيّ، عازمًا أن أضربَ الفك المُفترس وأُغلقه، حتى وإن كان بالقدم الدامية.. آااه!! تُرى هل أصبته؟! لم أكن واثقًا، ولكني ظللتُ أضرب الهواء بعنفٍ يائس كلما قاربتُ على سطح الماء الداكن..

امتلأ الفضاء بالعدِّ التنازليّ؛ خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد، صفر..

عادت الأضواء المُلوَّنة لتصبغ المكان، وأضاء جوف الحوض زاهيًا بينما ارتفع بي الحبل ببطءٍ وهدوء، وأزاحني نحو موضعي الأول في خطٍّ موازٍ للشاشة العملاقة، حيث قبع توم العملاق مُلوِّحًا نحوي، يودِّعني بوداعته الزائفة..

استقبلني البهلوان والعملاقان عند هبوطي على المسرح. راح يهذي بعباراته الساخرة التي لم أعُد أحتمل سماعها. بادر البغلان بفكّ وثاقي، فواجهتهما مُنتصبًا، مُفصِحًا بلغة جسدي التي لن يفهمها غيري عن اعتدادٍ بالنفس، وثقةٍ في الفوز. ثنيتُ أصابع قدمي اليسرى لأسفل، تحت ما تبقى من خفِّي المقضوم، كي أرتكز عليها كاتمًا ألمي، عازمًا على تأجيل انهياري لوقت آخر.. مرَّت الثواني بطيئةً، تتشبَّث بألمي كما أتشبَّثُ بالأمل، وتحشُرُ الجمرات المُشتعلة أسفل قدمي. شعرتُ بانهيارٍ وشيك، كدتُ

أتصدَّع، كدتُ أنصهر، أتلاشى من أمامهم وأخسر كل شيء، حتى الرغبةَ في البطولة.. بطولة أدفع ثمنها لحمًا مُمزّعًا، وصوتًا مكتومًا، وأواصر مُمزَّقة، وكرامةً مُراقة.. كلفةٌ باهظة.

أنهى البهلوان عبارته الأخيرة، فأنقذني من جريمةٍ كدتُ أرتكبها في حق نفسي، بمنحها رخيصةً لانهيارٍ يجتاحني. جذبني ببطءٍ نحو الشاشة الخلفية، حيث توم المُلوِّح باستهزاء. شعَرَ بي عندما التفتُّ إلى الوراء أرمق آثار الدماء التي طبعَتها قدمي على الأرضية المُضاءة، دماء تُشِعُّ بألوانٍ شتى في مواضع مختلفة. نظر معي حيث نظرت، وربَّت على كتفي بتحنان مُفاجئ! رنوتُ إليه مُتشكِّكًا في موقفه، فإذا به يبتسم لي بقسماتٍ مُشفِقة، لاحت من وراء وجهه المصبوغ، ولأول مرة شعرتُ أني أُصدقه.

داليا عادل سراج

هل تأزَّمَ الـموقف؟!

ليس بعد، على ما أظن!..

ربـما بعض الشيء، ولكن لا بأس.

جرت الجولة سيئةً جدًّا مع جميع الـمُتسابقين، مشحونةً، ومُوتِّرة. ابتلع الفشـل مُتسـابقًا تلو الآخر أثنـاء الإجابة عن الأسـئلة، فاضطـروا لمواجهة مصائر أقل ما توصف بأنـها مُفزعة!! لن أمُرّ بـمثل هذا.. أرجو ذلك!

صبـري هـو الوحيد الذي اسـتطاع- بأعجوبـةٍ لا تتكـرَّر- أن يُفلت من مصيـره، فأجاب سـؤالَيْن مـن الثلاثة بشـكل صائب.. فعلها بإصـراره على اختيـار الإجابـة الثانيـة لجميع الأسـئلة، مُعترفًا في النهاية أنه قـرَّر ذلك منذ البداية!..

بالنسـبة لـي، احتمـال الإجابـة الصائبة عن الأسـئلة لا يتعـدّى الثلاثين بالمائة، رغم معرفتي الجيدة بشـخصية جان دارك من خلال فيلم سـينمائي شـاهدته أكثـر من مرة، وتأثَّرتُ به؛ أسـئلة اللجنة تأتي مـن عالم آخر، وأكثر الإجابات مُتشابـهة، يصعبُ فيما بينها الانتقاء..

مع ذلك، أشعر أن بلوغي الجولة الأخيرة أمرٌ حتميّ، خاصةً وقد سبقني الجميعُ بأداءٍ ليس أفشل منه. الجمهور متعلِّقٌ بي منذ الجولة الأولى، يعرف مـن هي نجمته الـمُفضَّلة، كما أن ملابسـي التنكرية وماكياجي الذي أتقنته بيـري رائعـان.. فقط أحتاج لأن أتحدث كثيرًا كـي أقنعهم بـمعرفتي الجيدة بالشـخصية، أيًّا كانت الأسئلة.. عندها، سـيكون الاختيار بيني وبين ميرڤت أو ياسر واضحًا ويسيرًا.

ما يشغلني الآن هو مصيري الذي رسـمتهُ اللجنة!.. إذا فشلتُ في إجابة الأسـئلة- ولا شـك أن الحظ سـيوليني ظهره كما يفعل دائـمًا- فأي مصير ينتظرني؟! هذا هو السؤال..

أمـا الأمـر الآخر الـذي يؤرقنـي، فعدم ظهـور راجي.. لمـاذا لا يحضر للاطمئنان عليّ؟!

* * *

نـهشـتني نظـراتُ البهلـوان الوقحـة منذ عبـرتُ الفرجةَ التي توسَّـطت الشاشـة.. شـغلتني نظراتـه قليلًا عـن مظاهـر البهجـة التي اسـتقبلتني فوق المسـرح العملاق، وأشـعرَتني بنجوميةٍ على وشـك التحقُّق. منـذ أمدٍ وأنا أحلـم بأضواء كهـذه، جمهور جاحظ الأعيُن كهذا، كاميـرات تُتابع كل لفتة وكل انحناءة، كتلك التي ترمقني من كل زاوية.

هـذا عالمـي.. العالـم الذي أسـتحقُّه ويسـتحقُّني.. ربـما جـاء متأخرًا بعض الشــيء، ولكن لا بأس. أهـم ما هنالك أن أتـماسـك حتى النهاية، كي أُري جمهوري منّي ما يُحب.

هل يُتابعني راجي الآن؟ هل يرمقني بعطفه ولهفته! هل تحفني نظراته المُمتلئة؟

تُرى، هل تأكلني بيري بعينيْها؟! هل تندم أنها لم تحصل على توقيعي على أوتوجرافٍ شخصي، قبل البداية؟..

هل عرف مستر ممدوح أخيرًا قيمتي؟ تلك التي كادت تندثر إلى الأبد تحت أوراق السكرتارية وجداول المواعيد، أو تتآكل بفعل نظراتٍ حارقة ترميني بها زميلاتٌ شمطاوات!

هل علموا- كلهم- قدر داليا أخيرًا؟ كم أتمنى..!

أشاد البهلوان بملابسي من جديد، وبحضوري الطاغي على المسرح - أيًا ما كان «الحضور» الذي قصده- قال إن الأمر لو كان بيده لأوصلني إلى الجولة الأخيرة محمولةً على عنقه، ولكنّ التعليمات- تعليمات اللجنة- تُحتِّم عليه سؤالي، وهو ما سيشرعُ فيه دون إبطاء.

لا بأس يا صاحب العينيْن الوقحتيْن، هات ما عندك..!

- سؤالنا الأول يا جان، عن الحرب اللي تطوّعتي فيها، عشان تحرّري أرضك الفرنسية من الاحتلال الإنجليزي، وطبعًا كانت واحدة ضمن سلسلة حروب طويلة خاضها الفرنسيين ضد الإنجليز.. الحرب كان اسمها:

(1) حرب السبعة أعوام.

(2) حرب التسعة أعوام.

(3) حرب العشرة أعوام.

(4) حرب المائة عام.

المفـروض تجاوبـي خـلال 30 ثانيـة، بس انـتِ بالـذات براحتك على الآخر..

أيَّة كارثة.. لـم يرِد ذكر لشيءٍ من هذا في الفيلم..!

لا يـا دودي، لا ترتبكـي أيتهـا الجميلـة، ليس بعـد.. تعلمين مُسـبقًا أن الأسئلة على هذا النحو، الكاميرات ترمقكِ، عودي إلى ثباتكِ، أرجوكِ..!

أعدتُ خصلةً من شعري إلى مكانـها، واتخذتُ وقفةً أكثر مشْقًا وجاذبيةً، في مواجهة الجميع.. لن أهذي بـمعلوماتٍ لا معنى لـها، لن أُشتّت نفسي، بل سأختار.. سأختار الإجابة الصحيحة.. هذا ما عليَّ فعله!

رمقتُ الشاشة أُحاول التركيز على الإجابات؛ لـم أسـمع بحروب كهذه من قبل، أوقعَت بالفعل أم تختلقها اللجنة؟! ربـما حرب المائة عام هذه..

- حرب المائة عام.

أجبت قبل أن أتردَّد من جديد.

- متأكدة يا جان؟

- الحقيقة...

- الحقيقة انك متأكدة طبعًا، والإجابة صححححح..!

أووه.. لا أُصدِّق! هل مرَّ السؤال الأول فعلًا؟!

منعتُ يدي عن العبث بشعري، ضربت الدماء وجنتيّ، وأذنيّ، وشعرتُ بلهيبها يندفع إلى رأسي.. خشيتُ أن يُغمى عليَّ من شدَّة اضطرابي. لا عليكِ دودي، حظكِ السيئ لم يعرف طريق الحفل البعد، لا زال يتخبَّطُ بالخارج وسط الشوارع المُتربِّصة، بين العيون الناهشة والأيدي المُمتدَّة لأي شيء يُقطَف! أو- كاحتمالٍ آخر- أرهبتهُ البوابة الشاهقة وضجَّة الموسيقى، وأضواء الذهب المُتلألئ في كل زاوية..!

عاد إليَّ صوت البهلوان مُشتِّتًا أحلام يقظتي، شاحنًا قلبي بدفعةٍ جديدةٍ من التوتُّر..

- السؤال التاني: مَلِك ساندتيه قبل ما يتولّى العرش، وللأسف ما حاولش يحرَّرِك من الأسر يا جان.. اسم الملك:

(1) تشارلز الثالث.

(2) تشارلز الخامس.

(3) تشارلز السابع.

(4) تشارلز التاسع.

المرة دي عندك 45 ثانية، مادام جاوبتي السؤال الأول بشكل صحيح.

كلهم تشارلز!! سحقًا للجنة.. لا أذكر من الفيلم سوى اسم تشارلز، دون أرقام، وكل الأعداد فردية، لِمَ تعبثون بي هكذا..!

- 30 ثانية يا جان..

- كلهم شبه بعض!

- آه والله معاكِ حق..

- أنا عارفة كويس انه الملك تشارلز، حتى هو الوحيد اللي اقتنع بالرؤيا اللي شافتها جان دارك، بس...

- مافيش وقت يا جان، فاضل 15ثانية بس.

- خلاص... تشارلز الخامس!

- متأكدة يا جان؟

- تقريبًا هو..

استدار البهلوان، ظلَّل جبهته بكفه يرمق الأفق، كمن يبحث عن إجابةٍ في الفضاء..

لا حاجة لمزيد من الظرافة والسخافة، قلبي سيهمد في أية لحظة إن لم ينتهِ كل ذلك حالًا!!

- إيه؟ معقولة؟! خسارة يا جان، الإجابة طلعت... طلعت... طلعت غلط.

ها قد وصل الحظ السيِّئ بسلامة الله!.. كان لا بد أن يصل في لحظةٍ ما، الآن ستنقلب الأمور ضدي دون شك.. لو كنتُ أملكُ نصف حظ صبري أو نصف إصرار إيڤون، لما احتجتُ شيئًا آخر.

خطر لي أن ألتمس الحظ كما فعل صبري، ولِمَ لا؟

في السؤال التالي، سأختار الإجابة الثانية.. هكذا قرَّرت، وتفاءلتُ خيرًا بقراري.

- قُدّامنا سؤال واحد يا جان؛ سؤال فاصل هيحدِّد مصيرك.. حاولي تركّزي معايا.

السؤال التالت: بعد فشل المحكمة في إثبات تهمة الهرطقة عليكِ، وضبولِك تهمة تانية كانت السبب في إعدامك، هي:

(1) الخيانة العظمى.

(2) الزندقة والابتداع.

(3) السحر والشعوذة.

(4) التشبُّه بالرجال.

رجعنا للـ 30ثانية يا جان، للأسف.. يبتدوا دلوقتي.

الإجابة الثانية، الزندقة والابتداع.. تبدو مريحة!

لم تكن هناك خيانةٌ عظمى في القصة، فالإنجليز هم من حاكموها وليس الفرنسيون، كما أنه لا علاقة للسحر أو الشعوذة بالقصة على الإطلاق. أتذكّر جان دارك في زي الرجال أثناء سجنها، ولكنه لا بد وأن يكون ذلك نوعًا من العقاب..

نعم، هي الإجابة الثانية لا غيرها.. شكرًا صبري!

- الإجابة التانية؛ الزندقة والابتداع.

- متأكدة يا جان؟

- إن شاء الله هي..

عاد للمُراوغة.. راح يدور حولي كنمرٍ يترصَّد لانقضاضٍ وشيك. كرهته من شغاف قلبي، وتوعَّدتُه سرًّا أن أدعو عليه في أول صلاةٍ أؤدّيـها شكرًا لله علـى الفوز. كرهته أكثـر عندما قال إن الإجابة خاطئـة!! صدمني، جادلتُه.. أصـرّ، مقتُّه!.. لـم يرِد أن يخبرنـي بالإجابة الصحيحة، بزعـم أن تعليماتِ الـمُسـابقة لا تسمح بذلك. حين أصررتُ، استشار اللجنة ثـم أخبرني؛ قال إن التهمةَ التي أُعدمَت لأجلها جان دارك هي التشـبُّه بالرجال!! أيُّ هراء؟! مهمـا كانـت العصور مظلمـة، أيقبـل الأوروبيـون منطقًا كهـذا؟ لا يُـمكن أبدًا!..

شـعرتُ أننـي أتعرَّض لخديعةٍ سـافرة، وأُدفـع دفعًا نحو مُقامـرةٍ رهيبة، مصيرٍ لا أعرفُه، ولا قِبَل لي بـمُواجهته..

ماذا يُدبِّر لي هؤلاء؟ أي مصير يدفعوني إليه؟!

بحثتُ في عبارات البهلوان التالية عن الـمُواجهة التي تنتظرني، فلم يقُل شيئًا مُحدَّدًا..

وإمعانًـا فـي الـذلّ، أنـهـى تصريحَهُ بعبـارةٍ صبَّـت في قلبـي برميلًا من الرعب!!

- بطلتنا جان دارك خسرت الـمُواجهة بكل أسف.. تفتكروا تقدر تفلت من الـمحرقة؟ استنّونا بعد فاصل طويل شوية، عشان تعرفوا..

راجي مدحت بيومي

- أرأيت؟! هذا ما توقَّعتُه منذ البداية!

صرختُ في ستيفن وأنا أنتفض قائمًا لا أدري في أي اتجاهٍ أتحرك.

- نعم راجي، إنها الكارثةُ تتكرَّر.. معك كل الحق.. أُريدك فقط أن تهدأ قليلًا كي نرى كيف نعالج الأمر.

- أهدأ؟ أي هدوء تُراهُ ممكنًا؟ ألم تسمع بأذنيك هذا الشيطان يذكر «المحرقة»! محرقة!! ألم تصلكَ الترجمة؟!!

- راجي.. مهما بلغ بهم الجنون، لن يحرقوا الفتاة..

- هؤلاء يفعلون أي شيء.. لقد أحرقوا فم ياسر قبل قليل، وكشفوا عورة ميرفت، واقتلعوا روح أمل.. لا، لا لا يجوز الانتظار لحظةً أخرى.

- نعم، الكارثة تقترب بالفعل.

- وأي كارثة.. يا ربي ماذا أفعل؟ سأُجنّ. ستيفن، لقد قلتَ أن الكارثة تتكرَّر؟ أي تكرارٍ تقصد؟

- انسَ الأمر، راجي، دعنا نرى ما سنفعل من أجل الفتاة.

- ستيڤن، لا وقت لدينا للأخذ والردّ، أرجوك، إن كنت على علمٍ بشيء فأبلغني به دون إبطاء!

شرد ستيڤن بعيدًا. مادام يزن الأمر، فلا بد وأن يكون لديه ما يُخفيه.

ستيڤن، أرجوك، إما أن تفصِح الآن أو ينتهي الأمر إلى الأبد.

قلت ذلك بنبرةٍ حاولتُ أن أُبقيها هادئة. رمقني بتردُّد، ثم بادر بالحديث:

- لقد وقع شيءٌ مُشابهٌ في العام الماضي، كنتُ شاهدًا على الواقعة حين أُقيم نفس الحفل في الهند. لم تكن داليا تلك المرة، إنما كانت ناديش، فتاةً رائعة، تخطَّى رصيدُها من السنوات ثلاثةً وعشرين عامًا من الوداعة والألفة. كان لقائي الأول بها يوم الحفل، ثم لم يعُد الأخير، ولأجلها جئتُ اليوم، ولأجلها سأقوم بأي شيءٍ كي أنقذ داليا. لأجلها هي فحسب.

- أنت تهذي الآن، ستيڤن، أليس كذلك؟!

- لا يا صديقي، ليس كذلك، ولم يكُن ممكنًا أن أشرح لك كل هذا قبل هذه النقطة. الحقيقة أنني غير مُتأكد إن كان صوابًا أن أُفصح لك عن كل ذلك الآن، ولكنني لا أملك إلا أن أفعل.

- لا وقت لدي لكي أفهم المزيد. سأعود إليك سريعًا، بعد أن أذهب إلى مكتب الكولونيل.

- لا راجي، انتظر كي نتفاهم، هكذا ستُفسد كل شيء، ولن يمكننا مساعدة داليا!

- لن أُفسد شيئًا، ثق بي. أنا أعرف الرجلَ جيدًا، والوقت يضيق بنا، ولن يستطيع أحدٌ سواه أن يوقف هذه المهزلة.

* * *

زعزعَت الساعة الماضية ثقتي في الكولونيل. ثقة أن لديه حلًّا أمثلَ لأي مُشكل يعترضني. ولكني، رغم ذلك، وجدتُ بوصلتي الداخلية تتتبَّعُه وتُشير إليه عندما تأزَّم الأمر. صمَّم ستيفن أن يُرافقني حتى باب المكتب. أدركتُ أنه نصفُ مُقتنع، شِبهُ مُستاء، ولكنه يُراهن على ثقةٍ وليدةٍ وغير راسخة بي. لم أمنحهُ فرصةً للمزيد من الجدال. ودَّعته سريعًا عند الباب كي يعود إلى غرفة التحكّم. الدقائق تتسرَّب من بين أيدينا كحبات رمالٍ جافة. نوقِفُ قطارَ المُسابقة أولًا، ثم نستجمعُ أنفاسنا كي نطرحَ البدائل. هكذا وعدتُه.

دلفتُ إلى مكتب الكولونيل دون أن أطرق الباب. ألفيتُه واقفًا خلف باب الشرفة يرنو إلى الفراغ المُظلم. صورتُه مُنعكسةٌ على الزجاج الأسود مع أضواء الغرفة. يتصاعد منها خيطُ دخانٍ مُضطرب.

بلا تحضيرٍ قُلت:

- حضرتك لازم توقف المهزلة دي دلوقتي حالًا

رمقني عبر الزجاج العاكس دون أن يلتفت. قال:

- أخبار الشغل إيه يا راجي؟

- حضرتك متابع كل حاجة طبعًا، وأكيد شايف المهزلة اللي بتحصل لزمايلنا على المسرح.

- هنعيدُه تاني يا راجي؟

- حضرتك يرضيك اللي هتتعرَّض لُه داليا ده؟

- من إمتى بتخلط بين مشاعرك وشُغلك يا راجي؟

- مشاعري؟!

لم أعُد أقرأ ما يدور في رأسه، ولا أُطيق ثباتَ أعصابه. بل إن ثباته وقع في قلبي كإهانةٍ لا تُغتفر. صرتُ أرمق صورته الـمُنعكسة فقط. أستشعر فيها برودةَ الزجاج، وقسوته. ماذا دهاك يا كولونيل؟

- حضرتك إيه اللي حصل لك؟ عمرك ما كنت قاسي كده، ولا، سامحني في الكلمة، ما عندكش قلب.. ولّا تكونش كده من زمان وانا اللي اتخدعت فيك؟ حضرتك ولا متجوز ولا عندك أطفال، ولا ليك حد تخاف عليه، تلاقيك عمرك ما حبّيت أصلًا، ولا حسّيت يعني إيه تفقد حبيبتك قدّام عينيك، وانت مش قادر تعمل لها حاجة.

التفت نحوي كأسدٍ يلتقط إشارةً من فريسته. شعرتُ أنه سينقض عليّ في أية لحظة. جفَلت. رغبتُ في التراجع. لكنه التقط سماعة الهاتف واتصل بأحدٍ ما. حدَّثهُ بالإنجليزية طالبًا منه ألّا تُستكمل الـمُسابقة بعد الفاصل مُباشرةً، وأن تُستبدل بالفقرة الاستعراضية الـمُعدّة لما بعد الجولة الثانية، لأمرٍ جلل. لاحظتُ أن الطرف الـمُقابل رفض الفكرة تمامًا، لأن نبرة الكولونيل تحوّلَت إلى زمزمةٍ آمرةٍ ومُخيفة. تراجع بعدها الطرف

الـمُقابل حسـبما فهمت. سـألني بعد أن أنـهى الـمُكالمة، وقد سُدَّت فوَّهةُ بركانه فجأة، كما انفجرت فجأة:

- عايز تعمل ايه يا راجي؟

أطرقـت باحثًـا عن إجابة. أدركـتُ أن تفكيري لـم يتجـاوز هذه النقطة، فأردفت:

- اللي تشوفُه حضرتك!

- تحب تشترك انت مكانـها، وتواجه مصيرها؟

- أنا؟! يا ريت... هو ينفع!

- ما ينفعش طبعًا، بس أنا هاعرف أقنعهم.

أغمـد الكولونيـل طـرف السـيجار في غطـاء حاويتـه المعدنيـة، فنفث السـيجار أنفاسًـا أخيـرةً أكثـر تركيـزًا. قطـع الغرفة برشـاقة حصـان عربي، ومنحنـي ابتسـامةً عابرةً حِرتُ في تفسـيرها. دلفتُ خارجًا فـي إثره فألفيتُ سـتيڤن، الذي بادرني سـائلًا عما جرى. شـرحتُ له ما كان من الكولونيل. ارتاح كثيرًا لِما انتهينا إليه، ثـم عاد ليؤكِّد:

- إذا شاركتَ، سأُدافع عنك أنت أيضًا.

- لا تقلـق بشـأني، سـتيڤن، واقصُـص علـيّ القصـة كاملة، قبـل عودة الكولونيل. ماذا وراء مجيئك إلى هنا؟

- سأحكي لك. أنت جديرٌ بالثقة أيـها الصديق الشجاع.

* * *

قال ستيڤن:

- لقد كنتُ هناك. شاركتُ ضمن طاقم الألعاب النارية في العام السابق، عندما أُقيمت المُسابقة في نيو دلهي، عاصمة الهند. كنتُ على رأس الطاقم المُكلَّف بتصميم وتنفيذ الألعاب الناريَّة. لذلك وضعتُ كل شيءٍ بنفسي كما فعلتُ اليوم، وتركتُ أفراد الطاقم يُتابعون التنفيذ عن كثب، بينما أُتابعهم من الكافيتيريا عبر سمّاعات الاتصال اللاسلكية.

منذ لحظة اختيار المُشاركين السبعة، خطفَت لُبّي تلك الفتاة الجميلة، ناديش. عيناها النجلاوان، سُمرتها الخمرية الرائقة، وجنتاها المُمتلئتان، ذقنها المُدبّب، شعرها الحريريّ المُنسدل إلى ما لا نهاية، يُلامس أعلى مؤخرتها المُستديرة النّافرة. لم أكُن وقتها قد استحدثتُ نظام التشغيل الذاتي للمُفرقعات بعد، فكان أفراد الطاقم يسألونني عبر السمّاعة في كل صغيرةٍ تافهةٍ وصغيرةٍ أخرى أكثر تفاهة، لذلك طلبتُ إليهم أن يتركوني وشأني، ورُحتُ أُتابعُ ناديش بنَهَم. هِمتُ بها، حتى ثملتُ من صوتها الرقيق، ولكنتها الإنجليزية المُضحكة. كانت ملابسها تُبرز انحناءاتها الشهيَّة بسخاء، فقد تنكرَت في زيّ ريتا ڤراتاسكي، بطلة فيلم (Edge of Tomorrow)، أتذكرها؟ قامت بدورها إميلي بلانت إن كنتَ من مُتابعي أفلام الحركة. كما قد تتوقَّع، اضطُرَّت ناديش لمُلاقاة مصير البطلة، في الجولة الثانية بالطبع، فحكمَت عليها اللجنة أن تمُرَّ بأسرع ما تستطيع فوق مصطبة الألعاب النارية التي أعددتُها بنفسي، ذهابًا وإيابًا ثلاث مرّات، على أن تقفز فوق قواقعها النارية دون أن تُلامسها، كل ذلك قبل مرور دقيقةٍ واحدة؛ ستّين ثانية!

بدأتناديش بشكلٍ جيد، بطيءٍ نوعًا ولكنه موفق، وأهم من أي شيء، آمن. مع انقضاء الثواني زاد اضطرابها، صارت رجلاها ترتجفان وعيناها تتردَّدان في قيادة سائر الجسد، وبدت على وشك أن تزِلَّ في أية لحظة. قلقتُ عليها كثيرًا، خاصةً حينما بدأ العد التنازلي، وهي في منتصف الشوط الأخير، خمس ثوانٍ مُتسارعة تلاحقت معها أنفاسي حتى احتبسَت. أذكر احتباسَها تمامًا، عندما اقتربت الكاميرا من وجهها الطفولي الحزين، كانت تبكي، اختلَّت خطواتُها واختلَّ العالم حفظًا لتوازنها، داست قدمها طرفَ قوقعةٍ غادرة، ثبَّتَتها يداي لكي تلتهم نصفها الأسفل، قبل النهاية بثانيتَين.

قامت الهند ولم تقعد بعد الواقعة الأليمة، نزفت الأقلام ألمًا لأجلها، وازداد اللغط حول الحرق المُضاعف الذي أُصيبت به في لقاءاتٍ تليفزيونية، فاشتعلت الحرائق في كل مكان. ولكنّ ذلك كله سرعان ما خبا، وفقدت الفتاة وأهلها أملهم في نيْلِ حقٍّ قانوني، فقبلوا باعتذار المُؤسسة والتعويض الذي عرضَته.

أما أنا فتواصلتُ مع ناديش، عبر فيسبوك، واعترفتُ لها أنني أحدُ المُتسبِّبين في عاهتها، فقبلَت مني، بل ودافعت عني زاعمةً أن لا ذنب لي فيما أصابها، فلم أقصد من صنيعة يدي إلا البهجة والاحتفال، لا الإيذاء، تمامًا كما قصدَت هي من المُشاركة، واتَّفقنا معًا أن اللجنة هي المُجرم الحقيقي.

أحببتُ ناديش، تألَّمتُ أن أبويْها قبلوا اعتذارًا كاذبًا وتعويضًا بخسًا، ولم يستكملوا دعواهم القضائية أيًّا ما كانت النتيجة. لكني بعد ذلك بعدَّة

أشهرٍ تلقَّنتُ درسًا في الحياة، عندما زرتُـها وأهلَها في بلدتـهم قرب شيملا. خبـرتُ الحاجـةَ عندما تحكُم، والعوزَ حينما يسـنُّ القوانيـن. تفهَّمتُ كيف صدَّقـوا اعتذار الـمُؤسسـة، ولماذا قبلـوا بالتعويض، وأيقنـتُ أنني لو كنتُ في حذائهم لقبلتُ بـما هو دون ذلك دونـما تردُّد. لدهشـتي شـعرتُ أنـهم أهـلُ عِزَّة، وترابطٍ عائلي متين، وكرم أيضًا رغم وطأة الفقر. شـعرتُ كذلك بتوجُّسـهم مني، الذي لـم تطمسهُ بشاشـة الترحيب، ولكن حسبهم أن قبلوا اعتذاري ومُواساتي و- بعد إلحاحٍ- مُساعدتي.

أما الـمُساعدة الأكبر، فظلَّت سرًّا بيني وبين ناديش الحبيبة؛ أن ننتقم من لجنة التحكيم تلك. اتَّـفقتُ معها أن أستمر في العمل مع الوكالة حتى يحين الحفـل التالـي، رغم أني تلقَّيتُ عرضًا من وكالةٍ أخرى براتب أكبر، ثـم بعد أن أنجز ما تعاهدنا عليه أنتقل للعيش معها في الـهند.

لعلمـك، ناديش تتابـع الحدث الآن، مـن خلال الكمبيوتـر الـمحمول الذي رأيتَ خلفيَّـتَه منذ ساعات، وكان هديَّتي التي حملتها إليها قبل أسابيع عندما زرتُ الـهند، كما أنبأكَ ذكاؤك.

قال ستيفن جُملته الأخيرة وهو يستخرج من حقيبة الكمبيوتر الـمحمول أداةَ اتصـالٍ صغيـرة؛ سـماعةً ومايكروفـون مُتَّصلَين بسـلكٍ طويلٍ وجهاز اسـتقبال وإرسال في حجم علبة سجائر مُبطَّطة. مرَّر السلك أسفل قميصي، والتقـط الجهـاز من خلف ياقة القميـص وتركَهُ مُتدلِّيًا، ثـم اسـتخرج جيب بنطالي من الداخل وأحدث في نسيجه ثقبًا صغيرًا بـمطواته السويسرية.

- لا يبدو لي أنك تعرف ما تفعل.

قلتُ مُمازحًا، فابتسم لي دونما تعليقٍ واستمر فيما بدأه؛ طلب إليَّ أن أُفلت الطرف الأدنى من السلك عبر الثقب من داخل البنطال، ثم أسحبه إلى خارج الجيب كي يوصلهُ بالجهاز الصغير. دفن الجهاز أخيرًا في جيبي وطلب إليَّ أن أُعدِّل من وضعه بحيث لا يكون ملحوظًا، وراح يستخرج شيئًا آخر من حقيبته؛ قُبَّعةَ جليدٍ أحكَم تلبيسها فوق رأسي، وأردف مُعلِّقًا:

- قد تعتقد أنها ليست الأكثر ملاءمةً لطراز ملابسك الأنيق، ولكني أؤكِّد لك أنها الأكثر مواءمةً لظروفنا إجمالًا

تراجع للوراء قليلًا وتأمَّل مظهري الجديد، وأكمل:

- جيد، الأفضل أن ترفع ياقتك لأعلى كي تساير الموضة بشكلٍ أكبر، وكذلك كي لا يبين طرف السلك أعلى ياقتك مع أية حركة.

النّــزال

ممدوح إبراهيم الآدم

الوحدةُ حوتٌ عملاق، مُفرَغ الجوف، مُظلِمُه، يبتلع بلا تمييز فلا يمنحهُ الماءُ سواي..

هل صِرتُ وحيدًا مذ فارقتني همسة، أم منذ ذلك اليوم الذي فارقتُ فيه ماضيَّ معها؟ لا أدري. أعتقد أنه الثاني، يومٌ هجرتُ فيه أوهامي البائدة، ووقَّعتُ عقدًا مع القوة والنفوذ.. الأغبياء، صاروا أكثر إعجابًا بي بعد أن تركتُ سفينتهم، وركبتُ سفينة السطوة والمِلكيَّة، هكذا تجري الأمور في بلادنا، «الشيخ البعيد سرُّه باتِع»، وأنا آثرتُ الابتعاد قدر ما طالت قدماي، حتى صرتُ أُطالعهم من موقعي فوق السحاب..

الآن يتهمني راجي، يصِمُ قلبي بالغلظة، أنه لم يصُغه الحب. أتظن نفسك عرفتَ الحبَّ دون غيرك يا بنيّ؟ بُعدًا لك، ما أغباك وأغباهم. لك ألتمس العذر، فقد كنتُ أغبى منك في الماضي، وكنتُ أظنني أذكى الجميع. لم يعرف قلبي غير الحب، ولم يُفسد عليَّ حياتي شيءٌ مثل العشق، والخوف من خسارته.

سأمضي معك فيما أردت يا بنيّ، يسعدني أن أرى فيك نفسي الماضية، ذات الهيام وذات الغباء. سأساعدك كي لا تخسر حبيبتك، كي لا تُمضي

بقية عمرك تبكيها، وترى انعكاس روحها في جميع الموجودات من حولك. ولكن ارفق بنفسك، راجي، فأنت أهون من أن تغيِّر أي شيء..

أنـا حلقة الوصل يـا بنيّ، وحلقة الوصل لا تسـتطيع الشـعور، لا تـميل لجانب ضد الآخر، إن مالت فسدت وظيفتُها ولزم استبدالـها. العالم يحتاج لمن هم مثلي. كل عمليةٍ حيويَّة تحتاج إلى مُحفِّز، وأنا الـمُحفز.

لا تنقِـم عليَّ أني عملتُ لصالح الرجل الأبيض، فهو سـيصل إلى مأربه بطريقـةٍ أو بأخرى، كحدأةٍ تنقض مـن عليائها لتلتقط فرخًا صغيرًا، لا حاجة لأن نجعلها تـهدم العش، وتخمشُ باقي الصغار. إن تركناها تفعل فالخسائر أكبر والنتيجة أسـوأ، هنا يأتـي دوري؛ دور الـمُحفِّز، أنـا حلقة الوصل.. إن عشتم بدوني ساءت معيشتكم، أما الحوت فسيحصل على ما يريد ساعدناه أم لم نسـاعده، تلـك هي القاعدة يا بنيّ، فتفكَّر، واشـكرني علـى ما أقوم به لأجلكم.

الآن، راقبني؛ سـأُعمِلُ ذكائي كي أُقلِّصَ الخسـائر، كي أُنقذ ما يـمكنني إنقـاذه، سـأَعرِض علـى الكبار رهانًا هـو الأعلـى ربحًا، كنخـاسٍ يبالغ في امتِـداح عبدٍ قويِّ البِنية، كي يُزيِّنَه في عين مُشـترٍ مـن عليةِ القوم وخاصَّتهم، وبذلـك يُفلـتُ جاريـةً رهيفةَ العظم مـن بين براثن شـهوتـهم.. خـذ هذا يا خواجة، واترك هذه، فمِن ورائه يلوح المكسبُ الأكبر..

بدلًا من التصويت مرةً واحدة، لصالح داليا أو ضدها، سـندفع الجمهورَ كـي يُصوِّت مرَّتيْن، مرَّة على قرار اسـتبدال داليا بـراجـي، ومرَّة على أحقيَّة أحدِهـمـا فـي الاسـتمرار، وبلـوغِ الجولة الأخيـرة.. سـتُلهِبُ قصة الحب الناشـئة، الطازجـة، قلـوبَ الـمُتابعيـن. سـتدفع أصابعَهـم كـي تضغط زرَّ

«الإرسـال» أكثـر وأكثر، سـيتعاطف الرجال مع الفتاة هشَّـة التكوين ويرون إنقاذها، ستنبهر الفتيات والنساء ببطلٍ مغوارٍ ينبثق من الـمجهول كي يفتدي حبيبتَـه، ويردن اختباره.. هكذا تتصاعد الأحداث، هكذا تتضاعف الأرقام، هكذا تتحقق المصلحة.

وهكذا، أيضًا، يُـتقِن الـمُحفِّز أداء وظيفتِه.

أمل معاطي عبد المعبود

ما هذا؟! كيف يمرّ الأمر ببساطة هكذا، وكأن نكتةً مُبتذلةً تُلقَى فتنال من الضحك الكثير!

إنهُ لظُلم، منتهى الظلم، يستبدلون الأستاذة داليا، الرقيقة كورقة البفرة، بالباشمهندس راجي، المُبارز ممشوق القوام والقسمات، الذي لا يرتدي زيًّا تنكريًّا يُعيق الحركة، ولم يُعانِ التوتر مثلما عانينا، ولم يلعق تراب المسرح قبل أن يصل إلى هذه النقطة.. أي ظلمٍ وأي تلاعب!

الفساد مُستشرٍ في ربوع مصر كعادم السيارات، يتنفّسه الناس وتنضح به وجوههم!.

كيف يفعلون بي هذا، هؤلاء الفسْدى الأوغاد؟! يُريدونني أن أنهزم أمامه في الاختبارات البدنية التي نخوضها، أليس كذلك؟ اكتشفوا كم أتقدّم بثباتٍ نحو النهاية، وأتوغّل بسرعةٍ لم يتوقّعوها إلى قلوب الجماهير، فقرّروا عرقلتي باستبدال المُنافسين..

هيهات أن أُفوِّت الفرصة؛ سأستمر في إثبات جدارتي لمن أحبّوني منذ البداية، فهم وقودي للوصول لسُدَّة الفوز!..

دعـكَ من هـذه المناحة يابو معاطي، فلن تَفيد شـيئًا مـن ورائـها. الأمر لصاحب الأمر، والسـعادة لمن يضحك أخيرًا.. إن كانت الجماهير هي من صوّتت بالفعل على استبدال الأستاذة داليا، فالمعنى واضح؛ هـم يزيحونـها تعاطفًـا مـع ضعفها ورِقَّتها، وتأكيـدًا على عدم جدارتـهـا بخوض تحدِّيات الـمُسـابقة، وفي هذا تعزيزٌ لموقفي، أما الباشـمهندس راجي فلا يـمكن أن يختـاروه للفوز وقد اقتحم الـمُسـابقة قرب نـهايتهـا، ولـم يلتزم بقواعدها، هـذا عبث! غاية ما يُقلقني هو أن مكيدةً مـا تُحاك ضدي من قِبل الـمُنظِّمين أنفسهم، قد لا يروقهم شكلي أو أصلي البسيط، ولا يرونني أهلًا لنيْل اللقب والنجومية التي تـمسـك بذيله. أصابع الشـك تُشـير إلى احتمالٍ كهذا، وإلا فكيف أتوا براجي إلى هنا من الأساس؟ وفي هذه اللحظة بالتحديد؟!

ثـمـة أمرٌ غير مُريح، وعليَّ أن أكشـفهُ للناس، فور تأكدي منه.. اسـترها يا رب!.

***

تابعـتُ المشـهد مـن المقاعـد الخلفية؛ الباشـمهندس راجـي- خيَّب اللـه رجاءه- معلَّقٌ أعلـى عامودٍ حجريّ كما تبيّن، مقيَّـدٌ حول العامود عند المعصميْـن والخصر والكاحليْن، بأربطةٍ قماشـية حـمراء، بينما ثُبِّتت حول قاعـدة العامـود صينيّةٌ دائريـة، تتلوّى من قلبها ألسـنةُ لـهـب راقصة، وقف بجوارهـا البهلوان مُمسـكًا بـمروحةٍ من الريش كمـا الكبابجي، يُروِّحُ على النار كأنه يُزكيها، ويبتسم نحو الجمهور بين الفينة والأخرى!.

بعد برهة تشويقٍ تحدَّث شارحًا:

- أرجو ما تكونوش قلقتوا لما تأخَّرنا عليكم.. كل تأخيرة وفيها خيرة..

الفارس النبيل اللي معانا، تقدَّم بفروض الطاعة والولاء للقدّيسة جان دارك، ومعاها بيقدِّم حياته فداءً لحبيبتُه عشان ما تشوفش لحظة عذاب واحدة..

فارسنا الهُمام، اللي هانسمّيه من دلوقتي بول، هيعرَّض نفسه لنيران المحرقة، لو قدر يفُك قيوده خلال دقيقتين وينزل من على العامود، النار مش هتلحق تلمسه، أما لو اتأخر!! بلاش نسبق الأحداث!..

مفتاح الحل يا بول، وده كلام اللجنة، إنك تبدأ بفك إيديك، بعدها رجليك، وآخر حاجة وسطك عشان ما تفقدش اتزانك. لو نجحت في المهمة، وأتمنى طبعًا انك تنجح، مش هيبقى قُدّامك غير القفز من فوق النيران مسافة 3 متر بس لحد الأرض، مش كتير.. جاهز؟

أومأ المجنون يؤكِّد جاهزيّته، تذكَّرتُ عندها لحظات عذابي فوق حوض المياه؛ بدت لي هيِّنةً الآن بالمُقارنة بما سيتعرّض له هذا المخبول! لا يمكن أن يكون مُشاركًا معهم في أي مكيدة، فالمشهد حقيقي، والصورة المُهتزَّة أعلى النيران تُنبئ بحرارةٍ لا تفتقد الجدية!.

أشفقتُ عليه، رغم حنقي الشديد من وجوده، وشكرتُ الله في قلبي أن أنقذ الجميلة داليا من موقفٍ كهذا، رغم سخطي عليها هي أيضًا بدرجةٍ أقلّ، نظرًا لجمالها..

بـدأ العـد التنازلي في الشاشـة الخلفية مـن الرقم 120، نـزولًا كل ثانية، وبـدأت معه الصينية في الارتفاع ببطءٍ تحمِـل النار في اتجاه أعلى العامود! هكـذا إذًا، سـتتصاعد النيـران حتى تُـمسـك بقدمـي هذا الـمجنـون إن لـم يسـتطع فك وثاقه. ماذا لو أنه اسـتطاع، كيف سـيقفز مسـافةً كهذه من فوق نيران تقترب كل ثانية، وليس تحته موطئٌ يرتكز عليه؟! أمرٌ شديد الخطورة، والزمن يتناقص بسـرعة، وأنا الذي يُفترض بي أن أدعو عليه بالفشل أتـمنى لـو ينجو من كل هذا، لو نعود غدًا إلى شـركتنا نتبـادل تحية الصباح ونلتقي مصادفـةً عند البوفيـه!. كفانا توترًا وعنـاءً، ولنفِق جميعًا مـن هذا الكابوس الآن، بلا جائزةٍ ولا يحزنون، ولا خسائر في الأبدان.

تـمكن الباشـمهندس راجي مـن حلٍّ معصميْه بسـرعة، ثـم أنـهى فك رباط قدميْه قبل أن يتخطّى العد التنازليّ نقطة الـ 60 ثانية، ولكنه علِق طويلًا فـي فـك الرباط المعقـود خلف ظهره عند منطقة الوسـط، كاد يُصاب بشـدٍّ عضلـيّ بينما يُكافـح كي ينزعه، دلَّك كتفه لثوانٍ ثـم عـاد يُجهِز على الوثاق الأخير..

صارت النيران على مبعدة مترٍ لا أكثر.. لا شك أن الحرارة تلفحه، تكاد تشويه، وكذلك الفزع. لو كنتُ مكانه لكنتُ أستنطق نفسي الشهادتيْن الآن، ثـم أُودِّع أم إسـلام وأوصيها بإسـلام حُبًّا وحنانًا. صدح العدُّ الصوتيّ بدايةً من الثانية رقم 10، أحسسـتُ بقلبي يندفع محشـورًا فـي حلقي، يدُقُّ بعنف حدّادٍ يطرق حديدة مُتوهجة كي يـمنحها حياة جديدة..

فك الرباط الأخير، انزلق جسمُه لأسـفل بفعل الجاذبية، ولكنه استمات مُتعلِّقًا بالعامود بعضلاتٍ قياسـية وقاسية، وعروقٍ نافرة، ثـم طار قافزًا فوق

النيران في لقطة مُستعارة من تدريبات قوات الصاعقة!.. سقط مُمسكًا بقدمه اليسرى، مُتألمًا بشدة، ولكن الجمهور وجد الأمر أكثر إيلامًا بعدما انتهى من التصفيق، والتهبت أكفُّه.

عند هذه النقطة، أحسستُ أن الجائزة قد ضاعت بالفعل.

هنيئًا لكِ يا أم إسلام، فلا يبدو أنني سأقبِّل امرأة غيركِ ما حييت!.

* * *

انتهت الجولة، وانتهت في إثرها شهوةُ الأمل العارمة. نال الباشمهندس راجي، لدهشتي وسُخطي، أعلى نسبة تصويت، كيف؟ لا أعلم.. أيًّا ما كان أداؤه، فلن يستحق أن يُساوى بي بعد كل ما مررتُ به، ما بالي وقد تفوَّق عليّ! تليتُهُ في الترتيب، ثم جاءت ميرفت في المركز الأخير، بينما استُبعِد ياسر وصبري. ولكنّ اللجنة وغَيِّها لم يقفا عند هذا الحد، بل عرضَت على جمهور المُصوِّتين أن تستبدل ميرفت بالأستاذة داليا..!

استندت في ظلمها هذا لسببيْن؛ الأول أن داليا حصلت في الجولة الأولى على نسبة تصويتٍ أعلى بكثير من ميرفت، أي أن الجمهور اختار داليا حينما كان اسمها مُدرجًا بين الأسماء المطروحة للتصويت. السبب الثاني- وهو الأهم حسبما جاء في بيان اللجنة- أن المُفترض أن شخصية جان دارك هي من تجاوزت مصيرها الأخير، فكيف لا يُطرح اسمُ صاحبة الشخصية على الجمهور، كي يختاره إن شاء..

وبالنتيجة انتقلَت ميرفت إلى المقعد الأخير الشاغر في خلفية المسرح، وتوقَّف حلمها عند حاجز شيكٍ بقيمة 25000 جنيه، بينما انضمَّت إلينا

الأسـتاذة داليا! مُنتهـى الديـمقراطيَّة بالطبـع، وبالديـمقراطيَّـة أيضًا صرتُ وحيدًا في مُنافسة الجميع؛ اللجنة، البهلوان، الثنائي العاشق، وسوء النيَّة..

من يحتمل هذا إلا من تعوَّد القهر كما تُعتاد الضرائب الحكومية، من هو مُتـمرِّسٌ على ابتلاع الظلم واستنشـاق الفسـاد، من هو على شاكلتي؛ يُدركُ في نفسـه الموهبة والاسـتحقاق، ولا يجد سـبيلًا للفعـل. يظنونني جاهلًا، بسيطًا، سـطحيًّا، لا أصلح لشيء.. لا يدركون أنني أفوقهم اطِّلاعًا ومعرفةً، ولا ينقصني غير حفنةٍ من النقود أشتري بـها قشرةً برّاقة كالتي يُـميِّزون بـها أنفسهم عني!.

ولكـن، ألـم يعُد هناك أمل؟ لا أبدًا، الأمل موجود، وسيسـتمر، أملٌ في حياةٍ قد تبتسم رغمًا عنها إذا أضحكتُها بـما يكفي، أملٌ في الله وفي معجزته التي أوصلتني للجولة النهائية، أملٌ في صبر صابرة، وفي وداعة إسلام، وفي عزيـمة أمل.

داليا عادل سراج

أحيانًا، تُعاملني الحياة بطريقةٍ سيريالية؛ جميلة وحيوية- قد تكون- ولكنها غير مفهومة.. أخوض تجربةً تلو الأخرى، ثم أخلص في النهاية أن جميعها كان لصالحي، حتى المُخيف منها..!

من كان يتصوَّر ما انتهينا إليه عند هذه النقطة الرائعة؟! ولا أكثر المُتفائلين كان ليضع سيناريو كهذا؛ نزالٌ أخير يجمع سنو وايت وأميرها الوسيم في مواجهة الفأر جيري، صانع المكائد!!

أي قريحة أميركية عبقرية هذه، التي صاغت واقعًا بهذا الشكل؟!

لم أكن يومًا من هواة الحكايات الخيالية؛ سندريلا، سنو وايت، والجميلة النائمة. أتوق إلى حكايات الحب بطبيعة الحال، ولكني لستُ رومانسيةً إلى حد البلاهة كي أتجاوبُ مع حكايات كتلك. أما الآن، فمُستعدّة لأن أُصدّق أغرب القصص، وأكثرها خيالًا على الإطلاق، أنا نفسي الآن بطلة من بطلات هذه القصص، يجري عليَّ ما يجري عليهن من مُفارقاتٍ وهميَّة!

كدتُ قبل قليل أشكّ في راجي.. في البداية فسّرتُ غيابه بالخذلان، ثم شككتُ لوهلةٍ في تآمره ضدّي!! معذورةً كنت فيما تصوّرت، لكنَّ الواقع

تكشَّف عن ما هو أجمل من أي منطق.. كشف راجي عن جوهره؛ ليس شخصًا عاديًّا يجيء بأفعالٍ مُتوقَّعة، ولكنَّه بطلٌ أسطوري يسمو فوق أفعال البشر.

من يُصدِّق تضحيتهُ لأجلي؟! لم أسمع في حياتي بمن بُذلت من أجلها تضحية مهولةٌ كهذه؛ من يُقدِّم جسَده للنار فداءً لحبيبته!! كم أعشقه الآن.. كنتُ مُحِقَّةً عندما أحببتُه، وإن كنتُ لم أعترف لنفسي بحجم محبَّتي له قبل الآن، ومُستعدَّة منذ اليوم أن أبذل لأجل إسعاده أي شيء، فهو أهلٌ لحب أسطوري مثله..

***

جلستُ لصق راجي في استراحة الـمُتسابقين، نرشفُ من الحياة أسوغ لحظاتها.. ليت الليلة تستمر إلى الأبد، فليس أفضل من أن أرقب حبيبي على مهلٍ، بينما يُعالج إصابةً جرَّها عليه عشقُه لي، وتضحيتُه لأجلي!..

ضمَّتنا أريكةٌ حمراء لا تتسع إلا لنا، والحب.. أما أمل، فتمدَّد على شيزلونج بعيد، مُمسِكًا بذيله وعابثًا بطرفه وهو يرمق السقف! لا بد أنه يحتسب خسائرَه الـمُتوقَّعة عند مُلاقاة بطلي الـهُمام بعد قليل، أيًّا كانت طبيعة الـمُواجهة.. يرتعد خوفًا بالتأكيد، ويحترق قلقًا مما ينتظره. كان الـمُفترض أن يُواجهني وحدي، لذا كان سيخسر اللقب فقط، أما في مواجهتنا مُجتمعَيْن، فهزيمته الـمُتوقعة ستكون مُدوِّية، ومُؤلمة.. حسبه أن يخرج فائزًا بمكافأةٍ ضخمة، نظير مشاركته في تتويجنا!.

مسكينٌ أمل؛ بسذاجته تصوَّر أن بإمكاناته المُنعدمة تلك يُمكنه أن يصبح نجمًا، وهذه ليست مشكلتَهُ وحده، بل إنها عاهةٌ مُستدامةٌ مُوزَّعة على كثيرٍ ممن ينتمون لطبقته البائسة!..

عُدتُ من شرودي و سألت راجي:

- تفتكر هنفوز بالجايزة؟

- كفاية عليّا اني فُزت بيكِ.. أنا اترعبت عليكِ يا داليا، مش هتتخيِّلي.. كان ممكن اكسَّر المبنى على دماغهم لو رفضوا يدخَّلوني مكانك.

- ربنا يخلِّيك ليّا.. انت اللي مش مُتخيِّل قبل ما تظهر كنت مرعوبة قد إيه! بس دلوقتي حاسَّة اني مستعجلة على بداية الجولة.. عايزين نفوز بالدهب بقى!

- انتِ واثقة أوي كده؟

- يعني تفتكر أمل المسكين ده ممكن يكسب؟! طيب أنا راضية ذمِّتك، ده ينفع يمثِّل مصر في فيلم عالمي؟ ده الرقابة تمنعه حفاظًا على سُمعة البلد!

- حرام عليكي يا داليا، ده غلبان.. بعدين أنا مش باصص لأمل، أنا باصص للجنة اللي بتحرَّك كل حاجة حسب رغبتها، انتِ نسيتِ كان ممكن يحصل لك ايه؟ هم لو عايزينك تكسبي كانوا عرَّضوكِ للمصيبة دي؟!

- ولو مش عايزينّي أكسب ما كانوش وافقوا على مُشاركتك، ولا كانوا هيستبعدوا ميرفت عشان نكمِّل أنا وانت الجولة مع بعض.. وبعدين الجمهور هو اللي بيختار، اللجنة دورها تحكِّم بس!

- جـمهور؟!! إنتي أصلك طيبة يا دودي ومش فاهـمة اللي بيحصل.

- طيب ما تفهِّمني!!

- بعدين يـا داليا، مـش وقته.. أنـا محتاج مـكان متداري عشـان اظبَّط لبسي.

- ما انت تـمام اهو..

- قولي بسرعة، الاستعراضات شكلها في آخرها، تعرفي مكان ماحدِّش بيعدِّي منه؟

- فيه باب في الحيطة دي مستخبّي في الديكور، على اليمين اهو، تطلع منه على لوبي فاضي خالص. بس وحياتي ما تتأخَّر!

- ما تقلقيش.. قصدك الباب ده؟

أومأتُ له، فسـارع نحو الـمخرَج بخفَّته الـمُعتادة، ناسيًا إصابته. آلـمتهُ فتوقف، ولكنه تحامل وأكمل طريقه مُسرعًا..

مُهندمٌ ووسيم، ولا يحتاج إلى أي مجهود ليصلح من هيئته، فلماذا يغيبُ عني الآن من جديد؟! لـم أعُد مُستعدَّة لأن يُفارقني ولو للحظة أخرى، كما أن وجودَ أمل يُـثقل الـهواء من حولي بشكل لا يُحتمل..!

هل ألحقُ به..؟

لا، لا يصِـحّ..! سأتحمَّل الدقائق القادمة حتى يعود.

* * *

عندما استدعونا عبر النظام الصوتي استعدادًا للجولة الأخيرة، اندفع جيري- أقصد أمل- خارجًا من قاعة الاستراحة، دون أن ينبس بكلمة واحدة!..

ألقى سلوكه هذا في قلبي إحساسًا ثقيلًا، وسرَت لأطرافي رعدةُ قلقٍ وخوف.. لم يكن أمل حادّ الطباع منذ عرفته، ولم تظهر عليه أبدًا بادرةُ طُموح، بل كان يتوارى خجلًا من أي تعاملٍ مُباشر، حتى مع مستر ممدوح نفسه!.. يبدو أن اشتعال المُنافسة صهرَهُ وصَبّ مُحتواه في قالب جديد، أكثر قسوة وحِدّة..

أعترفُ أني شعرتُ بشيء من الوجل بسبب إقدامه على الجولة، واستباقه إلى الخروج كي يلتحق بالمُنظّمين. ألمحتُ بمخاوفي لراجي، ونحن في سبيلنا إلى الكواليس، فنظر إليّ بابتسامةٍ بنكهة الشيكولاتة الساخنة، دفئًا وهدوءًا، وأخبرني أنه لا داعي للقلق طالما لم نفترق..

ساد الظلام أجواء الكواليس.. اصطففنا خلف الموضع التي تنفرج عنده الشاشة عند دخولنا، يسودنا الصمتُ كأنما نقفُ حدادًا على غياب راحة البال! نظّم الدخول رجلٌ مديد القامة، أزرق العينيْن، حليق الرأس والوجه باستثناء شعر أشقر أعفاه أسفل شفته السّفلى.. زادني تجهُّمه توتُّرًا، خاصةً وقد قبض على كتف أمل، كما لو كان يقف بباب مأمور قسم شرطة!!

شبَّكتُ يديَّ خلف ظهري أُخفي اضطرابي، فضغط راجي أناملي من الخلف، مُطَمئنًا..

شكرتُهُ بضغطةٍ لأصابعه الطويلة اليابسة، شاكرةً لهُ ثباته!

دلفنا إلى المسرح، تفصل دخلة الـمُتسابق والذي يليه برهةُ انتظار، ملأها البهلوان بعباراتٍ رنّانة تُلخِّص مُشاركته حتى هذه الـمحطّة. ماذا سيقول عني؟! كيف سيصف مُشاركتي في الجولة الماضية تحديدًا.. هل سيُقلِّل من دوري بطريقة تُفتِّرُ من انبهار الجمهور بي؟!

حتى إن فعل ذلك لصالح راجي، لن أُحب هذا الشعور!..

استقبلني البهلوان بعباراتٍ برّاقة، أشبعَت كبريائي لحدٍّ مقبول، ولكنه فاجأني باستقباله الفاتر لراجي!..

استرقتُ النَّظر إليه قدر ما سمحَت الإضاءة، وددتُ لو أمكنني التحدُّث إليه، أستحلفك يا راجي ألا ترتكب حماقةً ردًّا على البهلوان السخيف، يُمكنكَ تحمُّل سخافته لساعةٍ أخرى لو تطلّب الأمر، الغاية الآن هي الفوز بالجائزة، أرجوك!..

طلب إلينا البهلوان أن نتربّع على أرض المسرح، في قوسٍ مفتوح في مُواجهة الشاشة، وأشار لي أن أتوسَّط القوس.

ما إن فعلنا حتى أشار نحو الشاشة ليُعلن أمرًا ما:

- دلوقتي، هينضم لينا على المسرح ضيف شرف الحفل، اللي هو أصلًا صاحب مكان، لكن هيحلّ ضيف على لجنة التحكيم خلال الجولة التالتة..

حيّوا معايا الدكتووور... ممدووووح رحال.

دوَّت قنابل التصفيق من كل مكان! ارتجَّت الأرض الـمُضيئة أسفل مني، وانفرجت الشاشة مُفسِحةً لمستر ممدوح كي يتقدَّم مُحيِّيًا الجمهور..

كـدتُ أنسـى أنـه صاحب الحفـل، وصُدِمـتُ للهيئة التـي ظهر عليهـا أيـما صدمة!! الليلة مجنونة بالطبع ولكن ليس إلى هذا الحد!..

دلـف مُرتديًـا زي هنـدي أحمـر؛ قميصًـا طويلًا وزاهيًا بأكمـامٍ مُتدلِّية، يكسـوه وشـاحٌ طويلٌ يتجـاوز مُنتصف السـاقيْن، مُعلق الطـرف على ذراع المسـتر ممـدوح اليُسـرى، وتدلّـت على صـدره قـلادةٌ فضيَّةٌ كبيـرة برباطٍ جلـديّ، ومن أعلى رأسـه تاجٌ من ريشـاتٍ طويلة، مصبوغـة النهايات بلون السـماء الصافيـة!.. زي قـد يُثير اسـتغرابي بشـدَّة لـو رأيته في ألبـوم صور تاريخيـة، فكيـف وقـد رأيتـهُ رأي العيـن، وعلى هيئـة من؟! مسـتر ممدوح نفسه!! من يُصدِّق..

وقف مسـتر ممدوح في مواجهتي تـمامًا، في قلب القوس الذي شكّلناه بجلسـتنا على الأرض.. شـعرتُ بأمان أكبر يتسـرّب إلى نفسـي لـمَرآه، أيًّا كانت هيئته، فهو مصدر إلـهامٍ وقوة لجميع من حوله..

التقط المايكروفون من البهلوان، وأخذ بصوته الرخيم الـمُحبَّب يُحدِّث الكاميرات:

- مسـاء الخير عليكم.. أتـمنى تكونوا مُستمتعين معانا بفقرات الحفل، وأتصوّر ان الـمُتعة بتزيد كل ما المنافسة بتشتدّ..

أحـب أعرب عـن سـعادتي بالـمجموعة اللـي وصلت معانـا للمرحلة دي، وأحيّـي بنفس الحماس مجموعة الـمُسـتبعدين اللي بيتابعوا زملاءهم من فوق المسـرح. كل واحد شارك معانا قدر يـمتعني لغاية لحظة خروجه، وكنت أتـمنى يكمّل لحد النهاية، لكن للأسـف طبيعة الـمُسـابقة ان فيه فايز واحد، وترتيب الخروج هيبقى مجرد تحصيل حاصل..

آخـر حاجـة أحـب اقولـها قبل مـا انضـمّ للجنـة الـمُوقَّرة، انـي أنا عن نفسـي، ممدوح رحّال، قرَّرت بشكل شخصي ألبس زيّ تنكري تضامنًا من الـمُتسابقين، وإعجابًا بأدائـهم ومجهودهم الليلادي.

ارتفـع التصفيق أكثر حماسًـا هذه المـرة، بينما انتقل مسـتر ممدوح إلى مقعد يتوسَّط منصَّة التحكيم، مُضيفًا البهجة والألق إلى مُحيطه كعادته!..

راجي مدحت بيومي

الكولونيل هو الكولونيل. آسرٌ على الدوام. فاجأني مشهد دخوله إلى المسرح بهيئته الغريبة تلك. لكنَّ الرسالةَ وصلتني على الفور؛ أنا واحدٌ منكم. لستُ غريمكم. أُمثِّلكم أمام لجنة التحكيم. مثال لكم في إتقان الأداء وحسن التحضير. جلس مُتوَّجًا بريشاته الـمُرسلة يسكب علينا نظراته الحانية، الـمُشجِّعة. بينما تمترس البهلوان الحقير خلف بُغضِه وفجاجته، تُضمِر لي عيناه كراهيةً خاصةً لم تخفَ عليّ. سأكسر عنقه دون تردُّدٍ مع أول بادرة استظرافٍ تُضايق داليا.

تبدّلت الألوان من حولنا فجأة. انتبهتُ إلى الشاشة الخلفية. في قلبها شمسٌ تُشرق. يغمر ضياؤها الشاشة بالتدريج، حتى ملأت المسرح بوهجها. أمامها برزت من الأرض منضدةٌ بيضاء، تحمل صندوق مجوهراتٍ مفتوحًا ومُمتلئًا عن آخره بسبائك الذهب. ما إن توقّف الصندوق عن الارتفاع، حتى لاحت في الشاشة من ورائه راقصاتٌ في أزياءٍ أشبه بفتيات هاواي. يتلويْن مُبتسمات. يُشِرن إلى الصندوق كأنما يريْنه بالفعل. الحق أن إخراج العرض رائعٌ. يستحق الإشادة. لولا أن البهلوان عاد ليفسد المشهد بمزيدٍ من سخافاته الرقيعة.

- وصلنـا للمحطة الأخيرة، والجايزة بقت أقـرب للفائز من أي وقت.. وصلتنا بعض الرسـائل على صفحتنا وعلى الـ(SMS) بتقول: معقول جايزة بالحجم ده؟ بجد فيه 25 سـبيكة دهب؟! للأسـف ما كانش عندنا وقت نردّ على كل الرسايل، لكن دلوقتي نقدر نقول لـهم... الجايزة قدّامكم أهي..

كنتُ أتحرَّك بحرصٍ شديد، خوفًا على نظام الاتصال الذي ثـبَّتهُ ستيفن أسـفل ملابسـي. لكني رغم ذلك شعرتُ براحةٍ أكبر بعد أن صرتُ جزءًا من الحدث. أن تشـاهد حدثًا تضطرب له الأعصاب من بعيدٍ شـيء. أن تُلامسه وتصبـح عضـوًا فاعلًا فيه شـيءٌ آخر. الحقيقـة أني لـم أعُـد مضطربًا. الآن يـمكننـي أن أدفع عن داليا الأذى. لن أسـمح لأحدٍ أن يـمسَّ شـعرةً منها، ولا أن يُـهينها ثـمنًا لجائزةٍ تتمناها.

تقدَّم البهلوان نحونا. بدا كأنه يخاطبنا نحن، حين أردف:

- 3 مُتسـابقين وصلوا معانا للجولـة الأخيرة. دلوقتي مافيش أصحاب.. دلوقتي مافيش أحباب.. دلوقتي مافيش غير الدهب، والذَّهبُ دونَهُ الرِّقاب! كده ولا لأ؟!

دلوقتـي المعركـة ما بقتـش معركة مُتسـابق لوحـده، مـع معلوماته، مع قدراته، لاااا.. دلوقتي المعركة بقت بين الـمُتسـابقين أنفسـهم، كل مُتسابق هياخُـد فرصتـه في الحصـول على الدهب، خـلال 3 دقايق، والـمُتسـابقين التانيين هيحاولوا يـمنعوه، أكيد مش هيسيبوه يفوز بالدهب لوحدُه..

اقتربت إحدى مُعوانتيْه وسـلّمتهُ حقائـب من قماش. طُبعت عليها لفظة (DESTINO) بحروفٍ زخرفية. ناول كل واحدٍ منا واحدة، وهو يُردف:

- كل واحد فيهم هيبقى مُزوَّد بأسلحته في المعركة الحامية دي، عشان تحمى أكتر وأكتر؛ زيت سخن ماشي، مسامير شكّ شغّال، خُطّاف مشبوك في حبل عادي جدًّا.. ترسانة كاملة من الأدوات اللي ممكن يستخدمها المُتسابق في عرقلة زميله، قبل ما يوصل للدهب.. ودلوقتي، لجنتنا الموقَّرة هتختار اسم المُتسابق صاحب المُحاولة الأولى للحصول على الكنز الموعود.

وسَّعتُ فتحة الحقيبة أتفحّص محتواها. لا يُمكن أن يكون صحيحًا ما ذكرهُ هذا المخبول. مستحيل. ثمة مُبالغة يتلاعب بها بأعصابنا. لن يسكب الواحد منا زيتًا ساخنًا في طريق الآخر. لن نخزق أقدام بعضنا بالمسامير بحثًا عن الذهب. لا بد أن في الأمر تهويلًا ما.

تمَّمْتُ على ما بداخل الحقيبة. وجدتُ ما ذكرهُ البهلوان موجودًا بالفعل! رنوتُ نحو داليا، فإذا بعينيْها قد جحظَت واتَّسعت قلقًا وترقُّبًا. أومأتُ لها أن لا عليكِ، بينما كنتُ في قرارة نفسي مُشتتًا بين التفكير في طريقةٍ لحمايتها، وبين الإقدام على التواصل مع ستيفن، خلسةً بالطبع. أريد التأكُّد من عمل نظام الاتصال، وأيضًا من مُتابعته وفهمه لما يجري على المسرح.

تناول الكولونيل كُرةً حمراء من داخل وعاء زجاجي. ناولها للبهلوان. سارع بفتحها واستخرج ورقةً مطويَّةً بداخلها. اسم المُتسابق بالطبع. أمال رأسهُ ناظِرًا نحونا كأنَّما بإشفاق. لم أتبيَّن إلى أيٍّ منّا على وجه التحديد ينظر. لكنه سرعان ما أعلن:

- الجميلة جان..

ماذا عليّ أن أفعل. لقد وقعَت الواقعة بالفعل؟ هل أعترض الآن أم عليَّ الانتظار بعض الشيء، حتى يحدث ما يمنحني سببًا للاعتراض. سحبتُ بهدوءٍ طرف الميكروفون من تحت قبعة الجليد. همستُ فيه مرة، ومرة، ثم مرات.. لا رد يصلني على الإطلاق. أين أنت يا ستيڤن؟ سارع بالرد أرجوك.

مرَّت دقيقةٌ جُهِّز أثناءها المسرح للمعركة القادمة. طُلِب إلينا النهوض والتراجع للوراء قليلًا، بنفس ترتيبنا. داليا في المُنتصف وأنا على اليمين وأمل على اليسار، والصندوق المفتوح يلوح من بعيد كأنما تضاعفت المسافة التي تفصلنا عنه بينما كنا غير مُنتبهين. اقتربَت الفتاتان. كبّلتا قدميّ وقدمَي أمل بأساور من قماشٍ مشبوكةٍ بسلسلة حديدية. ارتحتُ لتكبيل أمل. لكنني تساءلتُ: كيف أهرع لمُساعدة داليا بينما رجلاي مُكبّلتيْن على هذا النحو؟ اشتعل جزءٌ من الأرضية بأضواء مُتغيرة، يرسم سبيلًا بعرض ثلاثة أمتار على الأقل يصل بيننا وبين الصندوق. كأنها النار تتراقص أسفل منا. طُلِب إلينا جميعًا أن نستعد. لا وقت لمزيدٍ من التمهُّل. «ستيڤن!» ناديتُ بصوتٍ عالٍ مُستدعيًا رحمة السماعة المدفونة في أذني، حتى جاءني الرد أخيرًا.

- أسمعك، راجي، كنتُ على اتصالٍ برجالي أسفل المسرح، ما زال علينا الانتظار بعض الوقت، وأُتابع الموقف عن كثب، لا تقلق.

- أي انتظار وأي كثب؟!

حاولتُ التحدث إليه ولكنه لم يُجِب. خفتُ أن أسترعي انتباه المُحيطين، فصمتّ عن المزيد. الموسيقى تضرب الآن من السماء الدنيا،

أوركسترالية مُلتهبة. ثـمّة شـلل يصيب مراكز التفكيـر والتركيز في دماغي. أشـعر بنظرات داليا الـمُستجدية الـمُسـتفهمة تأكل جانب وجهي. لن أنظر إليها الآن. ماذا لديَّ لكي أقدِّمه.

أُعطِيَـت داليا إشـارة البدء كي تتحرَّك نحو الكنز. سَـعَت تسـتبق خوفها بخطـواتٍ مُرتبكـة، لا تتماشـى مـع زي الفارسـة الـذي ارتدته. هيـا، داليا. ابتعـدي أسـرع من ذلك. تغيَر لـون الأرضية فجأة، في البقعـة التي تحملها. سـرعان من انزلقت صارخـةً تحتضن الأرض! أمل، الـمُجرم، سـكب زيتًا في طريقها.

- إيه اللي بتعملُه ده يا حيوان؟!

صرخـتُ فيـه وقد راح يتقافز كفـأرٍ صحراويٍّ في اتجاه داليـا، عازمًا أن يلحـق بـها. قامـت هي تزحف على أربـعٍ وتتقدّم من جديـد. تبعَتها قفزاتُ أمل، وصرخاتي. كففتُ أخيرًا عن مُناداة ستيڤن، الذي لـم يُجدِ استجداؤه. تبعـتُ أمل كي أُمسـك بتلابيبه إن كانت له تلابيـب! تعثّرتُ في ارتباكي أول الأمـر. نـهضـتُ سـريعًا ورُحتُ أقفـز كما فعـل. الفاجر كان ينثر المسـامير الشـائكة في طريقها كمن يبذر حَبًّا! سـقطَت مُجدَّدًا. شقَّ صراخها صدري. وجدتني أسـحبُ الحبلَ من حقيبتي. أُطوّحـهُ كي يلتف خطّافُه حول رجلَيْ أمـل الـمُصفَّدتيْن. زحف الحبل أسـفل قدميْه إثر قفزةٍ عشـوائية من قفزاته. في الـمُحاولة الثانية، التف حولـهما بسـرعةٍ أفقدَت الـمُجرمَ توازنه. سقط كشـجرةٍ تنحدر بعد ضربة فأسٍ مُحكَمة. لدهشـتي، سـقط من ورائه جسـمٌ آخر! لـمحتُ ظلَّهُ قبل لحظةٍ يـمرق مُسرِعًا وينزلق في اتجاه داليا!

ممدوح إبراهيم الآدم

أكذوبة السلطة، أضحوكة النفوذ؛ أهذا ما جمعتَ، بعد خمسة عشر عامًا من الألـم والوحدة؟

تحتـاج لبرهـةٍ خارج الزمن، في مـدارٍ آخر، في بُعدٍ موازٍ، تلتقط أنفاسًـا نفيسةً مجانية، وتُسوّي حسابَكَ مع الزمن..

مـاذا تركت؟ وماذا جمعت؟ إن كان الحاصـل أكذوبةً وأضحوكةً فبئس ما جمعتَ يا ابن الآدم، عليكَ بؤس العالـم وشقاؤه!

تيجـانٌ مـن ريش، أرديـة من أسـمالٍ باليـة، حناجرٌ من معـدنٍ صدئ، وعقـولٌ مـن لحمٍ مُقـدَّد؛ هكـذا يقول آخـر تحليلٍ مُعتمَـدٍ قُمتَ بـه، فبئس التكوين..

مـن طينٍ ثقيلٍ خُلِقت، ثـم نفِخت فيـك روحٌ ترفعك، فتعلَّقتَ بينَ بين، لا في السماء تُحلِّق ولا على الأرض تقرّ، فأين المصير..

الضغوط تشملكَ، تعصركَ، تُفرِغ الروح من داخلك، فلا يبقى إلا الطين يـمكثُ في الأرض، يجف، يقسـو، يتشـقّق، تخـدشُ جوفَه ديدانُ الأرض، وتذروه الرياح..

هـؤلاء أصلب منـكَ، طينهم ترويه مياه الحب، فيتشـكَّل وحشًـا هائلًا، وينتقم لنفسـه.. أما أنت، فماذا قدَّمتَ لهـمسـة منذ ذهبَت؟ ساورتكَ أماني كاذبةٌ لإصلاح نظامٍ قاتل، ثـم التجأتَ إليه تحتمي من قسوته، أليس ذاك؟

هذه هـمسـةٌ جديدةٌ تنزف، على مسـرحٍ جديدٍ أشد قسـوة، في رحِـمِها روحٌ تستغيث بصوتٍ لا يحفل به المايكروفون، فهل تـمدَّ يدًا تسدُّ الجرح، توقِف النزيف، وتوقِظ الإنسان، أم تستمر ترسًا في آلة قتل؟

لا سلطة فوق نظامٍ يقتل، ولا لأحدٍ من البشر، حتى أولئك القائمين عليه والـمُتحدِّثين باسـمه.. النظام يسوق الجميع، حُكّامًا ومحكومين، ولا براءة لأحد، ظالـم أو مظلوم.

* * *

تجري إيڤون صوب داليا.. تظنُّ المسـكينة في نفسـها القدرة على إنقاذ صديقتهـا، فتنزلق قدمها علـى الأرضية الـمُزيَّنة،وتنـداح هي الأخرى فوق بطنها الـمُنتفخ..

تتضافر الصرخات، وكذلك الدماء.

فتاتان تتلوَّيان صارختيْن، وشـابّان يتجاذبان لكْمًا وسبابًا، فيقوم شريف - صديـق الماضي والممثل القدير الـذي اخترتُهُ مُقدِّمًا للحفل، واخترتُ له سـمت البهلوان بنفسي- باسـتدراك الأمر بالخروج إلى فاصلٍ غيرِ مُرتَّب. يرتبك المشهد تـمامًا، وينتفض أرباب المنصَّة يستدعون السيطرة من جديد، ولكن هيهات.. صرخات إيڤون الحامل تقرعُ أجراس الخوف، نزيف قدمَي

داليا يثيرُ القلق على مستقبل الـمُسابقة، جلبة راجي لا تهدأ، والتفاف أمل حول نفسه صامتًا يُنذر بِشرٍّ غير مُتوقَّع.

أطلبُ فريقَ الإسعاف فيحضر بعد دقائق، وتُحمَل إيفون إلى سيارة إسعافٍ تنتظر بداخل الجراج، يُصِرُّ زملاؤها الـمُستبعدون على مصاحبتها رغم اعتراض عضوة من اللجنة، جافة كشجرة تين، تتساءل عن موقفنا القانوني مما يجري؛ تقول إن السيدة الـمُصابة تركت مكانها بطريقةٍ غير مُبرَّرة، وغير مسموحٍ بها، وإن الـمُستبعدين عليهم التزامٌ بألا يبرح أحدهم موقعه، وإن غيابهم سيُثير التساؤلات بعد العودة من الفاصل.. تقول الكثير، ولا يحفل أحدٌ بما تقول، ويُترك الـمُستبعدون ليذهبوا دون اعتراض.

يأمر أحد أعضاء اللجنة بخفض الصوت، فتتلاشى الأنغام مُؤقتًا، وتتبيَّن ضجة الجمهور أسفل المسرح حين يحلّ الصمت أعلاه. يتحدَّث إلى مسؤولي التنظيم كي يستعيدوا السيطرة على الجمهور، ويطلبُ إليَّ أن أجمع شتات الـمُتسابقين الثلاثة فورًا، كي نعاود استكمال الجولة بأسرع ما نستطيع.

- فورًا؟ أترى ذلك ممكنًا؟

- يجب أن تجعلهُ ممكنًا.

يجيب بحسم.

كلُّ شيءٍ ممكنٌ مادام النظام يريده..

أمل معاطي عبد المعبود

كنتُ فائزًا بالجائزة لا محالة، لو لم يُفسِد عليَّ الفهد فوزي المُحقِّق..

نشب أصابعهُ في لحمي، اخترق جلدي في كل موضعٍ حطّت عليه كفّاه، انغرزت فيَّ أظافره كدبابيس مسدس البرشمة، فلم يحُل بينها وبين أوعيتي الدموية ملابسٌ أو جلد!.

كيف لموظفٍ «ابن ناس» أن يملك كل هذه الشراسة، ليفعل بي ما فعل؟! ربما لم تعُد نافعًا يا أبو إسلام، تحتاج لصيانة شاملة، أو تكهين نهائي!. تخطّيتَ الأربعين ولم تبلغ أشُدَّكَ بعد! شاب يصغركَ بعشرة أعوام على الأقل يفتك بكَ على نحوٍ مُخزٍ، لكِ أن تولولي على مُصابي ما شئتِ يا أم إسلام، لن أنهركِ اليوم، طالما أسكتُّكِ ونهرتُكِ عن العويل عند الشدائد كولايا الحارات والمساكن الوضيعة- وأنتِ إحداهن بالقطع- ولكن ليس هذه المرة؛ لقد ضُرِبتُ وشُتِمتُ وأُهِنت! ولكن، اخفضي صوتكِ المُبتذل قدر ما يُسعِفكِ، كي لا تُجرَح مشاعر إسلام لو علِم أن أباهُ أُهين على هذا النحو.

دُفِع بابن الناس ليقتلعني من الـمُنافسـة. عمدًا، لا أشـكُّ في ذلك، ولـم أحسـب حسـابًا لقوّته الـمُسـتترة. لا حـظّ لنا نحـن صعاليك هـذا العالـم. لا موهبـة تُقـدَّر ولا اسـتحقاق يُرعـى. قدرنـا أن نبقـى منكوبيـن إلـى يـوم الديـن، على وعدٍ بأن أكثر أهل الجنـة الفقراء! ماذا لو لـم نكن نحن الفقراء المقصوديـن، أو أن هناك من هـو أفقر منّا؟ فماذا يُعوِّضنا! مَن مِن هؤلاء قرأ مثلما قرأت، عرف مثلما عرفت، أو شـاهد مثلما شاهدت؟ يُفتِّشون هم عن جميلةٍ يعرضونـها في أسـواق نخاسـتهم، لا موهبة تستحقُّ الفرصة.. مجرَّد فرصة، لـم أطلب غيرها..

اللهم لا اعتراض على قضائك، ولكن على هؤلاء الأوغاد!.

* * *

أطبق الـهزيع ثقيلًا وقاهرًا، وسادَ الوجومُ أسفل المسرح. خفتَ ضجيج الجمهور، ولكنَّ لغطَهم ظلَّ يُبقبق كسطح ماء يضمر غريقًا في جوفه.

استدعانا الدكتور ممـدوح لحديثٍ عاجل. جلس ينتظرنا عند كراسـي الـمُؤخـرة، التي افتقدت دفء الزملاء الراحليـن. كنتُ أول الـمُلتحقين به، وسرّني أن أجدَه مُنفردًا، وأن أحظى بالحديث معه رجل لرجل. سأُخبره أني ظُلِمت، وأُهِنت.. إن كنتم قرّرتـم خسـارتي مُسـبقًا فلا بأس، فلم تـمنحني الحياة أيَّ شيءٍ أحببته أبدًا ، ولكنني في الوقت نفسه لـم أتنازل عن كرامتي قـط- وقـط هنـا تعني قدر ما اسـتطعت- ولا يُسـعدني أن تُفشِلـوا مسـعاي بانتقـاص كرامتـي! أعلِنوا من ترونه فائزًا دون اسـتكمال الجولة، فلم أخرج عن قوانين اللعبة، ولـم أُجازَ إلا باللكمات والسباب..

عزمتُ أن أعجِّل بهذا الحديث قبل أن يلحق بنا العاشقان، ولكن ما أن صافحني وأشار لي بالجلوس حتى زُمّت شفتاي، ولم أنبس بكلمة. كان هو من تكلَّم؛ قال إنه مُشفقٌ عليّ، ومُتعاطفٌ تمامًا مع موقفي، ولكنه في ذات الوقت مُقدِّرٌ لموقف راجي، فما تعرَّضَت له داليا لا يقبلهُ من له مثل شهامته ورجولته. رنوتُ إليه ذاهلًا، فأكمل برقَّته الآسرة أن لي مثل ما لراجي من شهامةٍ ونخوة، وأنني لا بد وأن أكون قد استعدتُ ما حدث الآن، بعد أن زالت عنّي سَورَة الحماس والـمُنافسة، فبصرتُ كم تأذَّت داليا وكم تألّمَت، وكذلك إيفون، لعلَّ اللهَ يأخذ بيدها فيما أصابها! يئستُ من أن ينظر لبؤسي أنا، أن يُشفِق على حالي أنا!. كأنهما هما البشر وأنا الديكور، هما أبطال المشهد، وأنا الخدعة البصريَّة أو الـمُؤثِّر الصوتي..! لِمَ يُفعل بي هكذا؟!

لمحتُ راجي يدنو من الجهة اليمنى، فأشحتُ بوجهي وأطرقتُ صامتًا أرمق الأرضية الـمُضيئة بألوان النار والألم. قال إنه حمل إيفون المسكينة إلى داخل عربة الإسعاف، وتشاجر مع الـمُنظّمين الأجانب حين منعوه من مُرافقتها إلى الـمُستشفى، بحجّة حاجته للاستمرار في الـمُسابقة.

- مُسابقة إيه وزفت إيه والست بتموت منّنا!

- مش زمايلك ركبوا معاها يا راجي، عايز ايه تاني؟

- أنا بس اللي عايز؟! يعني حضرتك مش عايز تطّمن عليها!

- أقعد يا راجي وخلّينا نتكلّم بهدوء، ونشوف هنخرج من المصيبة دي ازاي.

- حضرتـك اللـي دخَّلتنا بربطة المعلِّـم كده في الـمُصيبـة دي، خرَّجنا بقى! إحنا محبوسين ولا إيه، عايز افهـم؟!

مالت عليه داليا تُـهدِّئ من روعه.. لاحظتُها بطرف عيني دون أن أحوِّل بصـري ناحيتهم. لن أخاطبهما أبدًا مهما لمسـني الحديث.. الحق أني ليس لديَّ ما أقول من الأساس.

- أنا طلبتكم عشـان نوصل لحل يا راجي، يخرَّجنا كلنا من الأزمة دي، مش عشان نلوم بعض.. خلّيك في صُلب الموضوع من فضلك.

- صُلـب الموضـوع انـي أفهم الأول، علشـان أعـرف أحِلّ.. مـا هو لو حضرتـك كنت عـارف كل حاجة من البداية، وده الشـيء المنطقي الوحيد، يبقـى مش هنلاقي الحل عند حضرتك طبعًا! إيه اللي خلّاك تختار موظفين الشـركة للعبة القذرة دي؟ واشـمعنى الشـركة دي بالذات من بين شركاتك الكتير؟! تكونش أسِّستها من كام شهر مخصوص عشان اليوم ده؟!

جُـنَّ راجي تـمامًا! اتخذ حديثه منحـى جنونيًّا بالفعل!.. لـم أعُد مُطرِقًا لاعتراضـي فقـط، ولكنـه الذهـولُ الآن هـو ما حبسـني عن الـمُشـاركة في الحديث. سـمعتُ داليا تُـمسك بالزمام كي تقود الركب، بصوت هادئ لـم يشحذهُ الغضب:

- يـا فنـدم إحنا مـش عايزيـن نتعاتب دلوقتـي، راجي مش قصـده يلوم حضرتك ولا يحمّلك الذنب، كلنا مسـؤولين عن نفسـنا، وعن بعض، احنا بس محتاجين حضرتك تدعَّم موقفنا اللي قـرَّرناه.

- موقفكم اللي هو إيه يا داليا؟

- الانسحاب يا فندم، عايزين ننسحب بشكل جماعي؛ أنا وراجي وأمل.

جماعي؟! أمل!! ها قد قرَّروا لي موقفي بالنيابة عني.. أمرٌ طبيعي، منذ متى والحياة تتركني أُقرِّر لنفسي أي شيء؟!

- طبعًا انتو فاهمين ان الانسحاب مخالف للايحة المُسابقة، وضد الإقرار اللي مضيتوا عليه، لكن لو ده فعلًا موقف جماعي، فأنا هتضامن معاكم فيه.. بس أسمعها منكم كلكم.

- ما انا باقول لحضرتك كلنا، والزملا قاعدين وسامعين اهو!

الآن أدخلتني في زمرة «الزملاء»..! لا بأس، موقفٌ يُحترم، ولا بد أن يُكافأ بنظرة شكرٍ لأجمل فتاةٍ عرفتها عيناي.. للمرأة الجميلة صكٌّ مُوقَّع في قلب كل رجل، بالمُوافقة على أي شيء!.

نظرتُ إليها بابتسامةٍ مُعتذرةٍ مُتردِّدة، تتوارى من عينَي راجي.

سألني الدكتور:

- إنت موافق على القرار ده يا أمل؟

- موافق طبعًا سعادتك، طالما الزملا شايفين كده أنا معاهم!

أظنُّني استعجلتُ الردّ.. غبيّ!! كان الأجدر بي أن أُبطئ عليهم في إجابة طلبهم، حتى وإن وافق رغبتي..

- خلاص على بركة الله.. أنا مُتضامن معاكم، ومش هسيبكم.

أردف الدكتور ممدوح، وهو يطوي فوق ذراعه طرف ثوب الهندي الأحمر، قبل أن ينهض واقفًا ويُخلِّف وراءه فراغًا عميقًا..

داليا عادل سراج

أي نيزك ضرب استقرار العالم؟!

ليلة بكل هذا التقلُّب.. كيف؟!!

فرحةٌ ثم ترحة، ثم فرحةٌ أخرى وترحة جديدة، وهكذا كأمواج بحرٍ لا تتعب..

بُدِّد الحُلم، وبقِي الحب، والحب كافٍ في الأساطير وقصص الأطفال.. أما في الواقع، فكم رجوتُ أن أحصل عليهما معًا، الحب والحُلم، وكنتُ قريبةً من تحقيق ذلك، ثم... لا شيء!!

تبدَّدت كذلك «أيقونة» مستر ممدوح من خيالي؛ صورة الرجل الفذ، النافذ، الوديع، المُتلألئ.. شدَّ ما تبدَّل في مُخيِّلتي، بشكلٍ جعلهُ يبدو كمن دنت به قاطرة العمر من مرفأ نهايته، دون سابق تجهيز..

أشفقتُ عليه من موقف راجي المُتشدِّد حياله، وحاولتُ أن أحتفظ بصورته الأولى في خيالي، ولكنني أخفقت.. لم يعُد على حاله الأولى دون شك، أو ربما فشلتُ سابقًا في قراءة حقيقته، ورغم ذلك وجدتُ عاطفتي تهفو إليه أكثر من ذي قبل!..

الرجل صادقٌ في دعمنا، وإن بدت الأمور خارج سيطرته. هو المضيف ليس إلا، ليس القائم على تنظيم المُسابقة كي نلقي باللائمة عليه! والآخرون

أجانب لا يحملون طبائعنا كي نستنكر أفعالهم.. قد تكون هذه طريقتهم؛ «أبذل المزيد كي تكسب المزيد» وأنا عن نفسي كنتُ مُستعدةً لأن أبذل المزيد، لولا أن القوة تعوزني!

كم تمنيت أن يأخذ راجي مكاني، ويُنهي النزال بجسارته وقدرته البدنية، ولكن الأمور لم تجرِ كما رغبت، حتى صار أكثرَ ما نطمح إليه الآن، الانسحاب!!

اقترحتُ أن نفاوضهم لكي نقتسم الجائزة، حتى لو منحوا لثالثنا هذا جزءًا من الجائزة!

أما أن نخرج من هذا المولد الكبير بغير حمُّص، وبعد كل هذا العناء، فـ... حرام!!

راجي صعب المراس، صلب العزيمة، لن أقوى على مجاراته في العناد، ولن أُخالف رأيه.. أخشى إن فعلت أن أخسر كل شيء دفعةً واحدة، والأرجح أن مسألة اقتسام الجائزة لن يُوافَق عليها كما أكَّد..

هؤلاء قومٌ لا يؤمنون باقتسام أي شيء، لا عدالة في التوزيع في عرفهم، والفائز دائمًا هو الفرد.. هكذا أصرَّ راجي، ولديه كل الحق!!

لا بأس، المهم أني فزتُ به على الأقل، كما فاز هو بي، وهو الفائز الأكبر بالطبع..

***

قوبِل اقتراحي بالرفض كمل توقَّع راجي؛ لا جائزة ولا اقتسام ولا انسحاب، ستُستكمل المُسابقة شئنا أم أبيْنا!

بإرادتنا في الفوز، أو برغبتنا في النجاة من عقابـهم، ستُستكمل!!

وقفنا في مُنتصف المسـرح، في وضعيَّةٍ أشار بـها مستر ممدوح؛ هو في الـمُنتصـف، يتأبَّط راجي عن يـمينه، ويتأبَّطني عن شـماله، بينما أقعى أمل علـى الأرض أمامه، يستشـعر أكبر قـدرٍ ممكن من الطمأنينة، وقد انسـدلت على ظهره أسـمال الزعيم الـهندي الأحمر..

أنا أيضًا شعرتُ باطمئنانٍ نسبي!..

في الالتصاق برجلٍ عظيمٍ شعورٌ بالأمان لا يـمنحهُ غيرُه، خاصةً إن كان مُتقدِّمًا في العمر مثل المستر مـمدوح.

تحلَّـق مـن حولنا أفراد الأمن فـي قوس مفتوح، وأخذ البهلوان يتمشّـى أمامنا في انتظار إشارة العودة من مُخرِجِ العرض- أو هكذا فهمت..

بينما هو كذلك، راح يقذف المستر بعبارات تعجُّب واستهجان:

- معقولـة يـا ممـدوح يا رحّـال؟! انـت تعمل كـده! الناس بايـن عليها اتجنِّنت ولا إيه..!

هنا، عاد مؤشِّر التوتُّر داخلي يلتمس منطقته الحمراء! لولا ذراع المستر لتصدَّعُـت في التَّو، ولا حتى راجي يُـمكنـُه التعامل مع مصيدةٍ كالتي وقعنا في أسرها!..

سار البهلوان مُبتعدًا، ولا زال يهذي:

- وبعدين يعني، عايز توصل لإيه؟ فهِّمني.. حاسـس انك مش مشـهور كفاية مثلًا؟! ولا تكونش طالِب زيادة نسبتك في أسهم المؤسسة!

ثــم التفت نحونا برشاقة راقصٍ مُحترف، وأردف بانفعال:

- ما ترُدّ عليَّ يا ممدوح.. الله!!

أخيرًا، عاد مستر ممدوح للحديث معه، بصوتٍ أعياهُ طول التفاوض:

- ما انا قُلت لك كذا مرَّة يا شريف، وانت مش عايز تقتنع.. هاخُد الولاد دول وأمشي، ومش عايز منكم حاجة تانية.

- منكــم؟! إنــت بتتكلِّم كإنك مــش منِّنا وعلينا! إيش حــال ان ما كنتش انت اللي مشغَّلني معاكم يا رحّال!!

- كويس انك لسَّه فاكر.. رُدّ الجِميل بقى وساعدني أعمل اللي انا شايفُه صح.

- صح إيه بس يا ممدوح؟! وعايز تــمشي بالولاد تروح بيهم على فين؟ هو احنا هناكُلهم؟! كلنا هنخلَّص الليلة ونتوكِّل على الله!

- هم رافضين يكمِّلوا يا شــريف، واللي بيحصل معاهم ده مش أسلوب لعب. دي بقِت جولة تعذيب، وانا ما كنتش فاهم كده..

- فاهــم ولا مــش فاهم، انت مالك أساسًــا!! كل واحد فينا بيلعب دوره وبــس، وكل واحــد فــي دول موقَّع على إقرار بــمســؤوليته عن الــمُشــاركة، وقابــض مبلــغ أاااد كــده قبــل مــا يشــارك وهيقفش مبلــغ أكبر لمــا يخلَّص، وبيلعــب على جايزة تعَشّــي مصر كلهــا الليلادي.. جرى إيه يــا ممدوح، ما انت مُشرِف على كل حاجة بنفسك.. هتحمرق دلوقتي؟!

- تحــب أفكَّرك بطريقة التوقيع وطريقة تســليم المبالــغ؟ مالوش لازمة يا شــريف، خلِّينا في الــمُفيد.. من حقُّهم ينسحبوا طالما مالــهُمش رغبة في

الجايزة، ومتنازلين عن الشيكات كمان يا سيدي.. ده موقف واضح ومش محل نقاش.

في ذهول عقص ذراعيْه حول صدره، وبابتسامة عريضة مُتوتِّرة قال:

- ماشي يا ممدوح بك.. نِفسك تقلِبها دراما؟! أنا كمان بقالي زمن بعيد عن المسرح، ما انت عارف اني بعد همسة «الله يرحمها» ما ارتاحتش مع مُخرِجين تانيين، والظاهر دي فرصتي عشان ارجع للدراما الهابطة تاني!

تتابعت عدّات المُخرِج، استعدادًا للعودة!! أربعة.. ثلاثة.. اثنين.. واحد.. هوااا.

- رجعنا لكم للمرة الأخيرة، والمسرح هنا مولَّع إثارة وتشويق.. جمهورنا اللي حاضر صبره نفد، عايز يعرف مين اللي هيفوز بجايزة الـ 25 سبيكة دهب، وانتم أكيد عايزين تعرفوا زيُّهم بالظبط، وكمان أحلام المُتسابقين بلغت ذروتها، والمسرح ولَّع منهم نااار وبراكيين..

تحرَّك خطواتٍ موليًا ظهره ناحيتنا، غارقًا في ظلامه، ثم أردف:

- زي ما تابعنا قبل الفاصل الطويل اللي فات، جان دارك حاولت جاهدةً توصل للكنز، والفار جيري «صاحب المقالب والحركات» حاول يعرقلها عن الوصول للهدف..

الجديد معانا، واللي ما كانش مُتوقَّع بالمرة، إن قصة الحب اللي نشئت مع نهاية الجولة التانية امتد تأثيرها للجولة التالتة!! فارسنا الهمام، اللي قدِّم حياته على طبق من النيران إنقاذًا لحبيبته جان، فقد التوازن..! خرج عن السياق..! الحب شقلب كيانه، ودفعه لمُخالفة شروط المُسابقة، ولقيناه

بيوجِّه أسـلحته لسـحق الـمُنافس الغلبان جيري، اللي يـا عيني ما حيلتوش غير المكر والدهاء..!!

هنا بقى، قوانين الـمُسـابقة بتقول إيه: بتقول لازم تُسـتكمل الجولة بين كل اتنين مُتسـابقين على حدة، عشان نحمي الـمُدافع من بطش زميله، اللي مُفترض يشـاركُه في الدفـاع، وفي حالتنا، يا للأسـف، الحب هو اللي لعب لعبتُه!!

طوّح المايكروفون بيدٍ وتلقَّفهُ بالأخرى، مُكمِلًا بنبرةٍ حماسية:

- هنتابـع الجولة الأخيرة: جان فـي مواجهة جيري.. وبنطلب من زعيم الـهنـود الحمر اللـي فارض «حمايته» على الـمُتسـابقين، إنه يرجع للمنصَّة بعد إذنه!

عادت الموسـيقى الأليمـة من جديد، فعاودني معها وخز المسـامير في قدميّ العاريتين، ووجع ركبتي المكدومة!!

لـمحتُ أمل يتطلَّع لأعلى مُستطلعًا رأي المستر ممدوح، فسارع المستر بالإشـارة لـه أن يثبت مكانه، وبدا حاسـمًا جـدًّا..! تـمنيـتُ أن ألمح وجه راجي لأطمئن عليه، وأستشـّف موقفه، غير أن جسد مستر ممدوح- الثابت كتمثال- حال بيننا..

عـدتُ لـمُتابعة البهلوان، فإذا به يقف في مواجهة المسـتر، والغريب أنه لـم يكُن ينظر إليه، بل أخذ يرمق شـيئًا ما أعلى رؤوسِـنا، بدهشةٍ رهيبة، وقد نطقت عيناه بالرعب لأول مرة!!

فهمتُ أنه يرمق الشاشة بالخلف، خاصةً حين زعق بي راجي:

- بُصّي وراكي على الشاشة يا داليا!

راجي مدحت بيومي

أرهقْتَني يا ستيفن. لا مجال الآن لرسائل يُخلدها التاريخ. لا حاجة إليها على الإطلاق. ثمة أناسٌ سيذهبون هباءً فوق المسرح المُشتعل، إن لم تعجل بالأمر. لا تُعذِّبنا بأميركِيَّتكَ الخالصة. مهووسٌ أنت بتقاليد لم يتجاوز عمرُها عمرَ أحدث مبنى في شارع المُعِز. صدِّقني. ليست تقاليدكَ بهذه الأهمية. لن يحفل بها التاريخ مهما حاولت. اللحظة لن تحتمل المزيد.

أصرَّ ستيفن على إرجاء تدخُّله بنزع فتيل خطَّته. الكلمة أولًا، هكذا قال. ساورتُهُ قدر ما أمهلتني الظروف. لكنه أبى إلا أن تُلقى كلمةٌ في نخب اللحظة، قبل أن يشرع في التنفيذ.

أَستكشِفُ شخصَكَ هكذا مُبكرًا كي تحتفي بأنخاب هزليَّة؟! سألتُهُ هامسًا عبر جهاز الاتصال، ولكنه أصر:

- لن أكشِف شيئًا..

مجنون! أو آمن. يتعامل بهدوء من لم تلمس يداهُ غير الماء البارد. أما نحن، وقد غُمِسنا في النار حتى شُوِيت أكبادنا، فما عُدنا نطيق انتظارًا. كادت داليا تنهار. عمدتُ ألا أنظر ناحيتها ولا لمرةٍ واحدة، حتى يبدأ التنفيذ.

حينما يبدأ، سأضمّها إلى صدري وأطير بـها فوق ما يُقدِّره الله من حواجز. سـأبلِّغها مأمنًا مهما كلَّفني ذلك. لقد خُلِقتُ لأجلها. هكذا حدَّثتُ نفسـي. لأجل هذه اللحظة تحديدًا مارستُ الشيش عمرًا بأسره. ثـم أهـملتُه قبل أن أحمل كأس بطولته. تعلَّمته لأجل إنقاذها فحسب.

عندما قـرأتُ في نظرة البهلـوان تقدِمةً صريحةً لبدايـة التنفيذ، وجدتُني أصيـح بداليـا كي تنتبه. عيناه كانتا تقولان: ما هـذا الجنون؟ هل جُنَّ مُخرِج الحفل؟! في الواقع لـم يكن مُخرِج الحفل هو من جُنّ. بل كان ستيڤن. هو من استقبل إشارةً من أفراد طاقمه، تُفيد إحداث الفرقعة اللازمة فوق السقف الـمُستعار لقاعة الإخراج، وإضرام نظام مقاومة الحريق بداخلها، وإخلائها من طاقمها. هو من شـغّل نظام الـ(over-ride) الـمُعَدّ لإلقاء كلمة الرؤسـاء مـن غرفـة الـمُتابعـة والسـيطرة. هو من أجـرى اتصـالَ الفيديو مـع ناديش عبـر الإنترنـت، ووضع شاشـة الكمبيوتر الـمحمـول في مُواجهـة الكاميرا الـمُدمجة في الشاشـة رقم 13، كي تُحدِّث بنفسـها جمهـور الـمُتابعين عبر الشاشات، وتفضح القائـمين على هذا العبث.

ظهـرَت على الشاشـة مـن خلفنا صـورٌ مُتلاحقـة، بثَّتها ناديش. سـاقان مُحترقتان. عمليةٌ جراحية تُجرى في غرفة عملياتٍ بسيطة التجهيز، مُظلمة. ثـم سـاقان مُغلّفتـان بالشـاش الأبيض، وفتـاةٌ تبتسـم رغم الألـم. جميلةٌ ناديش. لـم يُبالغ سـتيڤن في وصفها. رائقة البشـرة. نجلاء العينيْن. مفغورة الفـم عن بسـمةٍ ناعمة، رغـم كل ما بـها مـن وجع. لا بد أنـهـا اليوم أجمل وأجمل، بعد أن قاربت على الشفاء.

هذا ما تأكَّد لي عندما ظهرت على الشاشة بنفسها. تتكلَّم بهدوءٍ وثقة. ابتسامتها لم تُزايل شفتيْها المُكتنزتيْن.

قالت:

- أرجو لكم سهرةً سعيدة، سعيدةً بحجم الإنسانية والسماء التي تحفها، ليس ضروريًّا أن تكون السهرة مُشوِّقة، ولكن سعيدة.. فتشويقكم في العام الماضي جاء على حساب ساقيّ هاتيْن، والليلة - غالبًا - يجيءُ على حساب ساقيْن أُخرييْن، أو ربما وجهٍ جميلٍ، أو صدرٍ ناهدٍ يتطلّع للحياة.. هؤلاء القائمون على الحفل لا يعبؤون بما قد يُصيب البعض، فقد نزعوا قلوبهم وزرعوا مكانها آلاتٍ حاسبة. أما أنتم، فمن بني جلدتي؛ ممن يكلؤون الصغار، ويرفؤون الثياب، ولا يأمنون جانب الزمن.. لستم منهم، فلا تُحابوهم. كفّوا عن هذه المهزلة، فالسعادة أثمن من تُدرَك بالشقاء، وأبسط من أن تجلبها المعارك..

أظلمت الشاشة فجأة. ارتفع لغط المنصّة والجمهور فوق كل شيء، بعد أن سكتت ناديش. وقف أعضاء اللجنة يستعرضون آيات الغضب. باءت محاولات البعض بالفشل عندما حاول تحقيق اتصالٍ مع مقصورة الإخراج. ازدادوا غضبًا على غضب. أفراد الأمن أخذوا يتلفّتون يمنةً ويسرة. كانوا ينتظرون أي تعليماتٍ من أي جهةٍ بالانقضاض على أي شيء. لكن التعليمات لم تجئ. الارتباك أخذ يزداد، وكذلك اللغط.

تابعتُ منصَّتَي إطلاق القواقع الناريَّة عن يمين المسرح ويساره وهما ترتفعان. أُعجبتُ بصنيع صديقي الأميركي المُذهل حينما مالت المنصّتان، بزوايا مدروسةٍ كما بدا. انطلقت ألسنة لهبٍ تخترق أعلى الشاشة العملاقة

في الخلف، ثـم أوسطها، ثـم أدناها، والذعر يضرمُ نيرانه في جوانب مسرحٍ مُرتبك. تشـتّتت المنصة بعشـوائية الفزع. تطايرت أطقم الكواليس تباعًا من وراء الشاشـة الـمُختَرَقـة، ومـن أعلـى المسـرح. حتـى أفراد الأمـن راحوا ينبطحون شـيئًا فشـيئًا، حتى أوشـكوا علـى الزحف. هرع بعـض الزاحفين نحـو أعضاء اللجنة الـمُتفلّتين. بينما اختفـى أكثرهم بعد غياب التعليمات. سـاد هرجٌ كأنـه الحشر، وسريعًا أعلن سيطرته كاملةً على الموقف. عندها، تشقّقت في قلبي شرنقة الرجاء، وعلمتُ أن الوقت قد أزف.

ضممـتُ داليـا من الخلـف، ولكـزتُ أمـل. اسـتدعيتُ الكولونيل كي ننطلق هابطين من أعلى المسـرح، مُندفعين وسـط الجموع الـهائجة. ما أن بادرنـا بالحركة حتى لـمحتُ أمل يلتحم مع ارتباك المشـهد، مُتَّجهًا صوب صندوق الذهب الذي فرغ المشهد من حوله للحظات. عاد سريعًا وقد خلع قناعهُ وأومأ لي أن أتحرّك من فوري، لاحقًا هو بي بأخفِّ ما استطاع. توقّفتُ عن متابعته، فقد كان جلّ اهتمامي مُركِّزًا على الصوت الذي أنتظره.

ياسر، صبري، أرجوكما، لا تخذلاني الآن..

مرَّت برهةٌ قبل أن ينتشـلني الصوت مـن قبضة انتظاره. لكنَّه جاء أخيرًا؛ صـوت انفـلاج البوابـة الرهيبة. نِعـمَ الصوت أنـت. لا تصدر إلا عـن بوابةٍ عظيمة القوة. خضعَت أخيرًا لقوة اندفاع ونش السيارات، الذي أتى به ياسر وصبـري طبقًـا لاتفاقنا عند عربة الإسـعاف. اتفقنا أن يسـارعا باسـتجلاب ونـشٍ، ليجذب البوابةَ فاتحًا فور سـماع ضربات الألعاب النارية بالداخل، ومعها صرخات الذعر بالطبع. تأخر التوقيت هنيهة. لكنه يظل مُناسبًا.

اندفعنا نستبق الجموع نحو البوابة الـمُنفرجة. لم تهدأ خطوتي حتى دفعتُ بأمل وداليا إلى الخارج. بالخارج أيضًا، لم أجد الكولونيل! ثم اختفى أمل من المشهد وأنا شاردٌ أستطلع أمر الكولونيل. وجدتُه بعد برهةٍ يعبث ناحية كشك الحراسة.

- بتعمل ايه عندك؟!

- مش لاقي لا مؤاخذة الكوتشي بتاعي، كنت سايبُه هنا قبل ما ادخل..

- مش وقتُه يا أمل، هاجيب لك غيره، بس اخلص..

- مش مسألة غيره يا باشمهندس، ما انا عندي كذا كوتشي! بس تفتكر هامشي كده يعني؟!

- تلاقيك عايز تخبّي جوّاه اللي نتشتُه..

فرك رأسهُ الذي غاب طويلًا أسفل القناع. أفهمته أني لاحظتُه وهو مسرعٌ ناحية الصندوق؛ صندوق الذهب.

- يعني يرضيك البهدلة دي يا باشمهندس، واطلع إيد ورا وإيد قُدّام؟!

- تقوم لاطش حتّتين يا أمل؟

- والمصحف واحدة! التانية دي عشان إيفون يا هندسة! أهو ربنا يعوّض عليها بأي حاجة لو سقّطت..

- اخلص يا أمل! داليا في إيدك ما تسيبهاش لحد ما توصّلها البيت، فاهم؟!

أومأ مُؤكِّدًا. بينما سألتني داليا، تسبقُ شفتيْها عيناها المذعورتان:

- انت هتسيبنا وتروح فين دلوقتي؟!!

- هاجيب الكولونيل واحصّلكم. وستيڤن كمان.

- ستيڤن ده يطلع مين؟!

- مش وقتُه يا داليا. بعدين!

ولَّيتُ عنها. لم أُعِر بالًا لاستجدائها الذي لاحقني. الوقت ضيق يا دودي. لا بد أن أجد ستيڤن. فقدتُ اتصالي به منذ لحظات، لبعد المسافة على الأرجح. عليّ أن أخرجه من هذا المكان في أسرع وقت. تذكّرتُ السلم الذي أهملتُ إعادته إلى المخزن، وتركته لصق سور القصر. الأفضل أن يتجنب ستيڤن هرج البوابة ومخاطرها، فهو مطلوبٌ من القوم دون شك. مَن غيره يملك التحكم في الألعاب النارية. بعد أن نتخطى السور، سأذهب به مُباشرةً إلى المطار، حيث ينتظر آمنًا حتى موعد رحلة نيو دلهي. لا بد أن أتصل بداليا في الطريق. هاتفي! أخذوه الملاعين قبل صعودي المسرح. لا بأس. سأتصل بها بطريقةٍ أو بأخرى. أما الكولونيل، فلن أبحث عنه طويلًا. إن لمحتُه هنا أو هناك سأطلب منه أن يصحبنا. إن لم تُسعفني الصدفة سأتركه ليتدبّر أمره، فالنهاية من تصميمه هو، كما البداية!

رمقتُ القصر وقد غرق في ظلامٍ مُبهَم، مُستسلمًا تمامًا لسياط التفجيرات، ودفقات الضوء المُلوّنة التي أخذت تبرق على واجهته كل حينٍ، تتجاوب معها الصرخات المُنبعثة من دهاليز الظلمة، أكثر خفوتًا مع كل دفقة.

اندفعتُ للداخل محمولًا بنشوةٍ هائلةٍ هذه المرة، وقد امتلأتْ نفسي باطمئنانٍ شاملٍ، لم أشعر به من قبل.

بداية سطر جديد

ممدوح إبراهيم الآدم

- رجعنالكم بعد فاصل أخير، وكنت أتـمنى كل مشـاهدينا يتابعوا معانا الحالة الجميلة اللي عايشـينها في الاسـتوديو.. أبطالنا برهنـوا تـمامًا قد إيه هـمَّ أصحاب مبادئ ومواقف إنسـانية رائعـة، وازاي فضَّلـوا يحافظوا على سلامة بعض على الفوز بجايزة الـ 25 كيلو دهب، اللي أي حد فينا يتمنّاها.

أفتكـر جمهوركـم في كل مكان عايز يسـمع كلمة مـن كل واحد فيكم، تعكس تجربته وموقفه.. ممكن أبتدي بيك يا راجي وأسـمع منك، بـما إنك «قائد كتيبة المتمرِّدين».. تتفق معايا على الـمُسمّى ده؟

- الحقيقـة لأ كل واحـد منِّنـا كان ليـه دور مهم جدًّا فـي خروجنا من الأزمة. داليا مثلًا كانت السـبب في تحوُّل الموقف على المسـرح بالموقف اللي اتعرَّضتلُه، وإيڤون كانت سبب في تعاطف ناس كتير معانا، على رأسهم دكتـور ممدوح نفسـه، وبسـببها خـرج زمايلنـا التانيين مع عربية الإسـعاف وقـدروا يسـاعدونا من برَّه ويفتحولنا بوابة القصر، أمـل طبعًا فضَّل مصلحة الجميـع على الفوز بالجايزة- رغم إنه كان مرشَّـح قوي جدًّا- أول ما حس بـمدى الخطورة اللي ممكن البنات يتعرَّضولـها.

- رائع يا راجي.. هو ده المتوقع من شخص في أخلاقك وإنسانيتك. طيّب نروح لـ داليا، جميلة الجميلات، اللي كانت المحرك الرئيسي للتمرُّد الأخيرة.. بدايةً، تتفقي معايا يا داليا على لقب «جميلات الجميلات»؟

- اللي تشوفه حضرتك، أنا متفقة معاك من أول الحلقة، مش معقول نختلف دلوقتي..

- طيب، تحبي تقولي إيه لجمهورك؟

- أحب أشكر كل اللي تابعوا البرنامج في كل البلاد، اللي بعتوا رسائل أو جمّعوا توقيعات وعملوا صفحات على الفيسبوك عشان يدعمونا.. موقفهم هوَّ اللي دفع المسؤولين عن دستينو لرصد مكافآت بأسمائنا، والأهم من المكافآت: تعديل قوانين المسابقة بدايةً من السنة الجاية لصالح المتسابقين.

أنا على المستوى الشخصي، مبسوطة أوي بالفان بيج بتاعتي اللي وصل عدد المتابعين فيها لـ 500000 أو أكتر من دول كتير جدًّا.. بجد باشكرهم واقولُّهم أتمنى دايمًا أكون عند حسن ظنكم.

- عظيم يا داليا.. كلام جميل يليق بصاحبته، جميلة الجميلات زي ما اتفقنا.. طيب هنروح للقديسة: إيفون.. رغم خسارتك المبكرة في المسابقة، إلا إنك فوزتي بمحبة الجمهور وتعاطفه معاكي من أول لحظة.. أكبر عدد من الرسايل جالِك من أوروبا ومن أمريكا الشمالية والجنوبية، وكلها اتفقت على تلقيبك بـ «القديسة»، أنا شخصيًّا موافق على اللقب ده تمامًا.. تقولي إيه للناس اللي لقَّبوكي بيه يا إيفون؟

- الحقيقة يا فندم مش عارفة أقول ايه! أنا مش شايفة اني عملت حاجة تستاهل، بس فرحانة أوي بتعاطفهم معايا، وعايزة أشكر المسؤولين عن المسابقة على دعمهم وانا في المستشفى.. كتَّر خيرهم غطّوا كل مصاريف العلاج، وما سابونيش ولا يوم لغاية ما خرجت، ووعدوني يتكفّلوا بباقي المصاريف لغاية ما أولِد.. فأنا مش عارفة اقولُّهم إيه الحقيقة..

- رائع، رائع.. البعد الإنساني هوَّ الأهم بالتأكيد في أي نشاط ترفيهي أو اقتصادي.. ختام حلقتنا هيكون مع صديقنا الجميل، أمل، عشان يمنحنا الأمل والتفاؤل. المايك معاك يا أمل قول لجمهورنا أي حاجة تخطر على بالك.

- هوَّ لسه فيه كلام يتقال يا أستاذ؟! كفاية انّي طلعت مع سعادتك! والله العظيم الورّاق وعرب المعادي كلها بتتابع البرنامج بتاع سعادتك وبيسلِّموا عليك..

- وانا سلامي لكل أهل الورّاق، ناسنا وأهالينا الطيِّبين، وباشكركم على حضوركم معانا الليلادي.. بافكَّركم ان الحلقة بتتَّرجم على الهوا مباشرةً لجمهورنا في كل أنحاء العالم، وأعتقد انها حقَّقِت ولسَّه هتحقَّق نسب مشاهدة غير مسبوقة على مدى الساعات والأيام الجاية، والجاي أفضل وأفضل أكيد طالما عندنا نماذج مضيئة زي ضيوفنا الليلة..

أعزائي المشاهدين، وصلنا لنهاية أول حلقات برنامجنا، وأتمنى ما تكونش آخر حلقة تجمعني بيكم.. على وعد بلقاء جديد وسَبْق جديد، أسيبكم دلوقتي مع أهم لقطات ضيوفنا في مسابقة دستينو، وتصبحوا على خير.

* * *

أطفأتُ سيجاري مع عبارة شريف الأخيرة، ونهضتُ مُتَّجهًا صوب الممر الـمُؤدّي إلى استوديو التصوير. وقفتُ أرقبهم من الكالوس؛ تابعتُ فنيّ الصوتيّات وهو ينتزع آخر ميكروفون من سترة راجي، والتقطتُ نظرةً ذاهلةً شكَّلت ملامح أمل، تريد أن تبتلع فراغ الاستوديو قبل الذهاب. لم يفُتني أيضا ذلك البريق البادي في عيني داليا وهي تُودِّع شريف، بأريحيَّةٍ تُمليها رغبتها الدفينة في ظهور تليفزيوني جديد، بينما تَوارى عني وجه إيفون، فقد كانت توليني ظهرها الذي أعاد الحمل رسم انحناءاته، ولكني حدَّسُت أنَّ الرضى لا بد وأن يكون مرتسمًا عليه أيضًا.. جميعهم يبدو مكتمل الرضى في هذه اللحظة، ولا يظهر على أيٍّ منهم- بما فيهم راجي- أنه اكتشف أمر شريف، بعدما تخلَّص من هيئة البهلوان وانتزع صوتَهُ من حنجرته الـمُدرَّبة. شريف لا يُخيِّب ظني أبدًا، طالما وصفته همسة بالموهبة الصادقة، والحق أني أتَّفق معها بخصوص موهبته، وإن كنتُ أختلف فيما يتعلَّق بالصدق.

سارع شريف بالخروج قبل الجميع. مُتسرِّعٌ كعادته. احتضنتُهُ مُباركًا على أولى حلقات برنامجه التليفزيوني، على القناة التابعة لنفس الحوت الإعلامي مُنتج دستينو.. المؤسسة، في ثوبها الـمُعدَّل الذي فرضتهُ الـمُتغيِّرات؛ قناةٌ تعرض الـمُسابقة بكثافةٍ أكبر، وبتركيز شديد على مشهد النهاية الدرامي، وقناةٌ أخرى «زميلة» تهاجمها، بضراوةٍ تبدو صادقة، وتحفُّزٍ بالغٍ لصالح الـمُتسابقين والـمُشاهدين، تدَّعي الدفاع عن الطرف الأضعف في المعادلة، بينما الجميع يصبُّ في ذات البوتقة في نهاية الأمر!

مـن بعيد رمقني شـريف، ممتنًّا على ما يبدو، أنا مـن وضعتُهُ على طريق النجومية الحقَّة الآن، بعد مشـوار امتدَّ طويلًا من مسـرح الدولة التعس إلى مسـرح دسـتينو الهزليّ، وأخيرًا هنا، في هذا الاسـتوديو.. عبـر بـمُحاذاتي، فأسَـرَّ لي هامسًـا بأن مندوب المؤسسـة امتدحني صباح اليوم، أثناء توقيعه علـى تعاقـده الجديد، كالعـادة أثنوا على ذكائي وحُسـن إدارتـي للأزمات، بحيث تتحوَّل التهديدات إلى فرصٍ سانحة، ونقاط الضعف إلى مواطن قوةٍ راسـخة. لِـمَ لا، وقد سـاعدتـهم على تحويل دفَّة السـفينة من غرقٍ محقَّق إلى ارتفاعٍ حادٍّ في مُنحنى الـمُشاهدة، والمكاسب الإعلانية والإعلامية!.. هكذا تكون الإدارة الاستراتيجية، وإلا كيف تكون؟

خرج الباقون في إثره، فاستقبلتُهم باشًّا، مُثمِّنًا أدوارهم. «براڤو يا ولاد»، قلـت، بينما أُصافـح راجي وداليـا، وأُربِّتُ علـى كتف إيڤـون وصدغ أمل. أبلغتهم أن سـيارة البرنامج تنتظرهم بالخارج، كي توصلهم حيث يشاؤون، ثم استوقفتُ راجي قبل أن يبتعد. سألته:

- مافيش أخبار عن ستيڤن؟

- في الـهند.

- خلاص قرَّر يستقر هناك؟

أومأ بالإيجاب، وأردف:

- بيحضر لجوازه.

- ابقى طمنّي عليه.

- حاضر.

اتَّجه نحو الخارج فاستوقفتُهُ مجدَّدًا، وسألته:

- مش ناوي ترجع الشغل يا راجي؟

كانت ابتسـامتُه العذبة هي الإجابة المتوقعة، بعدها شدَّ على يدي ولحق بزملائه..

لـو كنـتُ واضعًا قائـمةً بأهم خسـائري في هذه المرحلة، لشَـغَل راجي قمَّتَها بكل تأكيد، ولكني لن أضع قائـمةً كتلك، لا بد وأن أحتفظ ببقايا الطاقة الإيجابية التي ادَّخرتُـها في المرحلة السابقة، والخسائر حتمًا ستُستعاد يومًا كما استعاد لي رجائي شقة المنيل، بشكل أو بآخر..

اتَّفـق مع حـارس بنايـة المنيل على تيسـير شـرائنا «السـطح» من مالك البنايـة، بعدما أضنانا التفاوض مع قاطني الدور الأخير؛ حلٌّ لا بأس به أبدًا، يفوق ما طمحتُ إليه سابقًا..

طابـقٌ إضافـيٌّ يعنـي كادرًا أوسـع، يرشـف النيل مـن علٍ. منـه ألتمس الـمـدار، وأختلس مُهلـةً من خزينة الأيام. أشـاركُ النيلَ آلامـي وذكرياتي، وأسألهُ مهلةً كي أُسوّي حساب الزمن..

ربـما لـم يعُد في جعبتي شيءٌ أُقدِّمه، لا لنفسي ولا لغيري، ولكنَّ ذلك لا يعني أبدًا أن أستمرئ الأخذ، من نفسي ومن غيري..

أملـك الكثيـر، أكثر مما ينبغي، ولا أملك نفسـي! مُعادلة هزلية، رضيتُ بـهـا ردحًا من الزمن، ولا زلتُ حائرًا بين شـقّيها حتـى هذه اللحظة.. أدرك

أنــي لن أملكها مهما حاولت، ولكن... أن أمنحها عن يدٍ، قطعةً وراء قطعة، فهذا شأن آخر..

العمــر الماضي مضى إلى غير رجعة، والحاضر لم يبشِّــرني بأي جديد، فمـا زلــتُ أحــاول التملُّصَ مـن قبضة المؤسســة حتى هـذه اللحظة، ولكن المــرء لا يــملــك إلا أن يحــاول مجدَّدًا، أن يبــدأ من جديد، طالما اكتشــف خطًّا للبداية..

الخـط هناك، فوق الســطح الـمُطِلِّ علــى النيلِ أعلى بنايـة المنيل، فوق أوراقٍ بيضاء خاوية، تنتظر الكلمات..

وطالما وجدتُه، فلن أفلتَه..

*** تــمت ***

شكر وعرفان

أدين بالكثير من العرفان للكثير من البشر، هم زادي الذي أحمله عبورًا إلى الضفة الأخرى، من بينهم من منحني من وقته واهتمامه ما أعانني على إنجاز هذه الرواية، فلهم شكري وامتناني بقدر ما أحمل لهم من حب..

- هشام الخشن
- أشرف العشماوي
- نرمين رشاد
- محمد صادق
- أحمد عبد المجيد
- محمد الصفتي
- حسام الفرة
- محمد نجيب عبدالله
- دعاء الحناوي

وأدين بالفضل لمن صنعوا مني شخصًا أفضل؛ أبويّ وأخواتي، وزوجتي الحبيبة.. إليهم أهدي صنعة أيديهم.

"لحظات ويبدأ السباق..

الموعد المُقرَّر يدنو نحونا كقطار إنجليزي، ولن يؤخرهم عن بدء الحفل في موعده شيء، فهم يُقدِّسون المواعيد أكثر مما يحترمون البشر، أكثر من أطنان القمح التي يُغرقونها في المحيط، أكثر من حيواتٍ تُزهقها نفاياتهم النووية، أكثر من حياتي وسطهم ومن رجائي إليهم.

فليبدأ الحفل إذًا، لا فرق عندي. سأضع لباسي التنكُّري، وأحصد الثمن".

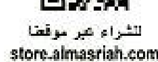
وراء الأحلام ألف باب من الأطماع التي تدفع أصحابها إلى المخاطرة والمغامرة، وأحيانًا إلى الجنون، وفي لعبة الحياة يقف الموت حكمًا ينتظر المتعبين من سباق آمالهم الجريحة، ومراوغة واقعهم البائس؛ ليطلق في وجوههم صافرة النهاية.



أحمد القرملاوي كاتب ومهندس معماري مصري، من مواليد القاهرة عام 1978. تخرج في كلية هندسة التشييد في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وحصل على درجة الماجستير من جامعة إدنبرا، أسكتلندا. يكتب الرواية والقصة والشعر، صدر له رواية "التدوينة الأخيرة" 2014 ومجموعة قصصية "أول عباس" 2013.


9 789777 950008





الدار المصرية اللبنانية